علوان السهيمي

الدود

رواية



الفارابي

الــــدود

علوان السهيمي

الـــــــدود

روايـــة

دار الفارابي

المحتويات

شكر

أقدّم جزيل شكري للأخوين خضران السهيمي وعلي السهيمي نظراً لما قدماه من جهد في إنجاز هذا العمل.

علوان

الإهداء

إلى ياء الملكية في (لي).

... واكتملت دورة الفصل

آه يا لقذارة الدود...

مغلوبون على أمرهم أولئك الذين يشعرون بالضياع! أنا لا أشعر بالضياع بقدر ما تعتريني رغبة ملحّة في البصق على هذا العالم المتواطىء والدنيء، العالم يشبه منفضة السجائر، يجتمع في النجس والأوساخ وأعقاب الناس.

كل ما حولنا يشي بكون بائس، هذا البؤس وليد الإنسان المتحضر، أحياناً تكون أجسادنا جسراً تطأ عليه القذارة للعبور، وأحياناً... نأكل كل ما هو قذر، كي ننهي القذارة من العالم. آلية الأكل ألبستنا نوع اللاتقزز، واستحال البشر إلى آلة تمضغ المشاهد والأحداث دون تذوّق!

بين هذه الأحايين، تلاحمٌ على سُلّم النتن البشري.

أرحم نفسي كثيراً، لأنها كانت في درجة بين مرحلتين، وعياً، ودافعية!

عالمي امتلاء بكل شيء، أنواع كثيرة كانت تحيا فيه، عالمي مسخ من عوالم كثيرة، أحياناً أتساءل هل هنالك أحد

يعيش كما عشت...؟! وهل ثمة كائنات غريبة يحسّها البشر غيري كما أحسّها أنا...؟!

كنت أسمعهم دوماً في همس يقولون «حتماً سيموت»...

وكنت أحتاج إلى قوة أخرى لتفسير هذا التأكيد الموثوق بألسنتهم. لم أكن أعرف بأن الموت سهل بهذه الطريقة. يكفي أن نقول ثلاثة أحرف ليحصل الموت. إن آراءنا شهادات تنطق، فمن أعطى أولئك الحق في قول هذه الشهادة عليَّ، هل كنت أستحق أن أقف أمام الحياة موقف لص أو مجرم...؟

أشعر بالموت فعلاً، حين أرى نظرات الرأفة تنغرس في جسدي، وأنا لا ألوي إلّا على الصمت. لم أكن أتخيّل بأن الناس بهذه البساطة في فرز كلماتهم تجاه إنسان مارس حياته بألم، وعاش فيها بألم، وهو يكتب الآن بألم!

إن قُطر حكايتي في الحياة، مسافة ألم ولوعة!

لوعة أبحث عنها من فرط ما جرّبت من الأشياء التي ينعتها الناس باللوعة!

إنني وإن كنت لا أحب إلّا أن أكتب حياتي، ولا أحب أن أقصّها لأحد من فمي، إنني وإن مارست هذه العادة ككتابة فقط، فهذا لأنني لا أثق باللسان، لأنه هو الذي أوقفني أمام مأساتي بصنمية الكهان، وغباء الملاحدة!

شعوري الآن مجرد وخزة، فموتنا وخزة عظيمة. تتابعت

مشاهد حياتي وأنا حائر بين تصديقها وتكذيبها. أحياناً نقف أمام المواقف بحيادية مفرطة، لأننا لا نشكّ بإبرة الترجيح!

بياض ما حولي الآن محاولة ممن هم قريبون مني بتغيير مفهوم الحياة في ذاتي. لن أغيِّر ما في ذاتي من كره دفين تجاه كل الكائنات بلا استثناء. رغبات عدة تخالجني الآن، وددت لو أتبرّز على كل ما في هذه الحياة، أرى الكون من حولي مجرد جراثيم تنخر عظم الزمن، هذه حياتنا أكل وأكل...

ماهيات الأشياء تغيّرت، ولم يبقَ لي إلّا النزر البسيط من الحقائق المتأصلة. هذا الكون أشبه بالبراز، كان جميلاً في لحظة، ثم استحال فيما بعد قذارة لها رائحة نتنة، دائماً نتبرّز لأننا نشعر بضيق هذا البراز في أجسادنا، فنلفظه لنرتاح، وسأترك قذارتي عاراً على جبين الحياة.

حين تكون الحياة قنينة معبأة نتناً، فإن الحشرات هم الروّاد الأولون للشرب...!

قدود

الصيف

عند انتصاف المأساة نلوك الضحك

عندما تكون حياتنا كأساً من العذاب، نتجرّعه بألم، مُعدِمين الأمل!

وعندما يحتضر الأمل... تتساوى المواقف، يصير البُعد أكثر عمقاً؛ نتذكّر ونقف على أطلال زمان رحل... كوقوفنا على أمشاط من السكاكين البالية!

عندما تعلّمت الكتابة لم يخطر ببالي يوماً بأن الكتابة هذيان، هذا الهذيان يصنع فوضى في الداخل، الهذيان: تفكير عملي في كتابة موقرة؛ الحزن، والفرح، والتذمّر، والتندّر، والانتقاد، كلها هذيان، لكن أجمل أنواع الهذيان ذلك الممزوج بكل ما ذكر سابقاً!

عندما يحاصرنا الوجع نستشعر، والشعور بؤرة انطلاق دائماً..

يااااااه لو أنني فكّرت في كل شيء يحصل لي. مشكلتنا أننا دائماً لا نفكّر إلّا حينما تموت الدوافع، مشكلتنا أننا نُحجّم التفكير على وقت محدّد.

مشكلة... عندما يموت الشعور في أوج ما نحن نحتاجه.

دائماً المآسي تندلع من نقطة صغيرة جداً، والحياة من الصغر بحيث تغدو مأساة برؤية أخرى. إن شعور الخيالي في نظرتنا للحياة يفرز بعداً مغايراً في نظرتنا هذه. فلو كانت الحياة تُقاس بالمناظير الحسابية والرياضية لوجدنا تلك الحلقة الضائعة منها، جميلة هي المسائل الحسابية، أتعلمون لماذا...؟! لأنها تعطينا تصوّراً جميلاً لأبعاد الحياة، فعندما يكون في حياتنا مجال واسع للتمدّد فثمة مشكلات، لأن المشكلات في كل أحوالها مشكلة واحدة، أم تلد المشكلات.

يقولون ـ ودائماً أشعر برعشة تجاه صدق المقولات، حياتنا بنيت على القول، وأتخمت قولاً، حتى لم يعد للفعل أي مكان يتنفس منه، المقولات كوسائل التنظيف تبعد المسؤولية لكنها لها رائحة تصكّ الرؤوس - إن ثمة أمراضاً في هذا العالم لا علاج لها، ومع هذا التطور العلمي الهائل، غدت أحجية عصية على الأذهان، والدافع هو السبب الرئيسي في تخاذل البشر، إذ أن الدافع هو بؤرة الاختراع دوماً، الكون بكليته سبب للدافع، وهو عبادة اللّه عزّ وجلّ، والعبادة هي طاعة اللّه عزّ وجلّ، لا كما يقول بعض الناس.

عندما تقتصر العبادة على أفراد فليست عبادة، وعندما تتمركز حول أشياء معينة فهذا ارتجاج في المبادىء الكونية.

منذ أن كنت صغيراً وأنا أحتاج إلى تصرفات أقوى من الكلمة. كنت أرى في الكلمة انعداماً واضحاً تجاه واقع

ضخم؛ أصبحتُ لفترة طويلة لا أستسيغ الوصاية كجرم كوني مرمي على كاهلي ليس لي الحرية في زحزحته!

ما أوقح الأشياء التي تفرض نفسها على الحياة ذاتها!

ومَن يحاول أن يفرض نفسه على الأشياء لا يستحق أن يكون شيئاً!

الإنسان في كل ما يفعله في حياته عبادة حتى المعصية، فلو فعلها الشخص عن إكراه أو نسيان فلن يعاقبه اللّٰه عزّ وجلّ عليها، وستكون سبباً في أجره إن تاب وندم وعاد إلى ربّه، وهذا ليس كما يقول سالم ـ المعروف بأبي طلحة ـ يوم كنا مجتمعين في إحدى الاستراحات وكان صديقاً لكنا معه الماضي بحرفنة، دخل علينا يومها. بدءاً كان مغتاظاً حين وجد «الأرجيلة» وعلب السجائر متناثرة في وسط المجلس. نظرتُ بازدراء أكسى وجهه كعادته!

أنا لا أدري لماذا بعض المتطرفين ينظرون إلى بني البشرية بازدراء. . .؟! ألأنهم يخالون بأنهم على صواب وكل العالم على خطأ. . .؟! من المستحيل أن يجتمع العالم على خطأ. . .!

حين تتطرّف الحقيقة على جزء معيَّن من البشر فهي تطرّف لا غير، وحين تتوغّل في عقولنا فكرة أننا نملك الحقيقة المطلقة فهذا مركز نواة الأصولية.

دائماً ندّعي أننا نمتلك الحقيقة. . .! ما أقبح الأصولية عندما تنفذ من شفتي إنسان، نحن فراغ نلد فراغاً! فالحياة

أعظم من أن ترتمي على ظهر أحد ما، الحياة كالكف، فيها من التفاصيل ما يحار فيها المرء حين يسمِّر نظره فيها.

فقال أبو طلحة ذلك اليوم كلاماً، لم أعد أقدر على التفكير فيه، لأن ثمة قضايا في الحياة نقف أمامها بغباء من فرط تداولها:

ـ أعوذ باللّه ما هذا...؟ أكلُّ هذا عصيان لربكم...؟

يومها لم يتمالك سعد نفسه فردَّ عليه:

ـ من الإنصاف لنا ولك أن تتكلّم بأسلوب أرقى من هذا، الدين المعاملة، وليس مثلما فعلت، هل ترى الآن بأنك لم تخطيء...؟! رَدُّ السلام أولى من هذ التهجم.

ثم ثار ثورته وقال:

ـ إذا لم يعجبك المكان، فلك كامل الحرية في العودة في نفس الاتجاه، كي نحسب مقاس كتفيك، لكن قبل الذهاب اعلم أن الدين المعاملة.

حياة مجتمعنا كالنفخ في إطارات الهواء، فكلما نفخنا أكثر ازداد حجم الإطارات وبان شسوعها.

نظر سالم إلى سعد بذات النظرة ممزوجة بالصدمة، لأن بعض الناس في حياتنا لم يعتد المواجهة، من واجههم في لحظة سيحال «زنديقاً»، «منحلاً»، وترتمي على عاتقه أطنان هائلة من نعوت العصيان، والفسوق، هذه النظرة ولدت بعض مخاض الإذعان والرهبة، لم نعتد منذ صغرنا أن نقف لنتأمل ونتناقش.

كم سنحتاج لإعادة ترميم الإنسانية في ذواتنا!

وكم كنا قساة في حق أنفسنا حين كنا أداة تتقبّل كل ما حولها دون أن تقدّم لذاتها شيئاً!

إن المرء عندما ينفرد بنفسه بعيداً عن الناس، يشعر بأنه وحدة مستقلة تحتاج إلى الاهتمام، لكن أن نحيا لمتعة غيرنا فإحساس بالظلم تجاه النفس والآخرين!

آه... إن البشرية عالم مُلِيء بالمتناقضات حتى غدت المُسلّمات فرضيات متلاشية حدّ العدم!

في البيت لا نبدع إلّا في عدة السياط التي تجعل من ظهورنا وجنوبنا مخططات قابلة للعمار، وفي المدرسة كنا نحسن تصعير خدودنا لمعلمينا حتى صار بإمكاننا أن نرسم أصابع معلمينا، ونحن مغمضو العينين.

حتى إنني أذكر ذلك المعلم الذي كسر أحد أسنان صديقنا «رامي»، ذلك الطالب الذي لم يحظَ بشرف مشاركتنا حق الجنسية... كان يعيش بيننا وسؤال ضخم أعياه، كان يردّده بين الفينة والأخرى، حتى غدت الإجابة عليه حلماً؛ أن تكون الإجابات في حياتك مجرد أحلام، فحتماً أنت تعيش في منعطف من التفكير اللامنقطع. كان يقول، هل الجنسية هي الانتماء...؟ أم أنها أوراق ثبوتية...؟! لم نكن نعرف بعد أن الانتماء هو حب البقعة أياً كانت، ولم نكن نعرف أن ثمة في الحياة أفكاراً لا بدّ من لوكها. كنا نقتات الغباء الفطري طفولة، وكنا نعرف بأننا لا نحسن حتى مداولة الأسئلة بوصفها كائناً خصيباً!

كان رامي ذكياً. ونظراً لذكائه لم يكن من أحد معلمينا إلّا

أن رسم أصابعه على أحد خديه ليكسر إحدى أسنانه، لأنه أراد مناقشته في مسألة ما!

شعور مؤلم وندبة سوداء تشوّه جبين حياتك حينما يكون الذكاء معولاً في حفر أخاديد المحاربة والتقزيم!

لم يستطع أبوه فعل شيء أبداً إلا أنه حزم حقائب حقده، ووضب أشلاء ابنه، وسحب أوراقه ليقدّمها لمدرسة أخرى كي يكمل الابن دراسته؛ وبعد مضي ما يقارب العشر سنوات، وجدتُ رامي في محل بيع أجهزة كهربائية. بدءاً لم أعرفه، نظراً لتعرية السنين محياه.

ما أضعف أن تكون أمام كرامتك في الحياة شاهراً ابتسامة ساخرة!

دلفنا - أبي وأنا - إلى هذا المحل، أردنا حينها شراء «مكنسة» كهربائية، لأن تلك التي عاشت معنا في ذات المنزل لم تعد تعطي ذات القيمة في كونها جهازاً يستحق منا استخدامه، فلم يكن من أمي إلا أن أودعتها مستودع القاذورات، إيذاناً بالتمرّد، لكن أبي لم يثر على هذا التصرف أبداً.

أشياؤنا هي نحن، ربما في مرحلة متقدمة من الملل، تنسحب من حياتنا بغضاً منها لنا؛ أودّ لو أتجرّأ على وسم ذلك السؤال الذي إذا تراءى لي انحدر حدّ الهلاك؛ لِمَ نحن في لحظات عدة نوغل في الطغيان تجاه الأشياء التي نستخدمها...؟!

إن الترف غول ضخم يهاجم إنسانيتنا بتؤدة، يحطّمها، لندلق دم حياتنا ترفاً وشبعاً!

حين يكون الترف حياة، فالحياة لا تستحقّ التركيز كونها حالة معاشة!

قطعاً، لا أفترض في حياتي أية ضغوط، لأن من يعيش في لحظة ترف جبارة، فإنه لا ينتظر أن يجرّب الحياة كونها تعاسة!

لم أستغرب عدم ثوران أبي في تلك الحالة المتناهية الجبن، لأن حياة الأزواج كلما أوغلت في الزمن تقارب الزوجان؛ علاقة طردية مذهلة، حينما ننظر إلى حياة زواجنا بمناظر المسائل الحسابية، فسنخرج كلنا بعقلية «فيثاغورس». دائماً ما أجد أبي وأمي مع بعضهما يتحدّثان بأسلوب أبوي، ليس كما نرى هذه الأيام من أقزام المتزوجين، المرأة في قاموسهم، كالملف في أرشيف دائرة ما، لا بدّ أن تمارس عملها دون أن تنبس ببنت شفة. هي آلة على أكثر تقدير، حينما تموت الإنسانية بفعل الجمادات، تنتحر التصرفات، ولن يبقى في مسودة العمر أي عبث تصرفي؛ الكون تبادل تجاري، ومصالح مشتركة، الذكر والأنثى شركتان رائدتان في سوق الإنسانية.

لكن ما يثير اشمئزازي، تلك العلاقات الناشئة في الظل، بين المتزوجين المحدثين، فالزواج رباط مقدس، هو من القدسية بحيث نقف أمامه بحنو، نركع خشية التفكك، وذلك ما حدث مع ابن عمي حامد عند أول يوم في زواجه، يوم

بدأ بتسليط الأوامر على زوجته، كالمسؤولين في دوائرنا الحكومية، فما كان منها إلّا أن اتصلت بأمها وقصّت عليها ما حدث، فأرسلت أمها أخوانها إلى بيتها، وأخذوا أختهم في ثاني أيام الزواج، فبدأ حامد بالدوران حول محوره.

هو الإنسان عندما يقف فيه عامل العقل قليلاً، يستحيل إلى خردة بالية، لا جدوى من ممارسة حق الإنسانية فيه.

فما كان من حامد إلا أن ذهب إلى أبيه وقصّ عليه ما حدث، وأخذ يلوك كرهه وحقده، وسخافته مشاعر مكبوتة.

إننا في أحيان كثيرة، نتربّع على المشكلة دون دراية، ونتجرّع المرارة علناً!

تعاملنا في الحياة ناتج عن طبقية حمقاء. عندما نتحدّث من نقطة التعددية، فلن نجد إلّا التعدد، وحينما يكون التعامل نشطاً في بؤرة الفوقية، فلن يكون للعقل متّسع يتسكّع فيه. حياتنا تجري وتعيد نفسها بنفسها، فكلما صُفِعْنا صَفَعْنا؛ الصفع في مجتمعنا في تناسب طردي عظيم، فكلما زاد مقدار الصفع في صغرنا، زاد صفعنا لغيرنا في كبرنا، هنا تنشط خلايا الغباء في رؤوسنا، ونمارس التقلبات الحامية على رمضاء الحماقة، هكذا نربّي غباءنا!

اتّجهنا أنا وأبي إلى مكان لبيع المكانس الكهربائية، وبينما نحن نتفحّص الأجهزة بأعيننا، بأسلوب سعودي فاخر، فوجئت بصوت خشن تغلب عليه تلك اللهجة التي لم أعتد سماعها في مجتمعي ينادي باسمي. ألتفت فإذا به شاب في

مثل سنّي، بانت على محياه آثار التعب، سلّم عليَّ وعلى أبي، وقال لي وهو مبتسم:

ـ أأنت فارس مرضي؟

ـ نعم أنا فارس وهذا أبي مرضي..

وأشار إلى أبي الذي يقف إلى جانبي... بادرني:

ـ ألم تعرفني؟

ـ للأسف لم أعرفك، ولم يحصل لي شرف معرفتك...

ـ أنا رامي محسن، كنت أدرس معك في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة...

قاطعته مشدوهاً:

ـ نعم عرفتك، أنت الذي نقلت من مدرستنا إلى المدرسة الأخرى بسبب ضرب أحد المعلمين لك، على أحد خدّيك وكُسرت إحدى أسنانك، وبدأت أكمل له القصة...

عندها ابتسم رامي ابتسامة عريضة وبانت سنه المكسورة... فلما رأيت سنّه المكسورة أشرت إليه قائلاً:

ـ هذه هي السنّ المكسورة التي فرّقتنا، وبدأت أضحك...

ـ أتدري يا فارس؟ إن تلك الحادثة كانت سبباً في هجري المدرسة فلم أستمر أكثر من شهرين في حياة الدراسة، فأعلنت رحيلي، عن الدراسة بصفة عامة، واتّجهت إلى العمل مع أبي هنا، كي أوفّر ما يلزمني وما يلزم أهلي من نقود، فلقد كانت تلك الصفعة بداية النهاية، في تاريخ

دراستي، لكن هل يعلم ذلك المعلم ما حصل...؟! ولو علم ماذا بوسعه عمله...؟! ولكن «ربك كريم»...

... نظر إليّ بعد أن ران صمت طفيف وقال:

ـ أحياناً نجد أن الهرب فضيلة نكتسبها بالرذيلة!

صدقاً... لا أفترض في إنسان تفتيت مبدئه من أجل قناعة... ولا أدري هل فعلاً هذا ما حلّ بصاحبي...؟ أم أنه في حالة فنتازيا مهولة تجعله على حدّ صنع الأحداث على ماهية تأمله...؟ إن الإنسان مهدّد بالتخلي عن أشيائه في درجة قصوى من التلاشي حين يكون بين حالتين أقربهما ضعف!

ما أحوجني لقدرة عظمى للتغلب على ضغط تفكيري في مسألة تخلي الإنسان عن مبدأ من أجل قناعة..؟ فكيف يمكن ترك التعليم كمبدأ من أجل سن مكسورة كقناعة...؟ وهل القناعات أرسخ من المبادىء...؟ وكيف يتمّ تأصيل المبادىء وصنع القناعات...؟!

حينما نكون أقرب للضعف نتخلّى لأننا على ضفاف المسكنة!!

حفر الاستغراب أخاديد على محيا أبي من جراء هذه القصة، لم يكن يعرفها قبلاً، ولم يخطر ببالي يوماً أن يقتات سمعها حكاية رديئة؛ وجدت أبي يتمتم يومها بكلمات غير مسموعة، وأخيراً سمعته يقول كلاماً مخاطباً صديقي:

ـ أعانك اللّه.

ابتعنا في ذلك اليوم مكنسة، وخرجنا من المحل، وقد

تغيّرت ملامح والدي، وتقرفص على نفسه، ولم ينطق بكلمة. أحياناً أتساءل، لماذا دائماً عندما نُصدم بشيء لا ننبس بأية كلمة، نفضّل الصمت...؟ هل هو هول الصدمة...؟ أم أنه محاولة ساخرة منا تجاه المواقف...؟ أم ماذا بالضبط؟ لكن حتماً ثمة لغز وراء توارد المعاملات بين البشر!

ونحن عائدان بدأت أفكّر في كيفية محادثته، فلا أنا أودّ إشعال نار الغضب المترمّدة في داخله، ولا أريد أن يبقى أسيراً لذهنه. فعند اقترابنا من البيت قلت له:

ـ أبي ما بالك...؟

نظر إليَّ بطرف من عينه وكأني غير موجود البتة وقال:

ـ عندما تستحيل المسؤولية في أيدي الصعاليك يموت الأشراف...!

أوقفت السيارة عند باب المنزل، ترجّل أبي ودخل، دون أن يزيد على تلك الكلمات شيئاً. أشعر بأن بعض الكلمات تفي بغرض الفكرة أكثر من قواميس ومجلدات، الاختزال مؤدب ومعلم، الاختزال رهان للعقل.

أنزلت أنا تلك المكنسة وأخذت أجرها إلى داخل المنزل، وأنا أردّد في داخلي: «عندما تستحيل المسؤولية في أيدي الصعاليك يموت الأشراف»!

صُفِعنا منذ الصغر فكبر معنا هذا الصفع، حتى غدا مخلوقاً مريباً بالنسبة لنا، لم نعد قادرين على مواجهته، عندما تفسد بذور البدايات، فسنكبر ونحن نطلب الأكل ممن جاورنا. في صغرنا كنا كالقطط نحاول الاستجداء والكل

ينهرنا، نحاول الاسترحام لكن تعوّدت مؤخراتنا على الركل، حتى أدمنته، وحينما ندمن فسنموت إذا ما تجرّعنا من أفيون الركل.

قال أبو طلحة:

ـ ألم تقرأ حديث النبي (صلّى اللّه عليه وسلم): «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ضحك سعد ضحكة مبالغاً فيها فردّ عليه:

ـ بلى قرأته، لكن ألا تدرك قيمة الخيارات في الحديث الشريف، الخيارات تعطي متسعاً من الحرية، تعطيك جرعات كي تستخدم عقلك، ليس كما فعلته الآن.

اعتدل سعد في جلسته واستطرد:

ـ الخيارات كالنظام في عرف مدير مرن، نمدّها ونضيقها كما نريد؛ الخيارات كالمطاط فكلما زادت الأوراق المالية زاد مطّه، افهم يا من أقصيت عقلك، الخيارات هي المساحة الصافية التي يعبث فيها العقل باستدامة... وانفجر ضاحكاً.

غضباً كان يغلي سالم، فما كان منه إلّا أن صرخ:

ـ أنت تذكّرني بالأطفال، لا يدركون القيمة الحقيقية للأشياء!

ـ التعامل في الحياة كألعاب السيرك هو يمثّل عملاً خارقاً، لكنه عند فئة معينة، هي تلك التي تجيد التعامل، والمرونة في التعامل كالسير على الحبل في الهواء، قليل جداً من يتقن السير عليه لكنهم جديرون بالاحترام.

ـ سأذهب قبل أن يخسف اللّٰه بنا!

ـ اتّقِ اللّٰه... وهل نحن كفّاراً حين تقول لنا هذا الكلام. إن المرء عندما يتكلّم فلا بدّ أن يتكلّم من خلال عقله وليس لسانه، العقل بؤرة الصواب، فقط تذكّر كلامي...

حسناً... حسناً...

ذهب سالم وتركنا خلفه أجساداً ملقاة. نظر عدنان إلى سعد نظرة المنتصر فقال له:

ـ جميل ما فعلته.

ـ الأجمل أن تتدبّر في كل كلمة قيلت...!

كانت السيجارة التي في يدي هي السيجارة الثامنة في غضون ساعة، كان الشاي دوماً يغري التدخين في السدور. كان تعاملي مع سجائري سادي الطابع؛ أرفض دائماً أن تكون أشيائي في درجة عالية من الدلال. إن جفافنا مع أشيائنا محاولة منا في خلق ذلك الصراع الكامن بين الإنسان والجماد، ذلك الصراع الأزلي الذي يجعل من الناس قطعة أعلى مرتبة من كل شيء. إن الأشياء اللاإنسانية هي من اللافائدة بحيث يمكن وأدها في أي وقت، وفي كل مكان. حين ننتظر إنصاف الأشياء لنا، فإننا ننتظر الموت القادم من العتمة.

رآني عدنان على هذه الحال فنظر إليَّ نظرة امتزج فيها الخبث مع الرأفة وقال:

ـ فارس.. لماذا الرجال كائنات تهوى شرب الدخان

وشرب الشاي في آن واحد...؟! عظماء أولئك الذين يمارسون فعلاً واحداً في آن مرتين، لأنهم وبكل بساطة أناس غير عاديين.

ـ دع عنك الاستهزاء فلست مستعداً على مجاراتك...

كان عدنان فيلسوفاً غامض الرؤية، وكان يفلسف رؤاه من مبدأ حقدي؛ إن الفلسفة عبارة عن رؤية خاصة يصوغها الإنسان من مبدأ تجاه قناعة، فالفلسفة قناعة الفرد بالأشياء. كان دائماً ما ينظر إلينا بعين التحقير في أمور كثيرة؛ كثيراً ما كان يسأل أسئلة ويقول: «الجمال في اللاإجابات» ويوقفنا أمام الأسئلة ويتركنا، كان يربي فينا التذبذب بقوله: «السؤال خصوبة، والإجابة عقم».

أذكر مرة عندما رأى تركي محتاراً في أمر التزامه مع بقائه على بلاط الدشرة وكان ثملاً حدَّ استحالته إلى آلة، فقال له:

ـ هل أنت محتار يا تركي ها ها ها؟

وبدأ يتكلّم:

ـ عندما يحتضر الأمل... تتقاذفنا التيارات! وعندما تتقاذفنا التيارات فمن الصعب أن نعوم، سنغرق لا محالة، وحينما لا نضع لأنفسنا كرسياً في صف الحياة سيحضر الأستاذ وسيطردنا خارج الحصة؛ إن خرجنا من الحصة فنحن خاسرون في النهاية، الإنسان في مجمله مشاعر وعواطف وتفكير، تتصادم تلك النيازك الثلاثة لتخلق لنا تصرفاً، تصرفاتنا هي النقطة التي تبدأ من عندها الأحكام، والحكم هو أسهل قرار يتّخذه الشخص. نمتزج نحن بين المصطلحات

الثلاثة تلك، ونعود إلى شبك الإدعاء؛ نحن المدَّعَى عليه في قضية الحياة، من المفرح أن يكون المدَّعِي والقاضي من أبناء ظهورنا. المصيبة في هذه المحكمة أن تسيطر علينا المشاعر، والعواطف، وتُقصي التفكير، هذا ما يولّد الشرخ الكبير في حياتنا، عندما تُشرخ حياتنا شرخاً عظيماً فمن الصعب ترميمه، والأصعب أن تتراكم الشروخ في حياتنا حتى لم نعد نجد مكاناً للمكوث، دائماً المكوث هو استراحة الفكر. عندما يحتضر الأمل تصبح حياتنا في مجملها عقدة، عفواً عفواً ليست عقدة، عدة عقد، فمن يستطيع حلّها...؟! عندما تكون حياتنا زنزانة فمن الصعب الخروج من العتمة، العتمة أسهل طريق إلى الموت... يا تركي في وهم الحياة تستحيل البديهيات في حياتنا أموراً قابلة للمساومة. العواطف كالكتب تحوّر التفكير في بعض الأحيان، والعادات السقيمة هي الضرورة الشعرية في سياق بيت حياتي شاذ. الواقع مؤلم، الإنسان كالعائلة، في داخلها أنواع مختلفة من البشر لكنها تمثّل كياناً، والكيان: هو المحيط الذي يدافع عنه الكثير والكثير والكثير من البشر، أشعر بأنني أغرق!

وارتشف رشفة طويلة من كأس «البلاك ليبل» الذي كان في يده.. واستطرد:

ـ بكاء... حينما تعالج مرضك في جسد شخص آخر، بكاء... حينما تطبّب جراح الآخرين وتموت عناء، بكاء... حينما تصير حياتنا ضوضاء، وهوّة سحيقة، عندما نعامل بعضنا بعضاً من بؤرة المشاعر، ونحاول التمرّد على حياتنا،

ونظهَر على حساب ذواتنا، ونثبت الذات على حساب الذات، عندما يخالجنا الموت... تتبدّى الأشياء يقينية مطلقة، لنضع الموت في كأس ماء ونشربه، عندها ستتبدّى الحقيقة، أو لنستشعر العتمة، أنظر يميناً ويساراً هذه هي الحياة، وأخذ يضحك بهستيرية...

حياة الأشخاص مزيج... من التصورات والصراعات، وأقبح ما في هذه التصورات والصراعات أننا لا نستطيع تحديد الموقف. تحديد المواقف في الحياة أمر في غاية النبل، حتى لو أنك شطحت، لأن نبل الإنسان مهما بلغ هو في أن يعطي الحياة في ذاته رؤية حتى وإن غدت الرؤية بوجه آخر مسخاً!

إن المسوخ في الحياة هم القادرون على فرض هيمنة الرؤية، لأن الدمامة هي التي تحكم قبضتها على الناس، فالإنسان يقف أمام الدمامة دوماً بشفقة!

بعد أن سمع ردّي، وقد كان مغلّفاً بالجفاء، ومربوطاً بالاستياء، ردّ عليّ قائلاً:

ـ أعرف بأنك تفكّر الآن بالذهاب إلى سوريا، هكذا أنت، عندما تستاء فسوريا هي الطقس السائد على عقلك في تلك اللحظات...

كان يعرف عدنان جيداً ما كنت أريده، وكان يملك تلك القدرة على فهم الأشياء كما هي من غير تورية، لم أتأكّد يومها هل فعلاً كانت تصرفاتي تنبىء بأن الموت قادم...؟ أم أنه ثمة بعض الناس على درجة من الوعي بحيث يتنبأون

بالحوادث المسبقة...؟ هنالك مشاعر في حياة كلّ منا، مهما حاول الشخص إخفاءها فإنه يبقى في حالة من التأرجح بين واقعين، رؤية حقة، وتصنيف رديء.

فعلاً كنت ذلك اليوم أفكّر في الذهاب إلى سوريا، فقد وصل سعاري حدّ الدهشة، أن تستغرب تصرفاتك، إحساس آخر لا يمكن تصنيفه البتة!

في بعض الأحيان لا نستسيغ أفكارنا، لأننا لا نملك الحق في التفكير فيها والإيغار في بحث سبل حلها!

إن الإنسان في لحظة ضيق يجد الانحلال جواباً مسكتاً لرغباته!

أخذ ينظر إليّ ويقول:

ـ فارس... مشكلتنا دوماً ترتكز فيما بين أفخاذنا، حين يحضر الجنس، يتوارى العقل والتفكير، وحينما نلبّي رغبتنا الجنسية نبدع، ألا ترى المتزوجين لا يفكّرون أبداً في الانحراف..؟! أو الميل عن طريق الصواب، يقولون لأنهم يملكون بيوتاً وإناثاً، لذا تراهم لا يريدون هدم هذه البيوت ولا خسارة تلكم الإناث حين يفكّرون في الانحراف، هذا كلام كله هراء، دجل، كذب مركّب، السبب الرئيسي في تلبيتهم لرغباتهم الجنسية. الجنس كالبنزين يحرق ويشعل لكنه يساعد في سير الأجساد، عندما يغيب الجنس تتلاطم القيم والمبادىء؛ إن حياة الشعوب متمركزة حول الجنس، والجنس واحة في صحراء الحياة. جميل أن نقف عندها، ونشرب

منها، إسأل نفسك لماذا الرجال والنساء يفرحون بالجنس؟! لأنهم سيتشاركون في لحوم بعضهم البعض!!

ابتسم ابتسامة رضا واستطرد:

ـ فأنا معك إن أردت أن تذهب إلى سوريا، إنها ملهمتي الفلسفية، فلا أجيد الفلسفة إلّا عندما أرى القوارير الضخمة المتخمة بشراب الروح وأرتشف منها رشفة كبيرة ها ها ها..

أن يتعلق تفكيرك بجرعة سائل، فأنت سائل! كان عدنان يحب الشراب كثيراً، دوماً كان يقول إن الشرب هو ملهمته الفلسفية، حتى أذكر أنه قال يوماً:

ـ هل قرأت لفلاسفة روسيا، فلسفتهم كلها مقترنة بكأس «فودكا» فأنا مثلهم فلسفتي مقترنة بكأس «بلاك ليبل».

دوماً كنت أقف في منتصف الطريق بين التصديق والشك، لأنني أعرف إلى أي مدى يحب عدنان فيه أن يشرب، دائماً ما كان يشرب كي يخرج عن نطاق السيطرة ويسلى عن حليمة تلك الفتاة التي أصبحت تتلاعب به كدمية، صنماً كانت في نظره، وعبادة علاقته معها حتى أتى ذلك اليوم الذي نسي فيه الرب عبده، وتركه في عراء الحياة وحيداً عارياً جائعاً، بلا مأوى؛ موقفه الآني تجاه الأنثى موقف الملاحدة بؤس وألم وتمرّد وعويل يخلطها كلها في حديثه معها، ساخط تجاه الحب، لا يعطي الإناث متسعاً من حياته، كم هو غبي!

فهل في الحياة شيء أجمل من النساء...؟!

عري المشاعر أضحوكة الإنسانية

في بقعة جغرافية معينة جميل أن تترك الحبل على الغارب... سيما أننا شعوب تخطّط للنجاح المغلّف؛ تقاربنا يصل حدّ الامتزاج لأننا مخلوقات ترابية، الحياة يباب بوجه آخر!

فعندما يستحيل الفردوس يباباً... فثمة نظرة ثاقبة نحو تفكر عميق، يبدو أنني شبعت ضرب ذلك الميت!

ثمة كلمات من الغرابة بأن تفقد قيمتها ككلمة، أو بالأحرى تفقد قيمة الأحرف في إيصال الكلمة، لتشعل فتائل التفكير حمماً غرائبية، والـ (يبدو) هي الكلمة الوحيدة التي لم تعطِ حقها من بين هذه الأطنان الهائلة من الكلمات، نبرّر لواقعنا في أكثر اللحظات، نحنو عليه دائماً، وهو المتهم الحقيقي في بؤسنا. الحياة أشبه بماء النار، هي ماء في البداية لكنها ماء نار اختلطت ماهية الحياة بين الماء والنار، فيها سنؤول إلى رفات محترقة وقتَ لا هرب!

قمة الخيبة عندما نفرز قناعة بأن الحقيقة ألم!

نحن سعداء في زمن البؤس، بين المتناقضات تلد

المآسي، لا توفيق، بين كل كتلة وأخرى؛ الإنسان كائن قاصر، كم أكره الذين يحاولون تقديس الإنسان؛ هو أرعن في بعض التصرفات، لأنه قدسه وهو في الحقيقة كائن قاصر وجاهل. تشظي التصرفات، استنساخ فقط لا غير، فعندما يستشري داء معين، فليس لنا إلّا الإذعان. كم أبغض ثقافة الإذعان، لكن من الصعب أن تنشز في مجتمع كله مذعنون؛ البقاء في بوتقة الروتين كالتقوقع في محارة صماء لا خروج ولا فوات!

كالحناء حياتنا يكون لها بريق في يوم ما، لكنها تستحيل إلى بؤرتها في آخر المطاف.

في زمن باتت فيه الثورة أوجها، لم يكن للتفكير أي مجال في معمعة الحدث.. وبين ركام الأبنية، وخارج غبار تلك المعارك، وفي جريان بحار التمرد، انحسرت رائحة المنطق، وغرقت سفن العقل.

أشعر برغبة عارمة تجاه التنظير، فأنا الذي ينزوي بعيداً عن الناس ليكتب، فقط ليكتب لأنه لن يحتاج إلّا للكتابة، أن تشعر بأن الكتابة هي الحل الأول في نظرك فضعف لا يطاق!

ذات ملل، وقفت أمام الماضي بتأفف، وسرحت بعيداً عن الناس وتذكّرت مقولة لأحد المسنين يقول فيها: «من لم يخطىء، لا يجدر به أن يعيش حياته على جانب الصحة مطلقاً»، لكن ما أحوجني للتصديق! فكيف يمكن أن ألتمس

لحياتي العذر ـ أي عذر ـ وأنا من عاش كل حياته في درجة أعمق من درجة التلاشي؛ كنت أتصبّر بالسلوان، لكن الحياة في منظورها السرمدي، دار خذلان، ولن يتجرّأ أحد على فرز رؤيته إلّا ذاك الذي يتطرّف في حياته على تجربة عاشها، وبقي ملازماً لها حتى نفاد الرؤية. . . فإصدار الأحكام من واقع كينونة الشخص عقل، ولكن حين تُصدر الأحكام من قبل البعض من واقع الكينونة تجاه شخص آخر فهذا غباء؛ تناقض العبارتين السابقتين يدلّ على شرخ كبير في نظام التعامل في أوساطنا. المرء حين يصدر على نفسه حكماً فهو المسؤول الأول عنه وعن تبعاته، لكن عندما يصدر على غيره حكماً فمن الأولى أن يُنصِف نفسه قبل إنصاف الآخرين، وهذا أيضاً يرمز على مدى التباعد الكبير في نفسياتنا تجاه أمور حياتنا المسلمة، فقد نجد شخصاً لا يفرّق بين ما يمكن أن نسمِّيه صدقاً وما يمكن أن نسمِّيه رؤية شخصية، هنا لا بدّ لنا أن ننظر في التكوين الداخلي للمجتمع نفسه الذي ولدت فيه هذه المشكلات، ومن هذا المنطلق نجد أن الخلل الرئيسي في مجتمعاتنا، وطريقة تفكيرها، وطريقة التعامل فيها، وهذا يعود للترسبات التي تراكمت منذ الأزل في عقلية هذا الابن البار لهذا المجتمع. إذن إن طريقتنا ترسبات موروثة، هذه الترسبات ناتجة عن قيم روحية في داخل الكينونة الحقيقية للمجتمع بصرف النظر عن الكينونة الداخلية

في ذات الشخص، وبالتالي بدأت الأحكام في الذوبان في هذه الترسبات، وضاعت الحقيقة.

وإن الشعور بالقهر، والإحساس بالاضطهاد، نابع من تفكير الشخص ذاته، بعيداً عن الجوانب الدميمة من معيشتنا في الحياة، ثمة أمور نتوقّف عندها توقف الحصيف، هي الكتاب الذي نقرأ منه كل تفاصيل الجانب المظلم من حياة الأشخاص بصفة عامة، ولكن لو استطاع الشخص منا أن يقف أمام حياته موقف المحايد أكثر منه ثورة لوجد أن ثمة متّسعاً يسع لهذا الشعور أكثر من الثورة اللاعقلانية من قبلنا، وعندما نقيس كل أمور حياتنا على مواقف سلبية نراها واقعاً، فهذه بؤرة الخطأ الذي لا بدّ أن نثور عليه أكثر من ثورتنا على قيمنا التي لا بديل عنها؛ فلا التفكير في كل الأحيان ينبيء بأن ثمة معضلة، وأن ثمة خطأ كامناً في كيان الشخص ذاته، وهذا هو المربط الذي لا بدّ أن نتمسّك به أكثر من أي شعور آخر تجاه الحياة، في ثورتها على المجتمع.

لم أحسّ بمقدار الضعف فيّ إلا حين باغتني بسرد حكاية أبيه. بقي معه مرافقاً، وفي وقت لا يدخل فيه أي دكتور أو ممرض قال لي حكايته، لم أستوعب معنى أن يكون الإنسان حالة حقدية مركبة، فالمرء حين يعيش حياته في قوالب كثيرة لا يتقبّلها مطلقاً، يحال إلى قنبلة موقوتة تنتظر إصبع أحدهم فقط، قال لي: «فارس لم أكن متأكداً بدءاً بأنها هي، كانت تقف أمام البقالة وحدها، حائرة النظرات مترقّبة من

المجهول، عند الساعة التاسعة صباحاً. في بادىء الأمر شككت بأنها هي، لكنني تتبعتها إلى أن دخلت المنزل، لم أرتبْ يوماً من تصرفاتها، فقد كانت منطوية على نفسها وأخواتها في غرفتهن؛ قليلاً ما كنت أحادثهن، لأنني كنت على مقت شديد للمكوث في المنزل، أمي أصبحت قيصر البيت، فليس لأبي أية جهود تذكر، إلا أنه كان مبدعاً في المضاجعة. . .

حين وصل إلى هذه العبارة أرخى رأسه وكأنه مدان، لم أستغرب أبداً. . . لأن الحياة ولدت في داخلي قناعة، بأن الإنسان عند الأشياء التي يظهر فيها خجلاً، فإنه لا يقتات الخجل مطلقاً، إنه حين يمارس الخجل، يلوك الضعف، ويحاول أن يقذف الخجل على محياه رغماً عنه، لأن الإنسان كائن متكبِّر، والكبر لا يأتي مع الضعف في سياق، لذا تحوّر التصرفات إلى خجل رديء!

أكمل يقول: «. . . آمنت بذلك بعد تلك الليلة، عندما تسلّقت حبل السادسة عشرة من عمري، استيقظت في منتصف الليل، أريد شرب كوب من الماء، فسمعت أنّات وتأوّهات تنطلق من غرفة أبي، مشيت على أطراف أصابعي إلى أن قاربت باب الحجرة، لم يكن الباب موصداً بكامله، فدسست رأسي في رحم الباب فوجدت أبي وقد رفع رجليّ أمي إلى الأعلى، وبدأ بالاهتزاز بطريقة فيزيائية عجيبة، وكأنه قطعة قماش مسمّرة على أحد المباني الشاهقة، كانت أمي تتأوّه

بطريقة مغرية للغاية، أثار هذا المشهد دهشتي، لم أكن أعلم بأن الإنسان في لحظة الشهوة يكون أقرب للغباء، ولم أدرك معنى أن الإنسان مخلوق غريزي المبدأ، لكني لم أستمر في المشاهدة طويلاً، انسللت سريعاً، لكن أمراً بدا لي مضحكاً حدّ الدهشة، فأبي وأمي لم يخلعا ملابسهما بالكامل، فقد اكتفى كل واحد منهما بإبراز الشق السفلي منه!

ما أبسط التصرفات التي تأتي بعد أن ننظر إليها!

عندما قال لي هذه الحكاية تذكّرت مقولة عدنان عندما قال:

ـ الرعيل الأول في ممارستهم للجنس يكتفون بالغرق!!

ما كان يلقي فضولي أرضاً رؤية الرعيل الأول دائماً للجيل المحدث، تلك النظرة التقزيمية الطابع، وإلصاق التهم بهم، بأنهم فئة تهوى الفشل، وتصنع من عجين النجاح خبزاً للفشل، لكنهم لا يدركون قيمة الوقت الآني، يجُرون المقارنات بين زمن البيباس، وزمن العولمة، بالمناسبة هم يهذون بكلمة (عولمة) ولا يدركون ماهيتها، ويبدأون باستخدام المصطلحات، لكن بطريقة مشوّهة ومضحكة، كثيراً ما كنا نسمع أبا خلف وهو يقول: «خلوا عنكم الفلسفة»!! كنا نمارس الضحك في الخفاء، كي لا نكون وجبة دسمة لمجلس ما، حتى أن تركي ـ الذي لا ناقة له ولا جمل في كل ما يحدث ـ عندما سمع هذه الجملة من أبي خلف قال:

ـ الدينمو المحرك لعقول القدامى عطب منذ الأزل،

وأصبحوا يعيشون على عقول مهشّمة؛ تهشّم عقولهم أفقدهم الرؤية الواضحة للحياة!

فكثيراً ما كان يتوشّح بعض المسنّين عباءة الثقافة، فهم متناسخون حتى في استخدام الألفاظ، دائماً ما يقولون «يا وليدي» ويقصدون بها في المجمل التصغير والتحقير، لا كما يعتقد الكثير بأنهم يتكلّمون من جانب أبوي.

في حضور الفوقية تتسرّب المنطقية، وتسربُ المنطقية تقليص العقلانية. الشباب محاصر من جميع الجوانب، تأبى الظروف إلّا أن تحشره في عناق الزاوية. عندما ترهن حياتك في أيدي الآخرين فستموت وأنت تنتظر الانعتاق. فك الأسر معضلة في قاموس علية القوم، هؤلاء الذين امتهنوا الارتزاق، وارتشفوا من فيفا دول النفاق، حتى أنني أتذكّر سليمان بعدما تخرّج من الكلية ولم يجد مكاناً يمارس فيه مهنته، صوّر وثيقة تخرجه يوماً وكتب عليها:

«يجني المرء ثمار ما قد زرعه، ربما العائد أقل من الذاهب. تذهب السنون لتعود محمّلة بثقوب كثيرة، ينساب منها العائد انسياب القطرات المتدلية من قنينة ماء؛ يبدو أننا شعوب تهوى الفشل، تُخمِّر عقولنا ذكرى مآسينا، فنحن اللاشيء في مذكرة الشيء، ونحن البقعة السوداء في «كنزة» الحياة، تحيط بنا إطارات البؤس، وتغشانا رياح سوداء مكفهرة، تسود تاريخنا المآسي، لا أدري هل نحن سبب البؤس...؟! أم أن هذا الأخير عقيدتنا...؟! أكتب هذه

العبارات لطمس الماضي، لإحالته إلى هوَّة مردومة، ألم يخلق الماضي إلا لوأد المستقبل...؟! لم أشأ إلّا تشويه تلك اللحظات التي يعيشها المرء في حياته ثم يقلب عليها صفحات الحياة، لتبقى مغطاة بعيداً عن الأعين. إن المرء حينما يقف على أطلال الماضي بشفقة فحتماً هو رهن لذاكرة بغية، تتركه في مقامرة عظمى تجاه حياته الآنية. كلنا حين نخلو بأنفسنا نخاف المجهول، ثقافتنا عقيمة، فرحنا أخرس، بقايا من نزوات، وخطايانا بكبر الجبال الراسيات، مَن منا لم يخطىء...؟! مَن منا لم يُقبّل الخطيئة...؟! أو حتى يصافحها، في ذاك المكان المشوب بالتقنية، نكأت جرح السنين، ذكريات قابعة في قعر ذاكرتي، مُثلٌ لها قيمة الفراغ في مبادئي، تذكّرت جور العبث المستديم، أربع سنوات كانت حبلى بالانكسار، ماتت الكبرياء، وبقيت الحسرة جرثومة شرهة، نخرت عظم الذاكرة، وتآكلت فيها المبادىء، ولم يبقَ إلّا فتات الفراغ.

قمة الحسرة أن يكون ثمة حيز للفراغ!

دنيا جلّها فجوة، تلد ثقباً ثم تستحيل. هكذا نربّي بؤسنا؛ أفضل الأشياء هي تلك التي تلد إناث المسرّات، انطبعت على قفا حياتنا هيئة، اصطنعنا قياس البؤس، وحلمنا في مواصفات المأساة، ماضٍ متدثّر بلحاف المواقف وحاضر يجلده الصقيع المُرّ وذكريات بلهاء تمتزج بين الماضي والحاضر. مصير الإنسان العائد بقعة زيت في أرض جدباء،

حلمنا طاغ كصدّام العراق، وبقايا من حجّابها وثيقة حزن خُطّت بالخط الفارسي، (بسم الله الرحمن الرحيم) تنتحب من اللاإدراك.

تمام الانحلال الاستهتار بالقيم الدينية!

تخصُّص عائم بين القبول والرفض، أنثى تنتظر بعلها في نهاية الشارع عند أول منعطف في الحياة، بين البؤس والحظ مقدار شعرة فإما أن تبتئس، وإما أن تتقمّص الحظ، وليس في جسد الحياة طعنة إبداع، الجسد قطعة اجتماعية بالية، والفراغ مسيطر على ركام التصرفات.

في جسد الحياة ثمة أعضاء تبكي المرض، جدير بنا أن نتأملها دون علاجها، لا أدري لماذا ثمة فراغ مسيطر على تلك الوثيقة...؟! ثمة مساحات حمقاء بين الكلمات.

عندما يسيطر الفراغ على شيء ما فهو مسودة لا غير!

الفراغ هو الكائن الوحيد الذي يأكل بنهم دون توقف. المصيبة عندما تكون أجسادنا هي الأكلة المفضّلة، أنا ما زلت مصرّاً على ارتكاب الخطايا؛ قمة الغباء أن تكون كلمات مستهلكة في فم كتاب ما!».

تأمّلني ممدوح كثيراً، بغية رؤية ردة فعلي لما سرده عليَّ من حكاية أخته، فلم يكن يعلم شيئاً، كان يمقت حياته لأنه ولد في هذا البيت المتهالك أخلاقياً، لم أكن لأتجرّأ بطرح وجهة نظري، لأن المرء في أشيائه لا ينتظر إلّا التأييد،

اكتفيت بالصمت، وبالغت فيه حدّ البكم، ففي أحيان كثيرة نقف ببلاهة أمام القضايا، لأنها أعظم من أن نخيط رؤية أو نفصّل رأياً، قال لي بعد أن رأى صمتي... «وعندما كنت في السادسة عشرة من عمري داهمني هوس الأسئلة، جرّاء ما رأيته ليلة مضاجعة أبي لأمي... لماذا يكون رجلاً في المساء وقطاً في الصباح...؟! هل لأن الجنس دائماً ما يجعل الرجل وحشاً كاسراً، أم لأن المرأة ترتخي عندما يُوسّع بين فخديها...؟! إن الرجل الذي تحكمه أنثاه، عار على جبين الزوجية!

غادرني يومها، وأنا غارق في نفسي، لكني مؤمن بأن الحياة هي الكائن المتقلب، هي من الهلامية بأن نتقاعس دوماً في رصد حركاتها!

يوم كنا جلوساً في شقة «عارف» هذا القادم من شرق البلاد للدراسة، رأى عدنان ممدوحاً يتخبّط في وحل همومه فبادره:

ـ هل تعاني من العقدة القيصرية...؟!

كان يعلم عدنان بما يحصل في بيت ممدوح من نكسة في الموازين.

ـ ربما...!

نفض عدنان سيجارته، وتكلّم دون أن يلتفت إلى ممدوح:

ـ حينما يحكم الدجاج حظيرة الديكة، فبئس الديكة هم!

لم يكن من عارف إلّا أن أدار التلفاز إلى برنامج «ستار

أكاديمي»، كي يخفّف من حدّة الانتقاد اللاذع من عدنان، فهو يعلم ما يسكن عدنان من هالة نقدية طاغية، فعندما رأى عدنان مجموعة «ستار أكاديمي» مجتمعين ازدادت لديه رغبة الانتقاد فقال:

ـ الابتزاز أسخف لعبة، لكن لا يجيدها إلّا الأذكياء؛ هي سخافة لكنها وقعت على الوتر الحسّاس من عقولنا، نهوى السخف من صميم العقل، ونمارسه من بؤرة التعقل، هنا نحن سالب في عملية الحياة الرياضية. حينما يموت العقل تتضخّم لعبة الابتزاز. لا أدري لماذا أرى التهافت الكبير على هذه اللعبة حتى من المتعقلين...؟!، تصويت، وتصويت، إن التصويت في كل مكان من هذا العالم سخف، لأن البشر يدلون بأصواتهم لأناس ليسوا هم، فهل من العقل أن أصوّت لشخص ليس أنا...؟! أو حتى من أشخاص دمي...؟!

بادره عارف بأسلوب مستفز:

ـ هذا يعني بأنك لن تصوّت...؟!

ـ ألم أقل لك بأن التصويت سخافة...؟! أنظر إلى كلمة سخافة ستجد أنها (سخا)... (فة) فعلاً (فه) على هذا السخاء، السخافة، شقها الأخير (آفة) واستطرد ضاحكاً: «أوفّر فلوسي؛ كي أشتري بها قارورة «بلاك ليبل» عندما نذهب إلى عشق فارس!».

يومها كنتُ في الركن القصي، أفكّر بجدية عظمى في الذهاب، لكن ليس ثمة ما يُيسِّر!

بصيص من أمل يراود شخصي. الفكرة بدأت تتمحّض في خلدي. سوريا على بعد ثوان من الولادة، لكن هذا الأمل بدأ بالاضمحلال، لأنني أفكّر في صرف المكافأة، إن تأخرت سيزداد حنقي، أنا شقي، لأنني رهنت سعادتي بحياة غيري...! الشقاء، ليس بؤساً في كل الأحوال، الشقاء هو عندما تجد الشخص/الموقف يسخر منك! ها ها ها لنتخيّل المواقف تسخر، يا لسخريتها السوداء اللاذعة! أمل مسكين يا لحظّه العاثر أتعلمون لو أن الأمل ينطق لتمنطق. حياتنا شطحات مع سبق الإصرار والترصّد.

مذ مارست هذه العادة بدأ رفاقي يهيبون فيَّ هذه التصرفات، وكانوا يحثّوني على المواصلة في إسعاد نفسي، لأنني أدركت كيف أتراقص بين الخطوط الحمراء. جميل أن تتميّز بين أقرانك، واللاجميل أن تكون موضع تندّر!

كانت مادة (فقه اللغة معنى) هي المادة التي وقفت في نحري كشوكة متآكلة، ليس لأنني لم أجتز الاختبار، بل لأن دكتور هذه المادة الدراسية المقرفة سوري الجنسية، كان يعلم بأنني أذهب إلى سوريا، وأمارس كل هواياتي في تلك البقعة الجغرافية، فحمل الدكتور في داخله كثباناً كثيرة من الحقد الأصم، ولم يكن باستطاعته إلّا أن يجعل من وجهي لوحة إعلانية لمنتج (فقه اللغة معنى)، الحقد الغبي، هو ذلك الحقد الذي يعتريك من لاشيء، وبدون أي مبرر. عشوائية التصرفات تنجب مثل هذا الغباء، وسطحية التفكير تعمل على

التلقيح المستمر؛ وفي النهاية يتبدّى لها غباء مركّب، مثل هذا الغباء.

في ثورة الحقد، تقف الجيوش الواعية موقفاً قصياً جداً!

لم يكن مني إلّا أن حاولت التودّد إلى هذا الدكتور كي أجتاز هذه المادة. استلطفته كثيراً، حتى أتى ذلك اليوم الذي أخذت الدكتور وزوجته. وبنته البالغة من العمر ثماني عشرة سنة، فكانوا رفقاء دربي إلى سوريا، كي أوصلهم، انقلبت الموازين، هكذا هم الأغبياء، تنحرف قيمهم، في لمح البصر!

كنت لا أزال في الركن القصي متقرفصاً على نفسي، أعاني ألم الطلق في ولادة هذه الرحلة، ألوك البهجة عمداً، تنهّدت بعنف وقلت:

ـ الذاهبون، هم الأشخاص الجديرون بالاحترام، فلا بدّ أن أذهب...!

إن الإنسان الذي يحمّلك وزر أن تقف أمام غبائك عظيم...

الشعور بالغرق عمق المأساة!

تأمّلوا في الشعور بالغرق، عندما نُغيّب عمق المأساة بالسطحية فلن نصل إلى حل؛ الألم كالملح ربما يطبّب في بعض الأحيان، والحياة فعل لازم، لن تتجاوز هذه المرحلة الإعرابية مطلقاً لتصبح فعلاً متعدياً، بين اللازم والمتعدي فروق كثيرة، ليست لزاماً في كل الأحوال. الأمل موجود فطرة، ولكنه قد يُعدم في طلائع ولادته، والمواقف هي التي تجعلنا نسخر من أنثى التيارات!

هنالك في مجمل حياتنا أشياء نقف أمامها مشدوهين، لا لأنها مخلوقات مدهشة إنما لأنها أكبر من نظر إنسان بسيط. البساطة في كل أحوالها جميلة إلا حينما يموت فيها العقل.

النفس كالحاوية تحوي كل الأشياء الكريهة لكنها مهملة في زاوية قصية من دنيا الإنسان.

كانت المسافة هي الشغل الشاغل الذي أخذ حيّزاً من تفكيري. أودّ إنجاب الثواني لأسرع في الذهاب. بدت

عقارب الساعة حينها تلوح في مخيلتي كأفاع ضخمة؛ ها آنذا أجد التفسير العقلاني لما كان يتلاطم في رأسي من هوس سؤال ضخم تجاه ذلك السؤال الذي ألجم عدنان وجعله كنطفة لا قيمة لها حينما سألته عنه، بدأت أحاور أناي بسكينة من وجد كنزاً «لماذا أُطلق على عمود الثواني والدقائق والساعات لفظ «عقارب. . . ؟!» ألهذه الدرجة كانت العقرب دقيقة في تصرفاتها. . . ؟! تسارعها مع الزمن محدّد إلى درجة أعمدة الساعة. . . ؟! ترادفها منسق في تكوينها الداخلي. . . ؟! عندما نجد الأسئلة مبتورة القدمين نكون نحن المعاقين، إعاقة الأسئلة جمال روحي يلاصق الفكر، في كل أحوال الإعاقة ثمة مآسي، إلّا أن تكون الإعاقة في سؤال؛ الأسئلة هي التي تدوزن حياتنا كي لا تهيم، هيامنا في الحياة بشبق، كل شيء يدل على الاستهلاك، حتى في هذيان الشخص مع أناه، الأسئلة حلقة مفقودة من عقد الكون؛ نظرتنا تتبدّى في شكل حياتنا الظاهري، حطام هي حياتنا، تقديس هي ممتلكاتنا، الكون بأكمله ملك أشخاص في عشوائية تفكيرنا، دائماً ما تتركّز نظرتنا على الأقدام. صفعنا على قفا رؤوسنا، لم تدرك الشبكية أن ثمة مصطلحاً اسمه الأعلى. تحنّطت عقليتنا على الجزء الأسفل، لا مجال للمساومة بين شخوص الأعلى والأسفل، التوسط هو الهروب من وحل التأمل. غير العاديين في حياتنا مجانين. أيها الناس أفتوني في سؤالي، لماذا الأسفل هو موضع الشعب

العربي...؟! والأعلى مكان مقدّس في حياتنا لا يمكن لنا أن نطأه...؟! الظهور في حياتنا خفي، تأنيب الضمير هنا غباؤنا، يهطل كالمطر في أرض جدباء، لم نجد إلّا ذواتنا نحاربها، نحن أضعف من حمل السلاح. نظرتنا لهذه الأحرف محرقة للنفس، لم يعد ثمة أمل ودافع يخوّلنا لخوض هذه الثلاثة أحرف، البقاء باسق قامته على رقابنا، والتأخر يطأ على ظهورنا كأسير في أحد المعتقلات، والليل موضع تحرُّش جنسي مع الذات، من الحماقة أن نتحرّش بذواتنا، لماذا نخاف النهار والوضوح...؟! السؤال الأعمق في هذه المأساة لماذا كل العالم يحب الليل...؟! الليل هو الهروب... الليل هو الخوف المهجّن، الليل ويل، هجومنا يقف على أستار نجمة، وتصعيدنا لتفكيرنا لا يتعدّى قمراً ثلاثة أرباعه مقذوف في الظلمة، الجزء الظاهر لا يمثّل إلّا الجزء الأرعن من تفكيرنا، تفكيرنا كالسيجارة، يحترق ليصير رماداً، والرماد هو أسرع مخلوق ينتثر في الهواء، لا يعبأ له أحد. تفكيرنا هواء مؤكسد بأول أكسيد الكربون، تفكيرنا مضر كسوائل تنظيف المراحيض»...

... لأول مرة منذ زمن بعيد أشعر بأني أتنفّس الصعداء. الآن وجدتُ الإجابة التي ألقّم بها فم ذاك السؤال، فقد كان ثمة تحامل دفين على جنس الأفاعي، فحاولوا أن يلصقوا بالعقارب صفة من صفاتها وهي شموخ التمدد، استنقاصاً بها وتحقيراً، لكن لماذا التآمر يلتحف تفكيرنا...؟!

في ذلك اليوم تأخر ممدوح على غير عادته، فلم يتأخر قبل هذا أبداً، هو من كان يملك فينا سيارة. نظام خروج السيارة أفسد كل الخطط المستودعة عقول بعض الصعاليك، كنا على مقدرة في خلق سيارات، لكن الملكية الحقّة تفرض علينا أن ننتظر الانعتاق من سيارة أحدنا بملكيته الخاصة لها. ما أقبح أن تسيِّر أشياءك على مفهوم الغير. كان تركي مستنداً جدار الكلية في هدوء غبي، هكذا هو تركي، لا يهشّ ولا ينشّ في خضم الأحداث، اتخم من جينات الإمعات، وتجرّعها مع حليب أمّه. مبدع فقط في «الدبكة»، لكنه لا «يدبك» إلّا وقت اعتلائه هامة «البست»، وعدنان يدخن بشراهة دودة وجدت عفناً، على نغمات «الدبكة» المنطلقة من جهاز تسجيل سيارة «عارف» بدأ يتراقص، كان سعيداً جداً. فقد قرّر أن يغيّر مشروبه المفضّل ويجرّب ما نُصِح به من شراب «الكونياك». كانت تلوح لنا حدود «المدورة» بيدها من على بعد المائة كيلو.

عندما تبدأ لحظة التغييب فسيأخذ العقل إجازته الاعتيادية، الغيمة تنتظره هناك، حين يكون المتسع بين الشخص وأمنيته كيلوهات معدودة، فسيكون أسرع شخص على سطح البسيطة.

أن تهاجر بسبب متعة، مجازفة في حق نفسك!

بدأ عدنان «يدبك». . . هبة مسعود تردّد:

الله يهديك يالمنفذ. . . ليش تدخل حي الله. . .؟!

لا تدخل غير الحلوين. . . اللي خالقهم الله. . .!

ولك على حالة عمار...!

عدنان لا يجيد «الدبكة» كثيراً، هو حال السكارى، بقاؤهم هناك فقط تحت رحمة السكر، لا مجال لإنصاف الذات. الطبيعة في نظرهم، ممهّدة حدّ الاستواء، لأنهم يحلّقون خارج السرب. التحليق هو صيغة مبالغة في سياق تأكيد سعادتهم؛ سرعان ما كان يتعب عدنان نظراً لامتلاء رئتيه بالنيكوتين، وأن الدبكة تحتاج مجهوداً لياقياً جباراً. لا أدري كيف يستطعن فتيات الملاهي الليلية التلاعب فيها دون تعب؛ هي أشبه بالعرضات في ثقافة رجل جنوبي، العرضات الجنوبية مضحكة، ومسلية، وعجيبة في آن، وتساعد في زيادة اللياقة البدنية؛ هي كالحليب خالي الدسم، لا مكان لذوي الشحوم فيها، وإن وجد فإنهم يمارسون التنطيط من بؤرة الشعور، والممارسة تكون من الصميم، عندها لن يكون للشكليات أي مكان تعبث فيه، هكذا فلسف عدنان رؤيته حينما ذهب لحفل زفاف «سلطان» ذلك الصديق القديم، فلما رأى مجموعة من الشبان يعرضون وينططون من الصميم قال ضاحكاً:

ـ عندما تكون الممارسة من الصميم، فإن طقوس الممارسة ما هي إلا تبعات لا دخلاء فيها...!

منذ بداية كتابة هذه المجازفة، لم أحاول أن ألمّح لأول رحلة قمت بها، لأنني لا أريد أن أبقى تحت رحمة قلم وشخصيات كتابية، تذكرني بعبث المواقف التي تجعلني رهناً

لها، أتذكّرها بخفية لسبب لا أدري كنهه، هل هو خوف من الجرأة في ابتزاز المواقف الأولى...؟ أم هو تقدير لأول المأساة...؟ أحياناً نقف أمام مآسينا برحمة لأننا نعلم عظم ما جاءت به، وأثرت به في ذواتنا، لذا كان لها تقديس آخر!

ككل الأحداث العظام في حياتنا، كالولادة والموت، أتذكّر الآن أول رحلة قمت بها إلى سوريا. كنا ثلاثة أصدقاء لاحم بيننا القدر بعناية القدر فقط، لا نفترق إلّا بعامل خارجي طارئ، أنا، وأحمد، وسالم. أحمد ترك الكلية والتحق بالسلك العسكري كي يتزوّج. فقد أقام علاقة حب مع «نجود» تلك الفتاة التي كانت تسكن بجوارهم. استمرّت علاقتهما قرابة السنة والنصف، وانتهت بالزواج، وقد التحق بالسلك العسكري كي ينعم بنجود، لأن بقاءه في الكلية سيكون سبباً في فقدانها، نظراً لجمالها، وكثرة طالبي يديها.

الآن يعيش معها في وحل من الريبة والشك، وعدم الاستقرار، فمفهوم الخيانة خمّر تفكيره. حياة الكثير من المتزوجين تقوم على مبدأ الشك والخيانة، اللاقدرة على التماسك هو ما يسبّب الذوبان السريع على نار الأحداث. مشكلتنا تنبع من عدم الفهم لأنفسنا، وطريقة التفكير التي لا تتعدّى سنتيمتراً واحداً عن مستوى سطح العقلانية. مفهومنا للسعادة ارتبط بقشورية مفرطة، وطفرة سريعة في إصدار الأحكام؛ تعاملنا مع إناثنا كالوحل، التخبط فيه أكثر من الاستقرار.

بدأ شك أحمد في زوجته، بعدما قرأ رسالة قصيرة في هاتفها النقّال من شخص مزعج؛ الإزعاج في ثقافتنا أسهل طريقة لاصطياد الفتيات. هنّ محرومات حتى من حق التحدث، ومحرومات من الاستماع. دخول شخص يمثّل لهنّ بداية الثرثرة، والنساء كثيرات الكلام، لا مجال للصمت في حياتهن، لذا يجب أن يفرغن هذه الطاقة الهائلة. والإزعاج أفضل طريقة للاصطياد وتلبية الرغبة الجامحة في الكلام من لدن جنس حواء.

إلى هذه اللحظة لا أدري أين هو أحمد الآن...؟! زواجه كان بالنسبة له قفصاً، هكذا نحن السعوديين! لكن ما أستطيع أن أجزم به الآن أن أحمد قد فرّخ الكثير من الأبناء، لأن الجنس هو السبب الأول والرئيسي في زواجه ذاك، وهو لا يلام، فقد كانت نجود تمتلك من الأرداف ما يستطيع أن ينام عليها الشخص بهناء...!

أما سالم، فهو ثالث الثالوث. كان هادئاً بالفطرة، لكنه سرعان ما يغضب، هو السبب الرئيسي في إدماني للسفر، فقد كان يملك الأسلوب الأروع في الإقناع، كأساليب المسوقين الدعائيين؛ أذكر أنه عندما بدأ يناقشني في أمر السفر، أقنعني بالصوت والصورة، فقد أتى بصور له وهو بين فتياته؛ وفي إحدى الصور كان يقبّل نهديّ إحداهن، فلم أتردّد بعد أن رأيت تلك الصورة مقدار شعرة، الآن حُرِّم السفر نهائياً. لا أدري لماذا السفر للخارج في عرف بعض الملتحين

محرّماً...؟! فقد أطال ذقنه، وقصّر ثوبه، وأبدل بالسواك السيجارة، وبين فترة وأختها، أسمع صوته يخطب في مسجد الجمعة القريب من منزلنا.

أتذكّر أنه في إحدى المرات، وبينما نحن نسير في شارع «برزة» وجد فتاة بالقرب من مطعم «الروابي». نظر إليها بخبث، ولم يتردّد في الذهاب إليها، دعاها إلى الشقة، فقبلت دون أي تردّد، أدخلها، ساومها وقبلت، ضاجعها مضاجعة مضحكة جداً، ذلك لأنني وبينما أنا جالس في «الصالة» أنتظر دوري في الدخول، سمعت أصواتاً تنطلق من الغرفة، وصوت ارتطام، فتحت الباب، على صوت تلك الفتاة وهي تقول «شرشحتني شرشحة من شان ألفين ليرة، تضرب أنت وهالألفين ليرة...!». لم أستطع أن أتمالك نفسي، فانفجرت ضاحكاً، فاقتربتْ مني، باستجداء، قائلة: «من شان اللّه ما بدي أدخل معه...!». سيطرتُ على الموقف، بعدما أقنعت سالم بالخروج، ودخلت معها فسألتها:

- وش الحاصل...؟!

- رفيقك معاه حنش!!

انفجرت ضاحكاً، وبدأت لعبتي المفضلة، امتداداً من الأذنين إلى أخمص القدمين، صدقاً، كانت من أفضل الفتيات اللواتي مارستُ معهنّ الجنس، لكنها لن تكون مثل «نورة» تلك التي تمنّيت لو أنني أفتديها بأحد إخوتي...!

كنا نمثّل ثالوثاً، وفريقاً خاصاً، نادراً ما كان يشاركنا أحد في رحلتنا هذه، لأننا لا نستأمن أحداً عما يحصل هناك؛ فبعضهم كان كالنساء كثير الكلام، وبعضهم كان يحب التباهي، فهذان المصطلحان لا يملكان حيّزاً من ثقافتنا، وأتذكّر أنه في يوم ثلاثاء، قبضنا مكافآتنا، من الكلية، وخرجنا. فوجدنا سالم ينتظرنا بسيارته أمام البوابة الرئيسية للكلية. ركبنا معه، وانطلقنا كأول رحلة لي إلى أرض الماء، والخضرة، والوجه الحسن...!

ـ يلا شباب...!

هكذا صاح عدنان عندما لمح سيارة ممدوح من بعيد تحثّ الخطى مسرعة إلى الكلية. ابتسمت ابتسامة فيها نشوة طاغية، فقد بدأ العد التنازلي، لإشباع شبقي، وبدأ يتراقص عدنان كالمجنون، وهو يردّد:

ـ اللّه يهدك يالمنفذ... ليش تدخل حي اللّه...؟!

لا تدخل غير الحلوين... اللي خالقهم اللّه...

ولك على حالة عمار...!

ركب الجميع السيارة، وبعدما أسند كل منهم ظهره إلى المقعد، نظر عدنان إلى ممدوح بابتسامة ساخرة:

ـ هل هي العقدة القيصرية...؟! ألم أقل لك «حينما يحكم الدجاج حظيرة الديكة، فبئس الديكة هم...!».

تجاهل ممدوح كلام عدنان، ورفع صوت جهاز التسجيل، ليخرج صوت سارية السواس «خانم... خانم...».

ساد الصمت والبهجة. كنا نلقي بأنفسنا في التفكير لقطع المسافة سريعاً، كنت ذلك اليوم على ضفاف لوعة حارقة. تمشط فكري وأشلائي، لم أكن أعرف بأن الحياة هي من الصغر بأن تعيد نفسها في لحظة مجرد لحظة؛ أن تتذكّر مأساتك بكل تفاصيلها فحتماً هي مأساة تستحق التقديس!

ـ أتمنّى أن نجتاز الحدود الأردنية بسلام.

هكذا قال ممدوح حينما عبرنا نقطة التفتيش الأولى بعد دوار «بوابة الشمال» متجهين إلى «حالة عمار». كانت الحدود الأردنية تمثّل شبحاً يطارد الشباب في سفرهم، حيث كانوا يتعرّضون للمضايقات، من قبل موظفي الجوازات، والجمارك، في حدود «المدورة» وحدود «جابر» على غير ما يتعرّضون له في حدود «حالة عمار»، وحدود «نصيب» في الأراضي السورية؛ فقد كان تعامل هؤلاء الموظفين ينبع من الجفاء، ونظرات الاحتقار، ورمي للجوازات. وفي يوم من الأيام وبينما كان ثالوثنا ـ أنا وأحمد وسالم ـ في إحدى رحلاتنا، نقوم بإنهاء إجراءات السفر عند حدود «المدورة» وقفت أمام موظف الجوازات أنتظر أن ينهي الموظف عمله وطبع الختم على الجواز، فما كان من الموظف بعد انتهائه إلّا أن رمى الجوازات بالقرب من النافذة دون اكتراث. فنظرت بابتسامة صغيرة قلت «يعطيك العافية»، وبعد أن عدت من رحلتنا تلك، وجدت الدكتور «مجدي» وهو دكتور أردني الجنسية، وكان بينه وبين الطلاب تقارب كبير، ليس كبعض

الدكاترة الذين إذا تحدّثوا مع الطلاب تتطاير الكلمات من أنوفهم؛ نظرتهم للطلاب لا تعدو كون هذا الطالب صعلوكاً، لا يفقه شيئاً، فقط دخوله للكلية من أجل حفنة نقود تدعى (مكافأة)، للأسف كانت هذه المكافأة مكان تندر من الدكاترة للطلاب، وكانوا دائماً يستخدمونها كوسيلة لابتزاز قاموس الشتم عندهم، وكأنهم هم من يدفعها من «جيوبهم».

عقدة الشهادة أصبحت هاجساً مهولاً من قبل الطلاب للدكاترة، نظرة النمل، والصراصير والدود، طاغية على جلّ مؤسساتنا التعليمية العليا، تموت الكبرياء، ويحيا الانكسار، وتُعدم المبادىء الحميدة، حتى أن عدنان أطلق على الدكاترة (أسود الدال)، هذا الحرف هو تذكرة السفر من دنيا الإنسانية، إلى حياة الغاب. تعاملنا في تعليمنا نابع من نظام الغاب، البقاء للأقوى، للأسف الطلاب في حياة تعليمنا قطط!

حكيت ما حدث للدكتور «مجدي» مع ذلك الموظف الصنم، فردَّ عليّ:

ـ لا بدّ أن تراعي نفسيات هؤلاء الموظفين، لا سيما الذين يعملون في مركز «المدورة» وهي بعيدة بعض الشيء عن عمان كما تعرف.

ـ يا دكتور مجدي، المسألة أكبر من كون المسافة هي الفيصل في هذه المسألة، هم يمثّلون بلدهم، وربما يعكسون صورة سيئة عن بلدهم بتعاملهم هذا ولكن لماذا السعوديون

بالذات هم الذين يُعامَلون بهذه الشاكلة...؟! أصبحت أرى الحدود الأردنية شبحاً يداهمني عندما أقترب منه...!

ـ وهل أنت تمثّل بلدك في الخارج بصورة حسنة...؟!

ـ نعم، بالنسبة لي أمثلهم أحسن تمثيل لأنني وإن مارستُ أشيائي فإنني أمارسها في الخفاء، بعيداً عن الناس. انتماء الشخص إلى أشيائه أمر في غاية النبل، وليس ثمة وجه شبه بيني وبين هؤلاء الموظفين العاملين في مركز الحدود.

ـ لكل فعل ردة فعل...!

أنا لم أقم بأي عمل سيء تجاههم، بل بالعكس فإنني في قمة أدبي معهم بالذات، مقارنة بالحدود السعودية، والحدود السورية، التي أكون فيها أكثر ضحكاً، وأكثر مرونة من الحدود الأردنية، لكن يبدو بأن في الأمر سراً، وهو لغز صعب جداً...!

إبتسمت ابتسامة خبث واستطردت:

ـ حاول أن تحل هذا اللغز يا دكتور...!

كان رأس تركي يأخذ أشكالاً هندسية في حركة لاإرادية، لا يأبه لشيء، هو ينام في أي وقت وفي كل مكان، وكأن أمه أرضعته مع ذبابة «التسي تسي»؛ كنا قد تخطّينا نقطة تفتيش «حالة عمار»، بداية النهاية...

كان تركي يحبّ النوم على أنغام جهاز التسجيل. لا يهنأ في نومه إلّا مع الضوضاء. كثيراً ما كان ينام في المحاضرات، لكن الملفت أن درجاته دائماً تأتي أعلى من

درجات الجميع، وهذا يفسّر التورية المقنّعة من الدكاترة. أشعر بأن كلمة دكتور مأخوذة من الدك، بمعنى القمع والضرب على الرؤوس، والتهشيم؛ شعور ينتابني تجاه هذه الفئة، كنت أرغب في أن أحظى بشرف الوقوف على حدّ الدكترة، لكن كرهي لهذه الدال ولدت عندي ضعفاً مكتسباً من التعاطي والغاب.

إنني لم أكن أدرك معنى أن يكون الإنسان بين عالمين أحدهما وحشي والآخر تُربَّى فيه الوحشية!

ذات صباح كان دكتور الأدب الأندلسي يشرح، وتركي هائم في بحور أحلامه، ينشد المقاطع التركية ـ نسبة إلى تركي ـ في نشاز مستمر، انتبه إليه الدكتور، مع النوتة الأخيرة في المقطوعة السابعة عشرة من شخيره فصاح به الدكتور:

ـ تركي أذكر لي آخر بيت ذكرته للتو...!

رفع تركي رأسه، لا يدري ماذا يقول، امتزجت الصورة في داخله ليخرج الدكتور في صورة دراكولا ضخم وبشع، لا يدري ماذا يفعل.

المفاجآت تعطي الحياة بعداً آخر توقفه بين حلمين، حلم التصديق وتصديق الحلم!

هنا تدخّل عدنان مشاركاً في الموقف:

ـ يا دكتور، تركي مريض، البارحة كان في المستشفى حتى الساعة الرابعة فجراً.

دائماً ما كان عدنان يتصرّف من تلقاء نفسه، وكان دكتوراً في الكذب، امتهن هذه المهنة، حتى أصبح الطلاب في الكلية يستعينون به في معاركهم مع الدكاترة. كان الطلب يكثر على عدنان بداية ونهاية كل فصل دراسي، أثناء الجداول وإضافة المواد وإلغائها، وأثناء صدور الحرمانات، فقد كان يجيد الكذب حدّ التصديق، وكان «سلطان» جارهم وصديقه، يستعين به كثيراً، حتى أنه قد أصدر مرسوماً «عدنانياً» بموت أم «سلطان» ست مرات متتالية، وفي آخر المطاف كُشف أمر سلطان وأحالوه إلى مجلس تأديب الطلاب للمرة الثالثة!

ما نحتاجه أعظم من أن نكذب ونوغل في تصديق كذبنا، فالإنسان كائن النسيان حدّ الاعتناق!

نظر الدكتور إلى عدنان نظرة تشاركت فيها كل الحواس، ولم ينطق بكلمة، عندها قال تركي:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان...

فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول...

من سرّه زمن ساءته أزمان

هنا أعلنت السخرية ولادتها على محيا هذا الدكتور فقال:

ـ أيوه يا بني... كمل هوه قال فيها إيه بعد كده...؟!

لم ينطق تركي بكلمة، لوهلة وقف أمام الموقف لا يريد

إلّا الاتزان؛ فبعضنا أحياناً لا يحبّذ إلا الاتزان إذا كان الموقف باعثاً للسقوط.

فقط كان ينظر إلى الدكتور بتعجب، فاستشاط الدكتور غضباً، فطرد تركي من المحاضرة!

عندئذ اعتراني شعور بالذل، فرفعت يدي أريد سؤال الدكتور، فأذن لي بعدما رمقني نظرة غامضة نوعاً ما...

- يا دكتور هل من الممكن أن تقول لي البيت الثالث من هذه القصيدة التي قالها تركي قبل قليل..؟!

ألجم الدكتور، ولم يستطع استيعاب حجم سؤال جريء وغادر... فالأسئلة هي من الغدر بحيث تأتي فجأة لتفرّق قناعاتنا! لكنه تعجّل وقال:

- القصيدة دي بحث عاوزكم تقيبوه معكم المحاضرة القايه...!

هكذا هو الهروب المؤدّب، وهكذا تسير جلّ مؤسساتنا التعليمية، عندما يكون الكادر سيئاً فستكون المخرجات سيئة، دائماً ما يُقال: لماذا التعليم متأخر في بلادنا...؟ عندها تتصورخ الإجابات على هذا السؤال، تبحث في الاستراتيجيات، والدراسات العلمية حول طرائق التدريس، والمناهج، والمباني المدرسية، والظروف البيئية التعليمية، وطبيعة المجتمع، وثقافة المجتمع، والتكوين السيكولوجي للأفراد، ومقياس مقدار الذكاء للأفراد، لكن الخلل ليس في هذا كله، الخلل فيمن يؤتون، هؤلاء الدخلاء لسلك التعليم

عنوة، فبعض الدكاترة، تكون شهاداتهم مجرد عدد لا بأس به من وريقات الخمسمائة. دائماً نجامل على حساب أنفسنا، تعليمنا يتأخر والسبب الرئيسي هم من يُخرّجون المعلمين، ونحن نحرث في أرض المناهج، وطرائق التدريس، ونحاول أن نسير وفق الاستراتيجيات الموضوعة، ونؤطر المجتمع في استبيانات، كي نقيس مقدار ذكائهم، وطبيعة تكوينهم السلوكي!

في المحاضرة التي تلتها، أتيت بهذا البحث، بعد أن نسخه لي عدنان، من الإنترنت، لأنه كان مدمناً على الشات كإدمانه لشربه للكحول، كلّفته بالأمر فأتى بهذا البحث مطبوعاً على عدة ورقات، ذيّلتها في الأخير ببيت شعر للشاعر ناصر القحطاني:

(طارق وروّح تصبّر يا جبل طارق. . .

لو رزّت القوم في راسك بيارقها). . .!

بدت حدود «المدورة» أبعد نقطة على وجه الأرض، ولا يفصلنا عنها سوى كيلوهات معدودة. أوقف ممدوح سيارته عند ثاني محطة في حالة عمار، كي يملأ فم «التانكي» وقوداً.

في بلاد الشام، الوقود هناك لا يمكن وصفه إلّا بماء خالطته قطرات البنزين، وفي السعودية ثمة أمور تستدعي الغرور، أقلها وقود السيارات!

- افتح للرجل التانكي. . .

هكذا قال تركي وهو غير مدرك لحقيقته هل هو نائم، أم مستيقظ! لكنه أدرك القيمة المادية لجسد ذلك العامل الهندي المتسمّر عند نافذة السيارة بجانبه.

بعد سماع عدنان للفظة «تانكي» المقلعة من فم تركي، انفجر ضاحكاً، حتى أنه بدأ يضرب برأسه في «طبلون» السيارة. كان عدنان دائماً ما يخرج عن طوره، عند أتفه الأمور، لكنه يوقفنا أمام الواقع بسخرية سوداء لاذعة لكل الكائنات البشرية الممتدة في البقعة الجغرافية العظيمة التي نعيش فيها، بكلمات معدودة كان يصوّر لنا مقدار الشرخ الأبدي المرتسم على سطح عقولنا، المتوغل إلى أبعد من مركز النواة الفكرية. قال عدنان بعد أن غالبته كحّة سارع في إخراجها كإثم يريد الخلاص منه، وبعد أن أغلق باب السيارة بعدما أخرج فناجيل كثيرة من «البلغم» سئمت مكوثها في صدره، نظراً لإكثاره من شرب دخان الـ «مارلبورو أبيض»، يقولون إن الـ «مارلبورو أبيض» يسبّب البلغم، لكني أشك في صدق هذه المقولة، فالدخان بكل أنواعه سبب في جراثيم الصدر، لكنه متنفسي الوحيد، أتذكّر عندما سألتني «إلهام» تلك الفتاة التي تعمل في الملهى ـ كان يعارضني عدنان على قولي إن الفتيات في الملاهي الليلية يعملن، فكان يقول ساخراً:

ـ إذا كان الرقص عملاً، فلن يكون للخط الأحمر مجال يضع أنفه فيه...!

سألتني إلهام يوماً قائلة، وهي تلف إحدى خصلات شعرها:

ـ لماذا تدخن يا فارس...؟!

ـ كي أتنفس...!

ـ وهل الدخان مكان للتنفس...؟!

ـ بالطبع، إذا كان الواقع يحكم قبضته على مناسمك، فالدخان أفضل طريقة للتنفس...!

إلتفت إلينا عدنان وقال:

ـ هل تذكرون «فرج» الذي كان يكنّي نفسه بأبي «تانكي»...؟! وهل تتذكرون عبارته التي وجدت جدران مدينة تبوك مكاناً لها: «مع تحيات أبي تانكي عاشق التماسيح»...؟! الآن أتخيّل زوجته أم تانكي عاشقة التماسيح...!

واستطرد قائلاً:

ـ إن الشعور بالكبت، والانغلاق، هو ما يولد فينا مثل هذه التصرفات؛ فالإنسان عندما لا يجد إلا حائطاً يخاطبه، سيحاول قدر المستطاع إهانة هذا الحائط بألفاظ حمقاء...!

كنتُ أحب الاستماع. هذه اللغة التي لا يجيدها الكثير من الناس، وعندما أنهى عدنان كلامه تبادر إلى ذهني سؤال فقلتُ له:

ـ ألا ترى أن الانعتاق ردّة الفعل العكسية للانغلاق...؟!

نظر إليَّ تركي، وفي نظرته شيء ما يقول «هذا السؤال في

الصميم»، إلّا أن العامل قطع علينا هذه الاستراحة الفكرية، مطالباً بنقده ثمن الوقود، عندها قال عدنان:

ـ حينما تولد السحابة سأجيبك على هذا السؤال!

في تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً أدخل ممدوح أنف سيارته في حدود حالة عمار، ليتغيّر كل شيء ابتداء من تفكيرنا، مروراً بنظرتنا للمجتمع، انتهاء بطريقتنا في الكلام...

في حياة كل منا لحظة تصبح فيها الحياة خيطاً مهترئاً

لا أدري كيف يكون القلب محبرة، يعبأ بأصناف عدة من الأحبار، ذات الألوان المتعددة. قلوبنا أصبحت كالحيطان في حياة شخص ثري، فهو يلونها كيفما شاء، وفي أي وقت شاء، لم نملك القدرة عن صيانة قلوبنا في دنس التعددية، كلنا نؤمن بأن القلب عظيم، هو قادر على حمل آلاف مؤلفة من البشر، بيد أنه من المجحف أن ترتهن قلوبنا لتعددية بلهاء!

أشعر بأن عدنان هو الإنسان الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يعبّر عن كل شيء إلّا ذاته.

أحياناً نقف أمام ذواتنا موقف الأخرس!

ودائماً الإنسان دفتر يخطّ الزمن خواطره فيه بلغة لا نعرف كنهها؛ هذه الطلاسم الزمنية في ذواتنا، لم تعطنا الحق في أن نتكلم عنها، إذ أن المرء لا يعرف ماهية هذه الطلاسم، فيتجسّد حيالها قطعة رخام فاخرة. عندما بدأ يقصّ عليَّ حياته السابقة، وتجاربه، لم أكن لأعرف أن تجاربنا الشخصية

أشبه بالإبر، تخزّنا برقة لكنها تؤثر فينا بوخزها، وبدا لي كأنه ليس ذلك الإنسان الساخط، والمحتجّ، فالاحتجاج في عالمنا صرخة طفل لا تُسمَع، وإن سُمعت ضحك لها المستمعون، لأنها لن تعطي ثماراً تؤكل... بدأ يسرد حياته على طبق فاخر من التعرّي، عندما تجد المتلقي بئراً ستلقي فيه كل ما عندك خشية من السرقة. يعرف أنني في طريق الموت جانح، فأراد أن تبقى حياته في مكان آمن تحت رفات الأرض، أو في السماء لأسردها على الملائكة... قال: «كنت في السنة الأولى من دراستي في الكلية، بدأت أتقن لباس العقال، ورزّه بأسلوب متقن. في عُرفنا العقال للرجال فقط، كم هي قبيحة هذه النظرية، عندما يكون ثمة رموز للرجولة، فلن تتّسع الرجولة لأحد، الرجولة تصرفات، الرجولة موقف، وما عدا ذلك شيء يمكن أن يكون هامشياً».

كنت أخرج من البيت موصلاً إخوتي إلى مدارسهم، فأوصل الذكور قبل الإناث، وعندما اقترب من مدرسة إحدى أخواتي المراهقات، كنت أنظر للمرآة في سيارتي، وأعدل من وضع عقالي ـ دائماً ما يعتريني شعور تجاه كلمة «عقال»، هل الرجل إبل...؟! ـ وألعق شفتي كي تخرج من يباسها وبندى حمَارها، وأوقف سيارتي أمام البوابة الرئيسية، لأنعم بالتمتع بالنظر للأجساد الأنثوية المليئة بالغنج، وأنا أردّد في داخلي «لكي تكون عظيماً، أنظر إلى أبعد من حيّز جسم المرأة». أتذكّر أن إحدى أخواتي يوماً ما أتتني تقول:

ـ عدنان، أتعلم ما تقوله صديقتي. . .؟!

ـ ماذا تقول. . .؟

ـ أخوك «شخصية» هل يتقدّم لخطبتي والزواج مني. . .؟!

في داخلي تقافزت عصافير النشوة، وأصبح ثمة متّسع لكل إناث الأرض بين فلقتي قلبي، ولكن لم أكن أحرّض أخواتي على مثل هذه الأقوال، فتركتها بعد أن وضعت طبقاً من العبارات بين يديها «أمثال هذه لا يجدر بك مرافقتها!» وككل الأشياء التي لا يمكن مناقشتها، كالأقدار والمظاهر الكونية، دسست عبارتي وبطغيان كل الجبابرة أردفت «بنات آخر زمن!» تركتها ذلك اليوم وأنا أشعر بأني أسعد مخلوق على وجه الأرض؛ ففرحة المنتشي تكون أعظم من الكوارث الطبيعية على مرّ الدهور. كانت هي أول امرأة ألفت انتباهها، رغم وسامتي المعقولة، لكنني دوماً ما كنت أقول للأصدقاء «إذا أردت امرأة فكن رجلاً». . .

. . . عند سماعي هذه العبارة خطفته بسؤال:

ـ كيف أكون رجلاً يجذب المرأة إذن. . .؟!

نظر إليّ بنوع من التقزّز، والكره، وكأنه يقول (أنت عديم الفهم)، لكنه تمالك نفسه، واستطرد:

ـ حينما تنظر المرأة للرجل، لا تنظر بمنظار الشكل، عندها لن تتعدّى نظرتها كون الشخص يملك رؤى وتصرفات يسكبها في قالب ناضج، فكن رجلاً بتفكيرك، المرأة تحب أن يكون الرجل واعياً، لكنها لا تعترف له بمقدار ضحالتها

الفكرية، هي دائماً ما تحاول مجاراة الرجل في أكثر المواضيع الفكرية جدلاً، ليس لشيء إنما كي لا تظهر بأنها غبية. المرأة تريد رجلاً تتطاول أفكاره بطول الجبال، تريده إنساناً ناضجاً، ليس كما نرى من تصرفات «سطام» الذي يوحي بأنه أنثى «مستشعرة»، الميوعة، والتميّع تتشقّق عن ملامح هذه الفئة، الرجل رجل!

كنت آخذاً في حب السؤال يومها. لم أنفك بعد من عار الأسئلة التي كثيراً ما كانت تجعلني أتسمّر أمام الأشخاص منتظراً إجابة. كنت فعلاً أكثر من قذف الأسئلة، وكنت أحتاج للإجابة لتشفي غليل أسئلتي، لكن مع الأيام أنجبت ذاتي قناعة بأن الإجابات حين تأتي فإنها تأتي بقبح وبشاعة، لذا تبنّيت مبدأ أن أطرح الأسئلة التي لا أنتظر لها إجابات، في ذلك اليوم تجرّأت على عدنان وسألته:

ـ هذا يعني ألا نهتم بمظهرنا....!

حدجني بنظره، وأحب أن أنهي الحديث فقال لي:

ـ اهتم بمظهرك، بعيداً عن الطالع النسوي...!

وكأني غير موجود أكمل بأريحية...

... عندما خرجت من باب الحجرة، تاركاً «ليلى» خلفي متخبّطة في ردة فعلي القاسية، كنت كالطاووس، اتجهت لباب المنزل، خرجت مستقلاً سيارتي، مخاطباً أناي «جميل أن تأخذ جزءاً من تفكير امرأة، والأجمل أن تتملك كل الأجزاء!» كان عقال الحجر في التعامل معي قد انفك،

تبخّرت كل المراهقات العابثة في نظر أبي، لم أعد ذلك المراهق الذي يتقرفص على نفسه، في أحد الأزقة، ومجموعة المتشرّدين على أحد «الدكات»، فقد أعطاني أبي سيارة، وأُعطيت مفتاحاً لباب المنزل، فهذه الدلائل الأولى لبداية حمل الانفكاك والحرية. كنت سعيداً حد البذخ، فكنت كل يومين أذهب للحلاق، لأردي ذقني الذي كان كالحقل بعد موسم الحصاد، لم يُر من شعر وجهي إلّا ما ينبت في أسفل الحنك من شعيرات بسيطة، كنت أحاول جاهداً حلقها كي تنبت هذه الشعيرات بأسرع وقت ممكن، فقد تُساعد في الانفكاك الأعظم، وكنت لا أنسى تحديد شاربي، كيلا أكون كأولئك الصيّع الذين تنساب شواربهم على تلك الوجوه كانسياب اللبن على شفتي طفل في سنته الثالثة. كنت أنظر لأولئك بنظرة المُستحقر لهم، فكيف لرجل أن يطيل شاربه بشكل مقزّز إلى هذا الحدّ. . ؟! ألا يشعر بخشخشته على وجهه كمخالب دجاجة وهي تخمش الأرض بحثاً عن حبة قمح ضلّت طريقها لتكون فريسة سهلة لدجاجة حمقاء. . . ؟! وفي أحد الأيام قلت لمحمد الذي كنت أعرفه منذ نعومة أظفاري «من النظافة أن يكون الشارب هو أول باب يطرقه الرجل». ونحن نتابع في بيته برنامجاً عن كرة القدم العالمية، لولعه بها، فقد كان يحب «رونالدو» كأنه أخ له، وهذا ما كان يوقعه كطائر مستضعف في يد أحد الملتزمين. أتذكّر حينما كنا نتحدّث في الكلية عن مباراة البرازيل وألمانيا في

نهائي كأس العالم 2002، فقد تصاعدت من فم محمد يومها أبخرة عن إبداع «رونالدو»، وموهبته الفذّة، ففاجأه سلمان أحد الطلاب الملتزمين في قسم الدراسات القرآنية بالكلية:

ـ هذا اللاعب كافر، فكيف تمدحه، وتمجّد موهبته...؟!

ـ أولاً أنا حر فيما أقوله، ثانياً وإن كان كافراً فهل يعني هذا ألا نقدِّر موهبته التي وهبها اللّه له، عجبت لك، فهل هنالك أحد من لاعبي المسلمين يمتلك موهبة كموهبته...؟! من الأمانة أن ننصف موهبته، وليس كونه كافراً يعني ألا ننصفه...!

كان يعيش محمد في بيت هو كبيرهم، أخوه «عاطف» تزوّج، وتركه هو القائد الموحد لهذا البيت؛ أبوه توفي قبل سبع سنوات، وحالهم كباقي الأسر السعودية متوسط، يسدّون رمق عيشهم من معاش أبيهم. الرفاهية لم تعرف طريقها إليهم، أغبياء من يخالون المجتمع السعودي أثرياء، وأغبياء من ينظر إلى أفراد الشعب السعودي على أنهم براميل نفط متحركة. كنت أعرف محمد مذ كنا صغاراً، فقد كان يأتي إلى بيت جدّه في عطلة نهاية الأسبوع فألتقيه. كان أسمر البشرة، وكان يحب كرة القدم كثيراً، حتى أنه اعتلى سلم الريادة في هذا الميدان من بيننا. كنت دائماً ما أتساءل لماذا أصحاب البشرة السمراء يجيدون الأعمال الشاقة بحرفنة...؟ هل هو جزء من تكوينهم النفسي والعضوي...؟ أم أنها لم تخلق إلّا في ظل أصحاب هذه البشرة...؟!

كانت تتناثر الأفلام في غرفته كتلاميذ تناثروا في فناء المدرسة، كلها مباريات لكرة القدم، وبعض اللقطات المهارية الخارقة التي كان يتدرّب عليها كثيراً في فناء بيتهم، أكثر ما كان يستهويني من هذه الأفلام، فيلم مباراة اعتزال الكابتن «صالح النعيمة»، هي أفضل مباراة تابعتها على مرّ تاريخ الكرة السعودية. كان يقول لي «تابع مباريات «الديربي» بين الهلال والنصر، أو الاتحاد الأهلي، فهي جديرة بالمتابعة» وكان يلحّ عليّ في متابعتها، وقد كان يحبها بشبق. فقلت له يوماً عبارات عبرت القشرة الأولى من عقله بعدما يئست في كل محاولاتي الفائتة، وسكنت في داخله، ومن بعدها لم يقل لي تابع هذه المباريات مطلقاً، أو حتى يطرق معي باب الرياضة. غرست كلماتي برأسه «لكي تكون متابعاً جيداً، فلا بدّ أن يكون المُتابَع أجود!».

لا سبيل لمناجاة السخط
إلا بمبادلته الشتيمة

كان البياض يلفّ أرجاء الحجرة، وكان ثمة صمت له رهبة الطغاة يفرض هيمنته على أرجاء المكان، دائماً الهدوء صفحة يرسم فيها الزمن عباراته بكل يسر وسهولة.

دخل عليَّ وخطوط كثيرة من التعجب والرأفة تصنع أشكالاً هندسية لا أعرف كنهها؛ طال الحديث حتى إنني لأخاله دهراً. كنت أعرف مدى مقته لحياته في منزلهم، وكنت أدرك أبعاد أن تكون حياتك مليئة بالكدر، فالفرد حين يعيش حياته بكدر يبالغ في الصراخ، تكلّم كثيراً، إلى أن قال:

ـ فارس أبي ليس رجلاً! صدقاً تعيث السنون في مخيلتي، وتنزاح البراهين، ويطوح بي الألم بعيداً وتنخر الوقائع ذاكرة الألم، وتعاشرها لتموت وهي تحمل الشقاء في أحشائها. لست إنساناً كاملاً، ولست حيواناً ناقصاً امتزجتُ بين كل ما مضى وأصبحت حياتي كقطع الفسيفساء؛ أشكال متعددة لكنها تمثّل صوره وقبحاً مزيّفاً يصفه الناس بالجمال، حينما تتقاذفنا المشاعر نموت دون بلوغ سلم الاطمئنان، هنالك آفة تمخر

عباب عقل البشر، تحيلهم في بؤرهم الحقيقية إلى جمادات ناطقة، وبشر صم، حتى أن الكرامة والعقل والتمنطق غادروا بلاد العرب بدون رجعة، كالعامل عندما يرى كفيله غير أهل لكفالته. لم نكن أهلاً لكفالة العقل فرحل واستقرّ في بلاد أخرى، لماذا الناس دائماً يصرّون على أنهم عقلاء؟ سأبيّن لك أنهم أغبياء. أنظر إلى تقاسيم وجوههم وتأمّل في أحلامهم، التباين الواضح يبيّن لك مدى سخف عقولهم وتحجرها، عندما يغادرنا الوجع فنحن العقلاء فعلاً. تراكمت حياتنا فوق بعضها البعض ليظهر لنا الوجع صرحاً شامخاً بارزاً أنفه إلى الأعلى. حياتنا تبادل أدوار مخيف، الكلب أخذ دور الهرة، والذئب اطمأن في مكان النعجة، والنعجة أصبحت تقود القطيع وهي التي يركبها الخروف في ظلام الحياة الدامس، يقذف فيها قذارته ووساخته وهي تحمل هذا الوسخ في بطنها، مساكين هم الإناث، دائماً يحاولون تخفيف أوزانهن لكن الذكر يزيد مقدار هذا الوزن بوسخه حينما يرميه في بطونهن لتعرف أن ربع وزن المرأة من قذارة الرجل، ووزنها الأساسي هو ثلاث أرباع ما عليه الآن، أليس من العقل أن يكون المعبّىء هو من يقود المعبأ...؟ إذن فلماذا نرى التهادي والتوغل في الحماقة؛ رجل يقذف قذارته في الليل في بطن أنثاه، وهذه الأنثى تقذف الأوامر في وجهه صباحاً وكأنه كلب في عرف إنسان بدوي مطيع ووفيّ، وأمين لسرّها، وصادق معها. سويعات قليلة تلد

النكسة. إن من البلاهة أن نجيز لعقولنا بإجازة اضطرارية في وطيس ما نحن محتاجون إليه، دائماً يلدغني عدنان عندما يقول (حينما يحكم الدجاج حظيرة الديكة، فبئس الديكة هم...!)... فعلاً أبي ديك أحمق، خلق كي يضاجع، لم يدرك ماهية القيادة يوماً، القيادة فن غاب عنه منذ خروج شعر عانته. أشك ويستحيل هذا الشك في بعض الأحايين يقيناً، بأنه كان طريقاً لرفاقه في صغره، هو يمارس الآن نظرية تبادل الأدوار حالياً، كانوا يقذفون في داخله نفاياتهم، ليس لجماله، وليس لشيء آسر فيه، إنما لتبعيته الغبية. أحياناً تكون التبعية أسهل طريقة لسفك القرارات الحمقاء. من هنا أدركت قيمة امتيازه في المضاجعة، كان أداة مرتمية في معمل الحياة، كارتماء الزنبرك في معمل فيزيائي، دوره إثبات النظرية ببرهان مؤكد، رأي العين، ومع هرولة الأيام صار عالماً فيزيائياً يتقن أصول اللعبة. إجادته للمضاجعة ما هي إلّا ردة فعل عكسي لما كان عليه في صغره، فكم هم المارون على عفنه...؟ هل هم مئة، مائتان، ثلاثمائة، ألف...؟ كم هم...؟ أنا موقن بأنهم كثر، ولكن من هو أفضلهم...؟ ومن هو أقربهم إلى قلبه...؟ ومن أفضل من يبتدع الحركات الملفتة التي كنت أراه يطبقها وأمي...؟ هذه القيصر الماجنة، التي تبعثره مساء وصباحاً؛ قمة البعثرة حينما تكون في كل حين، وفي كل الاتجاهات!! رأيته ذات مرة وهو يبدع في مضاجعتها حينما خرجت لأشرب كأساً من

الماء. وبعد أن عبرت تلك الحادثة حياتي أدمنت المشهد، فأصبحت أتلصّص كل يوم لأراه، حياتنا مبنية على التلصص. كل من تراهم حولك أليسوا لصوصاً...؟ حتى أمي لصة محترفة، فهي تسرق قذارته وهو فاغر فمه، وتسرق كرامته كالقطط عندما تجد قطعة لحم ملقية تسرقها وتذهب بها بعيداً، أمي قطة شرسة وهو رجل «مخصيّ»...!!

كنتُ أراه دائماً وهو يرفع رجلي تلك القطة إلى السماء. تشويه ظاهري لجمال السماء. تكون المشاهد ظالمة في بعض الأحيان، في اللحظة التي يكون فيها التشويه متسمّراً على جهة دون الأخرى؛ في تلك اللحظة نتقاعس عن إبراز المجحف في لحظة عناء منها، وتهتك فكري، ويدخل شيئه فيها إلى أن يغيب وكأنه أدخله جحراً، النساء جحور رطبة، أليس من المضحك أن يكون ثمة كائن بشري لا يملك عضواً بارزاً...؟ المرأة كالوعاء، تعبأ فقط، كان يقذف أوساخه وهي منتشية، نساء العالم غبيات، يشعرن باللذة من جراء القذارة الملقاة في جحورهن النتنة ذات الروائح الكريهة...! لست أدري هل كان يتعمّد رفع أرجل أمي إلى الأعلى كي نخرج نحن شامخين...؟! لم نخرج شامخين أبداً، تردّينا إلى ما تحت نتن الأرض، وتوغلنا في الموبقات، نعم، فأنا أسافر لبقاع شتّى لأمارس العهر. لم يكن يعلم ما قالته «ربا»...؟ حين كنت معها في يوم من الأيام في غرفة قصية من شقتنا العاهرة. أحياناً تكون الأماكن هي العهر الأوحد،

هو كالشاب حينما يريد الانحلال وأباه «مطوع»، لا يدرك قيمة نفسه، ولا يدرك دوران الأشياء من حوله، هو مثل المتكىء الملقى في زاوية من المجلس يكون مهماً عندما يُتكأ عليه، هذه أمي حينما تشعر برغبة عارمة في قذارته...! بعد أن تعرّينا من كل شيء، وأصبحنا كالزجاج، نعم نحن كالزجاج حين نتعرّى، سهل كسرنا، ونظهر بعد عرينا على حقيقتنا البلهاء، استلقيت على ظهري، وأخذت «ربا» تبدع في مصّ قضيبي وهي تقول: «عندما يكون قضيب الرجل كبيراً، وضخماً، فسيكون سلعة مستهلكة في سوق النساء...!».

أليس هو من يملك قضيباً كبيراً وهذا ما جعله «جوكراً» في لعبة «باصرة» أمي. أشك بأنها تزوّجته فقط لكي يخمد نيرانها المشتعلة في جحرها ذاك، فهل يعني ذلك بأنه ضاجعها قبل الزواج...؟ ربما، فبناته فعلن مثلها، لن أقول أخواتي، لأنه من العار أن أقولها، هن بناته اللاتي تربّين على ما هي تتقنه، جنس وتردي في الرذيلة...

لم أكن مستوعباً بعد كل هذا التعري، وكل هذه الفضائحية، ولم أكن لأقدر على التفكير في مجرد أن يبيح الإنسان سراً غامضاً كهذا، ما أقوى الإنسان القادر على سفك أسراره الخاصة كهذه. يومها لم أعد أستطيع التميز بين الحقد كمذهب حياتي ناشىء ومعاش، وبين الغباء كفطرة إنسانية؛ أصبحت بين الأشياء أقف ببلاهة، فهل موتي يعني بأنني غير قادر على صنع معجزة لنشر هذا الحديث، وهل

كنت فعلاً في نظره على قدر الأمانة في حفظ حكايات كهذه...؟! أليس الإنسان من الضعف بحيث يفكّ عقال لسانه في لحظة...؟ وكيف يمكن أن نقدّر الأمانة كواجب ديني وفطري...؟! ما أحتاجه من قوة أكبر من أن أباغت صديقي هذا بسرد كهذا...! كنت أفكّر فيما يقوله وأنا على حدود الذهول، لم أستطع فعلاً أن أقيس المسافة بين ما يقوله وبين ما أراه فعلاً، يالله، هل الإنسان من الحقد بأن يتعرّى أمام الناس بهكذا منظر، أم أن المرء في درجة من التلاشي يعيش عارياً من كل شيء...؟! كان ما زال يكمل قصته، وأنا موغل في عدم التصديق ككفار قريش... أكمل يقول:

ـ لن أكذب على أحد، فقد أدخلت أنفي في جحر تلك الرابية السامقة، وارتويت من ماء لزج يتقاطر من فخذيها، لأنني رأيته يفعلها، أغبياء هم الرجال، يضعون أنوفهم ويلعقون ذات المكان الذي يصبّون فيه قذارتهم، فهل يعقل أن أشرب من وساختي التي أقذفها في جحر أنثى ما...؟! ليته يعلم أيضاً أن كل من يذهبون إلى العهر يستلذون بعهرهم. نسافر خارج بلادنا، كي نتمتّع بعهرنا، خارج البلاد، يعني خارج الدين والقيم التي يرونها صحيحة، قيمنا رقم عددي أحمق، كالصفر. ألسنا نحن العرب من اخترع الصفر...؟ حياتنا جانب عاهر فعلاً!

نظرتُ إليه بإشفاق، وحاولتُ أن أغيّر مسار الحديث،

شعرت بأنني سبب في نكء جرحه، وعندما حاولتُ أن أهدِّئه، ضحك بسخرية واستطرد:

ـ فارس أبي ليس رجلاً! قل لي لماذا يتوارى خلف شواربه، وخلف كل معالم الرجولة المرسومة على محياه، هل يخاف دفع فدية لرجولته المعتقلة في سجون وسراديب ودهاليز هذه المرأة «أمي»، لماذا كان ورقة تقويم تتأرجح من زمن ولّى، وطارت من مكانها ولم تعد. نحن كالأيام، قراراتنا الصارمة تذهب ولا تعود، إلى هذه اللحظة لا أدري لماذا يمارس أسلوب المومسات. أجزم بأن أمي هي من تضاجعه وليس هو، هل جحرها ناشف من الماء..؟ وهذا ما يجعله يخاف أن يغور فيه خشية على شيئه...؟ صحيح أنني كنت أبغض أمي حدّ التقزّز، لكن النساء في كل العالم كمواد التسميد، هن كالماء يمطر على الأرض لتحيا وتنبت، هن من يقذفن الحياة ليتناسل البشر. هكذا كنت أرى الخادمة الفليبينية التي استقدمها يوماً، بعد أن رشت أمي أوامرها على صحراء وجهه وآمن ببرودة تلك الرشاش واستقدمها. كنت أخال بأنها خادمة فقط، لكن أحسست بعد ذلك بأنها جلبت لي كي أريق مياه ظهري المعبأة. إن كل الخادمات في بلادنا لا يأتين إلّا وهن موقنات بأنهن سيكنّ تربة خصبة لمياه أناس صحراويين، إلا فيما ندر، هذه الندرة تتوارى خلف أستار الأغلبية. إن الخادمات كعتق رقاب مجرمين من حبل المشنقة، إنهن يعتقن الرجال من هذا السجن الحياتي الذي

يعيشونه في بلاد، ليس للاختلاط في شريعتها مكان، لا أدري لماذا الاختلاط ها هنا محرّماً؟ كلنا في المجمل يخرج إلى خارج البقعة الجغرافية ويمارس اختلاطه بأدب ومن غير أدب، هذا الاختلاط يعتمد على ذات المرء، إن أراده أدباً جمّاً فلن يخاتل مبادئه، وإن أراده بغير أدب، فإنه سيحتال حتى في أشدّ الأماكن تمسكاً. شعورنا بالخسّة والدناءة والتفكير الأسود الفاحم هو السبب في اللافهم لمعنى أن أعمل بمعية فتاة في إطار واحد...!

لم يكن يعرف، أن ثاني أيام وصول «ريحانة» تلك الخادمة ذات الأنف المفلطح، المسحوبة العينين، والقصر الموغل في الأرض، كان يوم المطر، راودتها عن نفسها فاستسلمت، كانت تدرك قيمة أنها ستكون فريسة مراودة فحل.

النتائج المستقبلية، والمتوقعة توجز لنا كل التعاملات الصعبة والتصرفات المتحولة إلى ذكاء أبله!

كانت تؤمن بأننا شعب يقدّس ما بين الفخذين ويوليه اهتماماً خاصاً، لست وحدي من فعل هذه الفعلة، فكل الشباب والفتيات يقعن فرائس سهلة للخدم والسائقين، في بقعتنا الجغرافية هكذا نحن.

في حضور الرغبة دوماً نقف على حدود الضعف، نتوشّح عباءة العري، ونؤول إلى قطع متسمّرة بين حائطين من اللذة والضعف!

رأيتها تتزيّن في غرفتها التي وضعت خصيصاً لها، وكأنها

تتزيّن لي، وأنا عريسها المنتظر. قمة القهر عندما تنتظر الفرج من أيدي غيرك، وروح المأساة حين يكون الفارق بعد كون بأكمله. وبينما هي تتزيّن دخلتُ عليها في وقت متأخر من الليل، في ذات الوقت الذي يستحيل هو فيه وحشاً كاسراً، يلتهم لحم أمي بكل شراهة، وكأنه جراد وقع على قطعة أرض مفروشة بالخضرة، بعد شهور من ممارسة الترحال الممل، رأتني فابتسمت، لم أكن لأباغتها بطلبي؛ في التعامل الفذّ، يجب أن يكون التدرج أول معول تحاول به هدم نظيرك، هكذا تعلمت، ليس كما يفعل أبناء الصحراء، همجية مفرطة هي تصرفاتهم، وتعامل أخرق حياتهم، ليس لفن التعامل حيّز من حياة عاشوها وسيعيشونها أبد الدهر. قلت لها بعد أن بدت ابتسامة صافية على محياي «ريحانة، أبي شاهي تسوين لي» لم تكن غبية لدرجة تحريك الرأس، والابتسامة البلهاء كعمال النظافة، فقد كانت تعمل قبل مجيئها إلينا في الرياض عند إحدى الأسر الثرية، وكانت تعرف كل الأساليب التي ستؤدي بي إلى جحرها الذي امتلأ ماءً، هذا ما قالته لي بعد أن سكبت مائي بعيداً عن ذلك الجحر خوف ما سيترتب عليه من معضلة كبرى!!

قالت لي:

ـ أوكي، شوية أنا في سوي.

ـ خلاص جيبيه لي غرفتي.

أخذت أنط من الفرحة. ذهبت إلى غرفتي وبدأت أرتّب

كل المراسم التي ستساعدني على المضاجعة المبهجة. تأكدتُ من وجود المفتاح في ثقب الباب، دخلتُ واغتسلتُ. عندما يشعر المرء بأنه سعيد، فأول ما سيقوم به الاغتسال، خوف تعفن سعادته وكيلا تتلف رائحة السعادة برائحته النتنة، ورششت من عطر «زهرة الكاميليا» الذي اقتنيته من محل «زهور الريف»، الذي كان ينفذ بسرعة خارقة. في بداية الأمر لم أكن أعرف أين يذهب هذا العطر، وأين يتسرّب؟ وبعد مرور أيام عديدة اكتشفت أن «ميسون» تتعطّر منه حين كانت تذهب لملاقاة «حسن»...!

لم أنفك بعد من تذكر فلسفة «عدنان» في أمور الجنس. هذه المرة غابت كل تلك الفلسفة التي كان يطلقها في كل الاتجاهات، آآآآه يا عدنان لماذا تملّصت مني في هذه اللحظة بالذات، لم أتذكّر ولم أذكر شيئاً من خرافات هذا الأخرق المدعو «عدنان»، لعنة اللّه عليك يا عدنان، لماذا خنتني في تلك اللحظة بالذات...

نظرة استغراب تعلو وجهي، كانت تعلو وجهي حين وصل إلى هذه الجملة، هو الإنسان المتذمّر من رؤية عدنان أصلاً قلت له:

ـ هل يدلّ هذا على أنك تؤمن بكل ما يقوله عدنان...؟!

ـ الكلام وإن كان غير صحيح في بعض الأحيان تهذيبه بالشكل المطلوب يشلّ عقلية متلقيه، أنا كذلك وددتُ أن أرهق عقليتي كي لا أتلعثم في تصرفاتي مع ريحانة...

ـ لكن إن كنت مشلول الفكر فلن تقول شيئاً حسناً. . .

ـ أحياناً يكون شلل الفكر مدعاة للصمت، والصمت أفضل هروب. . .

لم يتركني أوغل في أسئلتي، وكمن يجلس بمفرده، استطرد: «عندها سمعتُ صوت طرق خفيف على الباب، سمعت صوتاً ناعماً يأتي من خلفه ينساب من ثقب الباب بهدوء. عرفت بأن ريحانة خلفه، عندها ظهر أمامي عدنان فجأة قائلاً: (النساء كائنات متمنعة، محرضات على شبق الرجل فكن شبقاً!!)» لسبب لا أعرفه ظهر عدنان أمامي في تلك اللحظة، لم يكن مني إلّا أن قلت لنفسي جملاً غبية حدّ الاستهلاك، لماذا ظهرت يا عدنان الآن. . .؟ اذهب يا ابن القحبة، قبحك اللّه من رجل، لا تعرف إلّا عته النقد، أين أنت من أخيك «حامد» حينما مات غيظاً وكمداً، وتشفياً من أبيك. . .؟! ذلك الشاب الذي قارن بين الحرية والإذعان، وفاز بشرف التمرد، أين أنت. . .؟

ـ أدخلي. . .

هكذا قلت عندما سمعت صوتها، فدخلت ذات الأنف الأفطس، وهي تحمل بين يديها كوباً من الشاي، وقليلاً من المكسرات، لماذا كل هذه الرفاهية. . .؟ لقد صدق عدنان عندما قال: «عندما تغدق المرأة على الرجل بالرفاهية، فهي تريد أن تسلب منه شيئاً ما. . .!» رققتُ كلماتي وأنا أقول «ريحانة صكي الباب خلفك. . .» ابتسمت ابتسامة خبيثة،

ووضعت كوب الشاي أمامي وطبق المكسرات وانحنت انحناءة مغرية، حتى بانت خيوط ملابسها الداخلية، وسارت إلى أن أقفلت الباب. . . لم أتكلف في مراودتها، كانت تعلم مبتغاي، وكنت أعلم بأنها على دراية بكل ما يتنزّه في خاطري، إن الإنسان مسكون بدافع الشهوة دوماً، جسدان بين أربعة حيطان، لا يفرّق بينهما إلا خيوط من ملابس. المرأة والرجل عندما يصيران خلف الحيطان، يصبحان حيوانات ناطقة، فكم من رجل استحال إلى كلب مسعور خلف حائط ما. . .؟! وكم من امرأة صارت قطة قذرة خلف جدار مجهول. . .؟! حين نرتهن لما بين أرجلنا وتغيب عقولنا في العتمة بين تلك الفتحات ذات الروائح المتعفنة، فإن الحيوانية أقرب منا من الإنسانية. . .!

إقتربتُ منها ووضعت يدي على صدرها المتوتر من فوق ملابسها، ونظرة الأنفة بادية على محياي، كأنها أمة وأنا سيّدها. اقتربت منها أكثر حتى ألصق صدري بصدرها، وشرعت في حل ملابسها من الخلف، ولم أدرِ إلّا بأنفاس حارة تقتربُ من رقبتي، وشفتان تقبّلان رقبتي بلذّة، بدأ يتوتر جسمي كله، وبدأت معالم النشوة تفرض سيطرتها على جسدي، بدأنا نعيش الجو الآخر، ودخلنا في دهاليز شبقنا سريعاً، نظراً لحرماننا المركب من هذه العادة التي لا يمارسها في بلادنا إلّا المتزوجون!!

في كل شيء الحرمان أسهل طريقة لارتكاب المحظورات.

وكما امرأة وجدت ابنها بعد سنين فراق طويلة رأيت أنا «ريحانة»، لم تكن بذلك الجمال الآسر، لكنها كانت تمتلك ما عجزت عن توفيره في عقر داري، جحر وجبلان عارمان، وصوت أنثوي، وتأوهات مغرية، هذا ما كنت أفتقده، الفقد شعور بالحرمان يخالطه بحث عن الشبه، رضى النفس في هذا الفقد، بأن ترى كل ما يمتلك نفس السياقات، حتى في تصاوير مختلفة. . . !

ككل ذكور الشعب السعودي كنتُ. . .

نبحث عن الماء الغريزي المنساب من الجحور النتنة. لحسن الحظ لم تكن آنذاك في دورتها الشهرية المقرفة، والمقزّزة، لا أدري لماذا النساء يشعرن بالغرور في بعض الأحيان وهنّ على قدرة عالية من رسم العفن في فترة محدّدة من كل شهر. . .؟! قذارة تسير على التراب، قذارة فوق قذارة، ترادف النتن، يعطي الحياة بُعداً أخرس. . .! لكن عند انجلاء غبار الدورة الشهرية، يصبحن أشهى أكل يفضّله الرجال.

بدأت تظهر عليَّ عوامل الانفعال، وتبدّت عروق أشلائي، كأي رجل ساخط، الذكر أشبه بالرجل في انتصابه، وتعرّقه، فهو ينتصب بسهولة، ويتقلّص بنفس الطابع في انتصابه. . .! وسعت بين رجليها فبدا كأنه جحر ضب، تحفّه الشجيرات وهو غائر في بطن الجسد. بدءاً كنت في مرحلة من التقزز واللااشتهاء، حين تهمل المرأة منطقة ما بين فخذيها فهي

حمقاء، هو السلاح الذي تجابه به سخط الذكورة، وثورتها، وهو أسهل طريق للوصول إلى عقل رجل راشد...!

لا أدري لماذا تذكّرت حديث «ممدوح» هذا اليوم بالذات، ولا أدري لماذا أشعر بأني مضطر لقوله هنا، أشياء كثيرة لا أعرف لماذا صرتُ أهذي بها، لكنها السياقات ترفض إلّا أن تأتي مع بعضها البعض...

ـ هذه خمّارة الخوري...

أتذكر أن عدنان هكذا صاح حين دخلنا «معان». فقد كانت هذه الخمارة ـ خمارة الخوري ـ إحدى أجود الخمارات، لبيع المشروبات الروحية والمسكرات المعتقة، التي لا تجدها في أي مكان آخر...

قطع عليَّ عدنان حبل أفكاري، دائماً يفعلها، هو الفيلسوف العارف بكل شيء، آآآآآه يا رأسي... (عندما تكون الفلسفة كلمات، فالإنسان حالة صوتية مؤقتة)...!

الشتاء

عندما نمضغ أفكارنا بعيداً نموت

تناثرت القرى كحبات جدري على جسد امرأة خمسينية. الصخب يملأ أرجاء المقصورة، وعدنان يتمايل كمومس في أحد الملاهي الليلية. وهناك من بعيد بدت منازل مدينة معان تبدي رؤوسها كفتاة ترقب حبيبها في جنح الليل تطلّ برأسها تارة وتختبىء تارة وراء نافذة. الحياة في مدينة «معان» بدائية، والطرقات معبّدة بعشوائية كطفل يجاهد في الكتابة دون أدنى تقدّم. الفرح مالىء صدور الشلة حتى الثمالة، وكل منهم يرسم خططاً مستقبلية عن أهم الصراعات على بعد 500 كيلومتر، وثمة بارق يلوح في الأفق، إنه الجنس. كلنا إن أردنا أن نصل إلى نقطة التقاء فسيكون الجنس هو الجامع بيننا. شعورنا بالحرمان والكبت في ديارنا ولّد فينا ردة فعل عكسية، لم يخطىء نيوتن عندما قال «لكل فعل ردة فعل مساوية له في القيمة ومعاكسة له في الاتجاه» هنالك حيث الكبت، نرى أجساد النساء كأكلة ورق العنب ملفوفة بإحكام في العباءات السوداء. في ديارنا يقدّسون اللون الأسود في لبس العباءة، لا أدري لماذا ثار الناس هناك عندما رأوا

بعض الفتيات يلبسن عباءات مزركشة، رسم عليها بعض الرسوم...؟! هن لم يبدين شيئاً من تضاريس أجسادهن أبداً، فلماذا ثار المجتمع إذن...؟!

يا لك من فيلسوف يا عدنان فعلاً لقد صدق حينما قال:

ـ في كل شيء التزمت هو الطبع الغالب على التحرر...!

إذا كانت الثورة لمجرد عباءة مزركشة، فماذا سيحصل لو كان ثمة إبراز لمعالم الجسد...؟ وابتزاز لكبر النهدين، ورطوبة ما بين الفخذين...؟

عندما يكون الشكل هو الهاجس، فالباطن أمر غير قابل للمساومة...!

ـ ما رأيكم هل نتناول الغداء هنا أم في عمان...؟

هكذا قلت حين وجدتُ أن الصخب قد هدأ كسيل في نهاية أداء واجبه الطبيعي. مشكلة حينما تعترض الصخب مندفعاً، وكأنك عصفور ارتمى في طريق سيارة أمعنت في سرعتها وتهورها، ليس إلّا الموت ها هنا يقف...!

هل قلت سيارة...؟ وهل قلت سرعة وتهوراً...؟ وهل قلت موتاً...؟، مساكين أولئك المفحطون، فعلاً مساكين، لأنهم يتربّعون على الموت في قالب يسير بأرجل دائرية. بعضهم يموت في اليوم ثمانين ميتة، ولكن أليس الدافع هو السبب وراء لهثهم إلى الموت...؟! أنا لا ألوم أولئك المخطئين حين ينتمون إلى أخطائهم من وازع الدافع. ماذا كان يفعل «حامد» إذن عندما كان يفحط...؟! كان يعيش

حياته وهو يأكل من حشائش الموت كشاة تأكل، وهي على دراية بأنها ستُقاد إلى المسلخ. . .

في ذلك اليوم دمعت عيني، عندما قال لنا عدنان قصة أخيه «حامد»:

ـ آباؤنا وأمهاتنا يعيشون في مستنقع من التخلف، ويفكّرون من بؤرة التحجر!

أنهى عدنان ذكر قصة أخيه بهذه العبارة عندما حكاها لنا، بكل تفاصيلها الدقيقة، فبينما نحن جالسون في «دمج» على دلّة قهوة، والبراد في وسطه الماء يتراقص غلياناً وسط النار المستعرة، كان الليل يرخي سدوله على المكان، وكانت نسمات الهواء البارد تلفح صفحات وجوهنا، ككل ليالي «تبوك» الصيفية. في الصيف تكون تبوك أقرب منها إلى دول أوروبا ليلاً، حيث تهبّ نسائم الليل، وتعطي جلودنا نفحة من برودة جميلة، وتأخذ أنفاسنا قسطاً عظيماً من الراحة. بعد نهار من الدراسة المملّة والمضنية، تقاربنا إلى بعضنا البعض على بساط مهترىء؛ كنا مجموعة أردنا الهروب من ضوضاء المدينة، وصخبها المقزّز، الصخب في بلادنا أشبه بصفارة العسّة قديماً، فيها من النشاز والقبح الشيء الكثير. هربنا إلى أطراف المدينة كي نمارس طقوس شبابنا بعيداً عن مجتمع لا يأبه إلى تقسيمات النمو ومعالم كل مرحلة، أحياناً يكون الهروب هو الحل الأمثل، عندما تكون الحلول مجرد عبث حياتي.

تذكّر عدنان أخاه فخمش الحزن وجهه، ووسم عليه وشمه، بعدما كان شعلة من النقد اللاذع، والفلسفة المبطنة بالفكاهة، عندما سأله «عارف»:

ـ عدنان ما بك...؟

ـ هناك حيث الحزن ترتكز الكثير من الجنايات...!

لم أكن أعرف كيف يفلسف عدنان عباراته. كنتُ معه في معركة خفية، كنت أحب لذعه، لكن أكثر ما كان يقزّزني نظرته التشاؤمية للحياة والناس. غدا في نظري كائناً حقدياً متجبّراً حدّ الموت، عندما قال هذه العبارة وهو يمزّ من سيجارته، ويودعها رئتيه اللتين أحبلتا دخاناً، وكأنها آخر سيجارة في هذا الكون. توسّم عارف بدهاء الأصدقاء أنه مستاء وحزين فعلاً فقال:

ـ عدنان لا تحاول قلب أجوائنا، وإن كان ثمة ما يحزنك فنحن رفاقك وبإمكاننا سماعك ومساعدتك...

نظر عدنان إلى عارف نظرة باردة، وقال:

ـ عندما يكون ثمة بريق للمساعدة، فالأمل لن يتوانى في الدخول إلى سراديب الحزن، أما إن كانت المساعدة هراء، فلن يتجرأ الأمل أن يتدخل، ولن يعرّض نفسه للتهلكة!

كنت على ثقة بأن ما يحزن عدنان أمر بالغ العظم، لأنه لا يسكت إلّا لعامل أكبر من حجم فلسفته هو الذي كان يقول دائماً:

ـ بكلامي، أستطيع أن أبعثر كل العالم في نظري حتى

المبادىء...!

تنهّد عدنان تلك الليلة وقال:

ـ تذكّرت حامد، إنه العطاء، حقاً ملك من اسمه نصيباً كبيراً هو الـ «مد»...!

يومها أسرع تركي في محاولة منه لاستنطاق عدنان، هو الوحيد الذي لا يعرف قصة حامد، وكان دائماً ما يود أن يعرف تفاصيلها الدقيقة فقال:

ـ هل بإمكانك أن تقول لنا القصة؟

ـ سأقولها... لكن لن تستفيد منها شيئاً أنت بالذات؛ لأن مركز الشعور في ذاتك قد تلف...

وتبسّم... لكنه أمسك ضحكته من طرفها الأخير وقال:

ـ حامد أخي الذي يكبرني بسنتين، مذ كنا أطفالاً كان يحب قيادة الدراجات الهوائية بشغف طفولي بريء، وكان يبدع في التفحيط والتلاعب بها كما يريد، حتى عُرف في حارتنا القديمة بهذه الميزة، مذ كان صغيراً كانت معالم التشرّد منحوتة على محياه، الكاتات ـ كل الكاتات ـ آلات يصوغها الزمن لمآربه. كان يهوى الدراجة الهوائية بشكل ملفت، حتى أنها أصبحت تشغله عن دراسته، وأكله ونومه. وكل الأشياء التي اعتدناها في روتين حياتنا الرتيب ذاك، تملك قلوب بنات حارتنا الصغيرات آنذاك، بفعل اختزاله لحركات لا يجيدها إلّا هو، فكن يتضاحكن عندما يمرّ بدراجته ويرونه كعدّاء أفريقي في ماراثون، ويتهامسن فيما

بينهن: «أنا راح أتزوجه لمّن يكبر!»، النسوة شياطين صغيرة!

أليس من المجحف أن يكون رصيدك الجميل في الحياة خمس كلمات...؟ وكيف يمكن أن تكمّل دورة حياتك وأنت تتمتّع بخمس كلمات برّاقة فقط...؟ خمس كلمات كانت إرث حامد الجميل في حياته، وهذه الخمس كلمات هي النقاط البيضاء في كنزة حياته السوداء، سواد حالك يطمس معالم حياته، ويوازيها بالعتمة، ويقذف بها في أدقع الظلم احتلاكاً، ويقصيها في أوج شرور الحياة، حيث حامد كان هنالك بريق للمأساة، وعنف للتسلط، ورحابة بلا مثيل لها من البؤس، وأمل الشقاء في تقاسيم حياته. إنه الأبيض المسوّد، إنه الحمامة المتغربة، عتمة تغور في عمق الحدث المأساوي الدنيء، وشتات يتمزّق تحت وطأة التجاهل، وبعثرة رمادية اللون. حامد كان له من اسمه نصيب، هو في واقعه يتلظّى فوق حرارة السياسة الأسرية الظالمة، وحريق الاستبداد اللامنصف، كم كنت حامداً يا حامد!

مرّ من سيجارته وأكمل:

ـ كبر حامد، وكبرت معه معاناته. أب لا يفقه من أصول التربية شيئاً، وأم كباقي أمهات العالم لا همَّ لهن إلّا البكاء، كم هنّ ضعيفات وغبيات. البكاء أسهل حل لمأساة شخص في نظرهن، والبكاء هو أول حل، حين تكون الحلول مجرد حل واحد يصل هرمية الحلول في أول وهلة؛ فالحلول مجرد عبارات تقذفها الألسن بكل سذاجة. عالمنا العربي في كل

تفاصيل موقعه الجغرافي يركن إلى حل واحد، هو أسهل حل وأول حل، السكوت، والضعف والتقديس، والبكاء تحت الأقدام كالجواري يا لنا من ضعفاء...!

امتدّ عمر حامد الزمني وبدأت معه موهبته في التمدد، إلى أن أتقن قيادة السيارة بنفس الطابع من موهبته في قيادة الدراجة الهوائية، الحياة تكرار ملفّق والزمن، بعد عدة سرقات لسيارة أبي، صار يجيد فن السرقة إلى أبعد من مدى التصوّر. وفي يوم وأثناء إحدى رحلاته بسيارة الوالد، كان فيها يبدع في رسم انحناءات السيارة ويتقن شقلبتها على الإسفلت، فقد امتحن التفحيط، كما امتهن السرقة؛ كله من أجل لفت انتباه المراهقين الذين كانوا يمارون النساء في جمالهم، فقد أحاط بعقولهم من كل جانب، وأصبح حديثهم في كل مجلس، كما كان كلمات تلوكها بنات حارتنا الصغيرات على ألسنتهن فيما مضى. أبت الحياة إلّا أن تعيد نفسها، فلما كان نقطة إعجاب وهو صغير في عيون أقرانه بكل براءة، هو الآن بؤرة إعجاب في أعين المراهقين ـ الذين يحاولون التقرّب منه والتبرّك به كالحجر الأسود في عرف المسلمين ـ بكل دناءة.

انقلبت به السيارة في ذلك اليوم، وهو سادرٌ في تفحيطه، ولكنه خرج من تحت أنقاض السيارة سليماً معافى، فلم يصبه أي مكروه. علم أبي بما حدث، فأطلق عليه وبالاً من الألفاظ المشينة. التي تهرب من الآداب، وتنفر من التربية

الصحيحة، هناك حيث عدم المقدرة على ضبط النفس تتشرّد كل القيم النبيلة. كان الوالد إنساناً منسلخاً من كل المبادىء التربوية الحسنة، يوم لا ينفع ندم، ولا حسرة، قال له:

ـ اطلع برى، اللي مثلك ما أتشرف يكون ولدي. . .

كلمات لم تصل إلى حدّ الدرزن، كانت سبباً في هذيان التصرفات. شاب في أواسط العقد الثاني من عمره تشتت بفعل كلمات لم تصل إلى حدّ العشر كلمات في عددها، كل الأيام جميلة إلّا تلك التي تشي بالتشتت، وكل الثواني برّاقة إلّا تلك التي تهيم في فضاء اللاعقل.

أصعب مواقف الحياة هي تلك المواقف التي يكون فيها المرء غريماً لذاته!

بدأت سلسلة الأيام تنتثر، وبدأ معها التشرد. أصبح حامد كائناً وحشياً مشرّداً، يعيش وفق نظام الغاب، يبحث عن عيشه بيده الطائشة التي لا تفتأ في العالم فساداً.

الحياة كلها ضوء إلّا في لحظة أن يبلغ فيها الضوء مداه، ويعود خاسئاً، وتستحيل الحياة إلى عتمة؛ استشعار العتمة هو الخلاص والهرب إلى أقصى اتجاهات الكون حيث لا نبرة حياة، وحيث لا تأرجح بين تلك القيم!

عاش حامد حياته فيما بعد مشرّداً بين البيوت والمنازل، والطرقات، ومقصورات السيارات؛ لكم أن تتخيلوا إنساناً يعيش بين مقصورات السيارات، وتحتها وبجانبها. إن الإنسان حين لا يجد مكاناً ينام فيه، فإنه سيمتهن جسده

لدرجة لا يستطيع العقل تصديقها. كانت أمي دائماً ما ترسلني في طلبه وفي كل مرة أقابله فيها كان يقول لي:

ـ الناس دنس، دائماً يحاولون إبراز قيمهم الفاضلة، لكنهم في لحظة ما يظهرون على ضفاف روحهم الدنسة لتبطش بهم خساستهم التي كثيراً ما حاولوا إخفاءها!

حاولت أن أثنيه عن هذا التشرد، وعن هذه الحياة الأشبه بحياة الدواب التي لا تعقل، ولكنه كان يعلق قائلاً:

ـ العيش حيث لا رقيب، أفضل من عيش الملوك، حتى وإن كنت تحت أقدام الفضائل!!

كنت كثيراً ما أسمع عنه، وأنه في صولة من صولاته في دنيا التفحيط التي لا تنتهي. أذهب فأراه مستمتعاً بالعبث الذي يعيشه. كانت له شعبية تفوق شعبية الفنانين الشعبيين في المنطقة. الكل كان يعرفه. امتدّ هذا الصيت معه حتى تبدّد. كنت كثيراً ما أقابله وأنقده مبالغ أخذها من الوالدة، فكان يبكي حينما أقول له هذه من عند أمي، كان يشعر بفتك عظيم في ثناياه، وكان يطلب مني أن ألتقيه في أي مكان مصطحباً معي أمي، كي يراها، ويسلّم عليها، كانا يتعانقان كثيراً ويبكيان أكثر، وينزل إلى قدميها يقبّلهما، ويقبل كل عضو بارز فيها. كان قديساً في حضورها، راهباً في تعامله معها، متطرّفاً في حبها، كان يجلس في حضنها كالطفل لساعات وتتوسّله أن يعود، لكنه يصرّ على العيش بعيداً،

حيث لا رقابة ولا رقيب، لا يريد أن يكون أسير الأوامر، ولا يريد أن يحيا حياة المعتقلات، فقد كان يقول:

ـ مجتمعنا معتقل كبير جداً يحيط به الحرّاس من كل ناحية؛ فاز وربح من حاول الخلاص دون أن يلمحه الحرّاس. . . !

وفي إحدى الليالي الماطرة بعد أن تأهّل المنتخب السعودي إلى الأدوار النهائية من بطولة الأمم الآسيوية، كان كل شباب «تبوك» على موعد مع حامد، بعد انتهاء المباراة. وبعد أن فاز المنتخب، اتجه الجميع لمخطط «الريان» بعيداً عن ضجّة المدينة وضوضائها. يومٌ لم يُذكر فيه إلا اسم حامد، لم يتطرّقوا إلّا للثناء على إبداعه في هذا الفن حسبما يرون، حتى أن أحدهم قال لي يومها وهو يضحك:

ـ الحين تشوف أخوك وش يسوي مهوب أنت!!

إنطلقنا ولم يخطر ببالي يوماً أنني سأكون شاهداً على مأساة الخاسر الأوحد فيها أنا، كان الإسفلت مبتلاً، وكانت السيارات تتراكض بهدوء مكوّنة مسيرة عظيمة، لا ترى فيها إلّا أنوار السيارات وصوت الأغاني وهي تنداح في الفضاء تشكّل نشازاً في تداخلها. أغبياء نحن، يفوز غيرنا ونحن نسعد!!، لا زلت أذكر الأغاني وهي تزغرد في المدى، ولا زلت أتذكّر الشباب وهم يتراقصون أمام تلك المسيرة بشغف طفولي أبله. كان صوت راشد الماجد يأتيني وأنا مرتخٍ على مقعد السيارة بهدوء الملوك، كان يقول:

(يا سلامي عليكم يالسعودية...

يا ديار الشيم يا دار الأبطالي...

يالسعودي نحيي روحك الحية...

أشهد إنك عظيم وطيب الغالي...)

وهناك من بعيد عبادي الجوهر يتغنّى:

(جاكم الإعصار ما شي يعيقه...

منتخباً اليوم وخر عن طريقه...

هـذا الأخـضـر لـلـعـب...

جـهـزوا كـاس الـذهـب...)

وأنا رابض على مقعد السيارة شاهراً ابتسامة رقيقة، وغروراً داخلياً يشوبه نوع من القلق. وصلنا إلى المكان المحدّد، والأنوار ليست بذات القوة والوضوح، وبين لحظة وأخرى تخرج سيارة من بين أكوام السيارات المتراصّة في تكدّس همجي، فيتلاعب بها صاحبها كيفما اتفق.

لم يحضر حامد كعادته إلّا متأخراً. حينما أتى وهو يستقل سيارة «كامري» كان لمحل إيجار السيارات الفضل بعد الله في ركوبها. فقد كان أبناء أثرياء البلد يستأجرون السيارات ويقدّمونها له شريطة أن يركبوا معه وهو «يفحط»، هكذا كان ديدنهم، وهكذا كانت حياتهم، هي بذخ، وإسراف، ورؤى سطحية لمتعة مأساوية...

كنت أنظر إلى شفتي عدنان وهو يسرد واستمتاع يغمرني من جرّاء سماع هذا السرد الذي سمعته قبل هذا كثيراً.

أحياناً تكون الروايات من المتعة بحيث نعيد سماعها أكثر من مرة دونما ملل، قلت له ذلك اليوم وهو مسترسل في ذكر هذه القصة:

ـ كل متع الحياة في الأخير تستحيل إلى مأساة...!

نظر إليَّ عدنان وهو يبتسم وكأنما أحسّ بوجود من يتابعه بلهفة، وقال:

ـ الحياة هي الحياة، الحياة أن تحياها بكل تفاصيلها الدقيقة...!

واستطرد..

بدأ الهتاف يجول في الفضاء، وبدأ التهامس يفوح. شعرت ذلك المساء بأنني ضحية مؤامرة قدرية ضخمة، «جاء حامد»... «حامد وصل».

رأيته وقد غطّى وجهه بشماغ كان فوق رأسه ومجموعة من المراهقين. الذين تشاركوا في ملامح أخواتهم، وبدأ مسلسل المأساة، وكأي مهندس معماري أو رسام كروكي أخذ يخطط الشارع، كانت علاقته بالشارع علاقة ضمنية تحتّم الإبداع في رسم البسمة على وجوه المتجمهرين. وبعد الجولة الأولى هدأ، ليأخذ نفساً من سيجارته، فأوقف سيارته جانباً، وتجمّع حوله عدد كبير من المعجبين، بعضهم أخذ يلتقط له صوراً من كاميرا هاتفه النقّال. ذهبت إليه، وانفردت به بعيداً عن هذا الجمع، وأخذت أقلّب معه الأحاديث بشوق لم أعهده من قبل، فقال:

ـ غداً إن شاء اللّه أريد مقابلة أمي. . .

ـ إن شاء اللّه بعد العصر. . .

ـ حسناً سأذهب لألهو قليلاً، وسنذهب للعشاء اليوم سوياً بعد أن أنقضي من مهمتي هذه. . .

ـ أنا هنا سأتابعك. . .

فأشار بيده لي وهو يسير متجهاً إلى سيارته، وأعاد الكرة مرة أخرى، وأخذ يتلاعب بسيارته كصلصال بيد طفل. كان كالعاهرة حينما تتثنى بجسدها أمام الجمهور بحثاً عن المال، لا فرق بينهما، كان بحثه عن المراهقين، كالمومس في بحثها عن المال. ابتزاز للقيم عاش، حياته كانت أشبه بدور البغاء. انسلاخ من المبادىء السمحة بشكل علني. حياته تتوقّف على لعنة مراهق، يقضي معه ليلة بأكملها على بقايا أشلاء من جسد، ومتعة تغادر فيها الروح سماءها.

وبينما كان يفحط، انفجرت أحد إطارات سيارته، وأخذت تتلاعب به دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً، في لحظة لن يكون فيها إلّا اللّه هو المنقذ؛ انقلبت السيارة على الجهة التي كان يقبع فيها، وتقلّبت عدة مرات وما أن استقرّت حتى وقف عليها جمع غفير وهم يصرخون ولم أدرِ بنفسي إلّا وأنا أركض كالمجنون وأصيح (أخووووووووووي). . .

رفعنا السيارة، وأخرجناه منها. ما يجعلني أتذكّر تلك الحادثة بل تفاصيلها الدقيقة أنه كان وقت استلاله من تحت أنقاض السيارة بلا يد، يده تلك التي أشار لي بها فارقته

لتسكن بجانبه، لا تود أن تذهب للموت براحتها، اعتراض في وجه القدر، كان الدمع يجري على وجهه دون توقف، لا أدري لماذا كان يبكي...؟! هل هو خوف أم شعور بالذنب...؟! أم أن الحياة اضمحلت في نظرته لتغدو وخزة عظمى تشعره بسخف الحياة التي كان يعيشها...؟

لم يمهله الألم كي يتنفّس، أخذ يتأوّه بطريقة هادئة، وأخذ ينتفض في مكانه، فقال أحدهم:

ـ إنه يحتضر لقّنوه الشهادة...

فأخذت ألقّنه الشهادة وهو يقول:

ـ عدنان سلّم على أمي واخواني...

فقلت له:

ـ أبشر... لكن قل، لا إلّه إلّا اللّه، محمد رسول اللّه...

فقال:

ـ يا أخي لن أموت... سلّم لي على أمي وأخواني...

ـ أعرف بأنك لن تموت لكن قلها...

تنهّد بقوة وقال:

ـ لو قلتها سترتاح...

ـ نعم قلها فقط...

ـ أبوي... أبوي...

هكذا كان يقول... وهو ينتفض، فقال أحد الموجودين:

ـ لنأخذه للمستشفى...

فقلت له ونحن نحمله إلى إحدى السيارات:

ـ ما به أبي. . .؟

حاول أن يتكلم لكنه لم يستطع، رأيت في وجهه علامات الحقد الدفين، وتسربات حياة التشرد، لكنني سمعته يتمتم كآخر كلمة سمعتها منه في حياته:

ـ أبوي مات. . . أبوي مات. . .

وهمد، ولم أسمع له صوتاً بعد ذلك. . .

توفّي حامد، وبوفاته ذهبت معه كل أفكار التشرّد التي كنت أفكر فيها. حينما نرى المشرّدين نعيش معهم بأفكار تخالج شعورنا، التشرّد مقامرة كبرى، في طرفها أحد خاسر خسارة جمّة، وفي الطرف الآخر رابح يعلم بأن دخوله في هذه اللعبة خطأ. حياتنا بأكملها بيع غرر عظيم، امتهان لقوى الإنسان، وتجنٍّ على معالي السماحة، وتشرذم لا بأس به من الأجساد، وأفكار مهترئة وموبوءة. كل تفاصيل الكون أشبه بلعبة في متناول طفل تستحيل إلى ماهيات مختلفة، وهو لا يدرك قيمة هذه الماهيات، ولا يستطيع أن يعيدها إلى أصلها. . .!

مات حامد وماتت معه أحاديثه التي كانت حكاية الناس. في جانب القهر الأعظم هنالك حيث يكون الفعل الماضي في أحرف قليلة جداً، فكيف يجمع الماضي كله في حيّز ضيق من الكلمات؟ غريبة هذه اللغة تجمع الحياة في كلمة واحدة،

وتنفيها في كلمة، كذب من يقول بأن الحياة كلمة واحدة، فهل البشر من السهولة أن نجمعهم في كلمة؟!

ليتني لم أتعلّم اللغة...!

في عصر اليوم التالي للحادثة، اجتمعنا أنا وهو بأمي، لكنه كان جسداً خامداً، جثة مسجاة، وإلى يمينه يده التي فارقته، كأنها تريد أن تعيش حياتها بعيداً عن التشرد، وكأنها تريد أن تحيا من جديد خلفاً لحياة أشبه بحياة القطط والفئران والدود. عندما تفارقنا أعضاؤنا فهذا تمام العقل، لأنها لا تريد العيش. ونحن، فلنحاول أن نربّي أعضاءنا بعيداً عن الإجحاف بها، وخارجاً عن قدرتها الأخّاذة، الموغلة في العظم، أعضاؤنا أناس يتحرّكون بمشيئتنا وحينما يبلغ إجحافنا بها حدّه سنهرب بعيداً عنا حيث الهدوء، والصخب في آن، فرفقاً بأعضائكم أيها البشر.

رفعت أمي عنه كفنه من قبالة وجهه، وقبّلت جبينه البارد، وأعادت ذلك الغطاء، وهي تغور في أعماق الحزن بعنف. كان موته بالنسبة لها حدثاً أعظم، موتنا وحياتنا كأكلنا وشربنا، فنحن نأكل أول النهار، ليأتي أول الليل لنتغوّط ما أكلناه!

أقمنا العزاء كواجب لا بدّ من تأديته. ولأول مرة أرى الدموع تترقرق من عيني أبي، كان في قمة التأثر، فلقد كان حامد بكره، وبكر هذه العائلة.

الارتجاج يحدث حينما يكون رأس الهرم عضواً فاسداً يجب استئصاله...!

بعد أسبوع عادت الحياة من جديد لتدبّ في أشلائنا، وتعود البسمة خاسئة إلى تقاسيم وجوهنا حين ذهبت حيث لا أحد، مسكينة تلك الأرواح الذاهبة، فهي تذهب على دمع غزير مزيّف، لأنه أسهل دمع يتيبّس...!

* * *

بدأ الهدوء واضحاً على وجوه الأصدقاء، ساعد هذا الهدوء في التذكّر، حتى نطق ممدوح:

ـ مساكين نحن نفرح ونحن نهرب من حقيقتنا، وبعيدون عن أهالينا...!

حدجه عدنان بنظرة توحي بالسخرية وقال:

ـ البعد والغربة أن تعيش في مجتمع لا تنتسب له إلّا اسماً...!

أدركت حينها أن عدنان وصل إلى مرحلة يريد فيها التسربل والعنف. وبدأ الامتعاض واضحاً على وجه ممدوح، عندها آثرت أن أخلق جواً من الفكاهة، فأمرت ممدوح بزيادة صوت جهاز التسجيل، وإذا بصوت كاظم الساهر يخرج:

(مشتاااااق... مشتااااااااق... مشتاق ومضنيني الفراااق.... مشتاااق).

فبدأت أتمايل أمام عدنان، وإذا به يدخل معي في نفق عظيم من التمايل، وأخذ يلوح بيديه، ويهزّ رأسه كدجاجة تسرع في مشيتها، وأنا أصيح بأعلى صوتي:

«أحلى تحية لعدنان بغيابه»... فينظر إليّ وهو يضحك بهستيريا...

نعم لقد كان غائباً بالفعل...!

السكر طرب الأنا

لم يخرج تركي من نوبة سرحانة إلّا على الخط السريع الموصل لعمان. السيارة تجلد ظهر الإسفلت بإطاراتها. كانت اللوحات الإعلانية عن يمين الشارع ويساره توحي بقبح مبطّن، هو الابتزاز المؤدب، ما أكبر اللوحات، وما أكثرها، وما أعظمها من سرقة مؤدبة. وبينما كانت السيارة تجاهد في جريانها، إذ بسيارة تمرّ بجانبنا كانت تقل فتاتين، إحداهن تقود السيارة، والأخرى مستلقية في المقعد المجاور وقد وضعت نظارة شمسية على وجهها مخافة أشعة الشمس. دائماً أشعر بأن النساء كائنات رقيقة حتى في تركيبة جلودهن، أدنى الأشياء تؤثر في بشرتهن، هن أشبه بالأوراق الشفافة، الكتابة عليها بقوة تمزّقها، والرفق بها يحليها الكتابة عليها جمالاً آسراً، عندما رأيتهما لم أتمالك نفسي وقلت لممدوح:

ـ إلحق بهن، فبجمالهن يقصر الطريق، وربما نخطف صداقتهما بنظرة أو ابتسامة.

عندها صاح عدنان، كمن صعقه ماس كهربائي:

ـ الأمة المكبوتة، هي التي ترى السذاجات أملاً عريضاً يحقّق مآربها...!

دوّت هذه العبارة في داخلي، كأنها صاروخ في ظلام ليل حالك، وقد اصطاد موقعه بحرفنة في حرب من فريق واحد، وبدأ شعوري بمقولتي تلك يفتر، لكني لم أكن لأظهر تراجعي، وطلبت من ممدوح أن يجدّ في السير.

أحياناً تكون كرامتنا جسراً عظيماً نصل به إلى الغباوات بطريقة آلية. . .!

لحقنا بهن، وعندما تجاورنا في الطريق، لاحت لي فكرة جهنمية، بها ربما ألجم عدنان، وأجعله مستودعاً ضخماً للتندر، فطلبت من ممدوح ألّا يتجاوزهن، والاقتراب منهن. فنظرتا إلينا نظرة ازدراء، وهن يعلمن بأن الشباب السعودي مساحة مليئة وكبيرة جداً من الترهات، فأشرتُ إليهن بأن يخفضن من زجاج النافذة، بغية الحديث معهن، فنظر إليّ تركي قائلاً:

ـ يا مجنون ماذا تريد. . .؟!

لم أجبه، نظرت إليه بنظرة حائرة بين النشوة والقلق، فيمَ كانت الراكبة تنزل من زجاج النافذة قليلاً في ذهول. دائماً التصرفات غير المعقولة مثيرة. وبدأت السيارتان تعودان في الاتجاه العكسي من السرعة، فانخفضت السرعة رويداً رويداً، إلى أن أدركتُ بأن صوتي سيصل إليهنَّ بوضوح، تنحّيت بجوار النافذة. فضحك عدنان ضحكة مجلجلة، لا أعرف السبب الحقيقي وراءها، لكني تجاهلت ضحكته، وقلت لهن:

ـ شارع الجاردينز. . . أي الطرق تؤدي إليه. . .؟!

بحلق الجميع في طلبي هذا، وسؤالي حول هذا الطريق الذي يبتعد عن طريقنا فقالت إحداهن:

ـ نحن سنذهب إليه، إن كنتم تريدونه فالحقوا بنا...

تبسّمت ابتسامة المنتصر، وقلت:

ـ حسناً اسبقونا...

وانطلقت سيارتهن، فأمرتُ ممدوح باللحاق بهن...

نظر تركي إليَّ قائلاً:

ـ ماذا تريد بشارع «الجاردينز» نحن لن ندخل عمان، سنتجّه قبل الوصول إليه شرقاً، مارّين بسحاب، والزرقاء، وصولاً إلى الطريق المؤدي إلى حدود جابر...!

عندها ارتسم الخبث على محيا عدنان:

ـ ألاعيبنا بدت مكشوفة يا فارس، قمة السخافة حينما تحاول أن تتلاعب بامرأة عاقلة...!

أدرك عدنان البعد الحقيقي لما كنت ألوي عليه، ولكني قلت بنبرة يغلب عليها الفشل:

ـ البحر يكذب الغطّاس...

في مسيرة لم تكن بالطويلة كان الترقب والقلق يجسّان قلبي بتؤدة. لم أكن على مقدرة في تحطيم قناعتي الرديئة تلك، ولم أتجرّأ على الانسلاخ من الشيطان في داخلي. مكثت أترقّب، وشعور التذبذب يتوغّل فيَّ وأنا حائر بين قرارين، التقدم والنكوص!

ودخلنا شارع الجاردينز...

كان منظره يوحي بنهضة عمرانية فاخرة. عمان مدينة تعجّ بالصخب، جميلة تلك الأماكن التي تمارس فيها الصخب علانية، وجهاراً، وممقوتة تلك الزوايا التي يحيا فيها الصخب متوازياً في ألم. كانت المباني الضخمة تقف وسط عمان بأنفة كالمقاتلين في أفلام المعارك في الريف البريطاني وويلز، أنفة المنازل تظهر في الضوضاء، فكم من بناء شاهق في بلادنا يفتقر للأنفة. حياتنا استعلت بالتقزم، وصارت تجعل منه واجباً مدرسياً يجب تأديته كل يوم، كتب على صفحة وجه حياتنا، الموت للصخب، والوبال للصاخبين. . .!

لمحت أنوار «الفرامل» تنبثق من مؤخرة السيارة تنذر بحادث جلل، وقفنا خلفها، ونزلتُ أجرّ معي جريرتي جرّاً. لم أتنبّه بأن تلكؤ تلكم الفتاتين بنزولهما من السيارة يشي بشيء ما، نزلتُ وإذا بإحداهن تنزل، صافحتها وقلت لها بعد أن عرفتُ الطريق بكثرة المجيء إليه:

ـ شكراً، لكن لازم أن تتناولا الغداء معنا. . .

ـ ألف شكر.

ـ لا ما يصير لازم نتغدّى معاً. . .

ـ مشكور، وحنا لازم نمشي. . .

إبتسمت ابتسامة رقيقة، كبداية أي سخافة:

ـ ما أعطلكم. . . وأنا أخرج ورقة من جيب ثوبي. . . هذا رقمي (فارس)، إذا احتجتما شيئاً اتّصلا بي!!

كنتُ مغفلاً بما فيه الكفاية، لم أستوعب معنى أن تقدّم خدمة من جانب إنساني فقط. إن الأفكار التي تحوّر الغايات أفكار فاسدة تستحق الاستئصال. كنت أنا من أحتاج إليهما فكيف أعرض خدماتي في بلد سأتركه بعد ساعات، مخلفاً إياه ورائي نسياً منسياً، إلا طريق العودة!!

عندها التقطت مني الورقة، وأنا أبتسم ورمتها في وجهي صائحة:

ـ شو... مالك... صدق شباب سعودي متخلف!!

ثم أردفت قائلة:

ـ زلام آخر زمن!!

انحنيت لآخذ الورقة، ولم أفق من دهشتي إلا على وقع صرير الإطارات على الإسفلت، تاركة إياي بين كم هائل من الغبار، وضحكات يُسمع لها دوي في مقصورة السيارة. فنظرت إلى السيارة ووجدت الجميع في حالة من الضحك الجنوني، فاتجهت إلى السيارة وأنا أحدّث نفسي:

ـ قيمة الذات لا تظهر إلّا بعد وقوع الشرخ الداخلي...!!

ركبت السيارة، وإذا بالشباب قد وصلوا إلى سقف الضحك. عدنان كان أكثرهم ضحكاً، ضحكاً كان يقفز على المقعد، والجميع في نوبة من الضحك الهستيري، فبادرني تركي:

ـ عاش مرقم....!!

وممدوح يقول وهو يغالب كحة تخرج من فمه بتؤدة:

ـ أمش، يا مقطع قلوب العذارى بسكين. . .!

فكرتُ في نبش حكاية النظرية القيصرية، ولكن لم أكن لأقلب الأجواء السائدة المرحة آنذاك، فبدأت أضحك بشكل غريب. خجلاً كان احمرار وجنتي، ولم يتركني عدنان أهدأ أبداً، فكان يقول:

ـ ياخي، أنت ما تفهم، قلت لك لكن الظاهر إنك تشوف نفسك براد بيت!!

وأردف:

ـ وإلا توم كروز!!

أخذنا نجوب الشوارع لا ندري أين نذهب، ونحن غارقون في بحر من الضحك. لم نجد ساحلاً نرسو عليه. ومع مرور الوقت بدأ الضحك يتلاشى شيئاً فشيئاً، كانغماس الشمس في وعاء الليل، وإذا بصوت عدنان يخترق هذا الهدوء الساكن، معلناً انقشاع نور الهدوء:

ـ ألم أقل لك؟! ألاعيبنا بدت مكشوفة، قمة السخافة حينما تحاول أن تتلاعب بامرأة عاقلة. . .!

ثم استطرد:

ـ مشكلة المكبوتين يا فارس أنهم دائماً لا يفرّقون بين مناطق الكبت والتحرر، ولا يجيدون ممارسة تحررهم أبداً وهذا بسبب تخلفهم الذي يعيشونه في حياة كلها تعامي ذكوري. عندما تكون المرأة كالكنز في الحياة، فلن نعثر

عليها إلّا بشق النفس، وإن عثرنا عليها ستتعامل معها بجنون الانحياز!

إزداد حنقي فقلت:

ـ ها نحن نذهب كي نجد الكنز يا فيلسوف زمانك...!

ـ الكنوز كثيرة جداً، ولكن هل تظن بأن الألماس كالريال المجيدي...؟!

ولم يترك لي الإجابة، فاستطرد:

ـ ما نذهب لهن الآن فتيات عرضن أنفسهن بأبخس الأثمان، ولسن كتلك التي حاولتَ استدراجها بألاعيبك، هنا الفرق بين الألماس والريال المجيدي...!!

عندها أضحى الغضب إكليلاً أتزيّن به، فقلت بغضب ممزوج بسخرية:

ـ تكفى يا نيتشه!!

حدجني بنظرة ازدراء وهو يقول:

ـ حمقى أولئك الذين يستشعرون العتمة دونما هرب...!

غرقت المقصورة في صمت قاتل، ومارس الشيطان هوايته في اللعب بين الرؤوس، وأخذ في تحريضي، رسمهم لي أوغاداً يلوكون الدونية لي بحرفنة. ما أقبح أن نتآمر مع أشلائنا على أشيائنا!، رأيت الشيطان يتنقّل في المقصورة ساخراً وشاهراً أسنانه التي توارت خلف صفار قذر ومقزّز، وعيناه تنمّان عن كره دفين ورأيته يهزّ وسطه ويخرج لسانه باستهزاء مركب، ولم أدر بنفسي إلّا وأنا أقول:

ـ الفراغ بؤرة الخطيئة، الفراغ طريق الموت، الفراغ موطن الشيطان، اقتلوا الفراغ فبموته يموت الشيطان...!

وأردفت وأنا أشير إلى ممدوح:

ـ اذهب لشارع الجاردينز سنتناول غداءنا في مطعم «ريم البوادي».

حياتنا مفترق طرق نقف
أمامه ببلادة الأغبياء

إمتدّ شارع الجاردينز كأفعى أفريقية ضخمة، حفّته المباني العظام من جانبيه. كان أشبه بسلطان حوله حاشيته، ينفث عظمته وتترجمها أعمدة الإنارة الملقاة على جانبي الشارع بانتظام. كل الأشياء حين تحاط بمعالم كثيرة ومتشابهة فإنها عظيمة، ومطعم «ريم البوادي» يطلّ برأسه بجبروت حاكم طاغٍ، يستلّ الإتاوات والأوراق النقدية من جيوب الناس وهم في رضى مطلق. تُقدم له الأموال الكثيرة والناس ينفضون ابتساماتهم المعلقة بأستار وجوههم دون اكتراث، الجماد والإنسان يتشابهان في أحايين كثيرة، حينما يأخذ كل منهما صفات الآخر. أوقف ممدوح السيارة وهو يقول:

ـ فارس هذا المطعم غالٍ جداً!!

رددتُ عليه وأنا أساعد عدنان في النزول، وقد كان في مرحلة من اللاقدرة على الحركة، بسبب سكر فاق حدّه:

ـ المال ليس مهماً، المهم أن نسعد.

ترنّح عدنان وهو ينزل من السيارة وقال:

ـ فعلاً المهم أن نسعد!!

عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية والنصف ظهراً. كان المطعم خالياً إلّا من عدد بسيط من الزبائن، وكانت هيبته تفرض نفسها بعنف، فقد تناثرت الطاولات على أرضية المطعم بشكل منظّم، وترتيب قمة في البهاء، ملابس عمال المطعم توحي بنوع من البرستيج الخاص، ونظافة المطعم باعث حقيقي وراء الأكل بشراهة. دخلنا فتلقفنا العمال مرحّبين. كل يبحث عن إكرامية يعتبرها في نظره سرقة حلالاً. كل أقطار العالم ترى في سرقة أي سائح ربحاً حلالاً بيّناً، بل يرون أنه من الذكاء والحنكة أن يسرقوا السائح ويبتزّوا كل ما يملكه من مال، ومن لم يستطع سرقته فهو أرعن. السائح السعودي هو أغبى كائن لأنه بكلمات قليلة ينثر ما في جيبه وحوزته من نقود. الدهاء أن تسرق هذا الكائن وهو حالم في العودة إليك مرة أخرى كي تعاد الكرة مرة أخرى. السعوديون في الخارج براميل نفط متحركة، لكنها عُبِّئت غباوات...!

وبينما نحن جلوساً، دخلت فتاتان برفقة شاب وسيم جداً، واقتعدوا طاولة ليست ببعيدة عنا. كانت واحدة منهما تتثنى كأغصان ربيعية. نظرنا إليهم بشراهة لا يجيدها سوى المكبوتين فقط، حتى أن ذلك الشاب امتعض ومص على شفتيه لكن كثرتنا كانت تمدّ يدها إلى عنقه لتخنقه. كل ذكور الطبيعة حين يحضرون مع إناثهم يبدون شيئاً من الأنفة،

والأنثى دائماً تحب أن يظهر الذكر عليها شيئاً من الاهتمام، حتى في غيرته، بينما الذكر هو الوجه الآخر للأنثى لكن مع اختلاف المسميات.

ـ شاب وفتاتان، ماذا يريد بالفتاتين...؟!

ثم أردف:

ـ ألم تكن واحدة كافية...؟!

هكذا قال ممدوح وهو يبتسم ويقلب بين يديه علبة السجائر. نظر إليه تركي ضاحكاً بصوت مسموع ثم أخفض صوته وقال:

ـ لو يعطينا واحدة...!

بدا الامتعاض واضحاً على وجه عدنان، وأخذت بوادر السخط تغزو ملامحه، وهو ما زال في تحليقه، فقد أسدلت أجفانه الستار على عينيه إلّا من شق بسيط بدت الحمرة من خلاله. وقال بصوت سمعه كل من في المطعم من عمال وزبائن:

ـ للرجل مثل حظ الأنثيين، ألم تقرأوا القرآن الكريم من قبل...؟!

ثم أردف:

ـ أغبياء أولئك الذين يظنون بأن المرأة الواحدة تكفي الرجل طوال حياته...!

ضحك الجميع على هذه المقولة، إلا إحدى هاتين الفتاتين، فقد أظهرت غضباً حاولت قدر المستطاع إخفاءه،

وعندما لم تستطع أن تخفيه، قالت بصوت سمعناه نحن دون غيرنا:

ـ السكر، هو أسهل طريق ينقلب فيه الإنسان إلى دابة. . .!

أدرك عدنان مغزى كلامها، وبادلها بسخرية لاذعة:

ـ في جيبي الآن قرابة الألف ريال سعودي. وراح ينظر إليها بطريقة شهوانية!

لم يكن من الشاب آنذاك إلّا أن قام وحاول أن يمسك عدنان من تلابيبه وهو يقول:

ـ شو بتقصد يا واطي!!

تصدّى تركي لذلك الشاب وهو يقول:

ـ الرجل ثمل، حاول أن تقدّر هذا الأمر.

تدخلتُ في الموقف محاولاً تهدئته قدر المستطاع:

ـ حقك علينا، الرجل سكران، ولا بدّ أن تراعي هذا الأمر، وكل ما تريده نحن له مستعدون.

صاح الرجل باستياء مبالغ فيه:

ـ إذا كان سكراناً، فمن الأفضل أن يبقى عند أمه، لأن هذه الأشكال إذا سكرت تنقلب إلى حيوانات!!

قفز عدنان بطريقة مضحكة للغاية، كبهلوان وهو يقول:

ـ أبوك الحيوان يا ابن الحرام. . .!

تشابكت الأيدي، وتدخّل عمال المطعم. أحدهم يحاول إطفاء النار المستعرة، والآخر وجد أن هذا الموقف هو الحل

الوحيد لإخراج ما في داخله من حقد دفين تجاه السعوديين.
وفي وسط هذه المعمعة سمعت صوت إحدى هاتين الفتاتين:
ـ هاض الحقير خلوّه يتربّى. . . !

إشتدّ التشابك، وأقبل الناس من خارج المطعم وهم يتصايحون. وعدنان يصيح بطريقة هستيرية مضحكة جداً، ويزبد ويرعد. هكذا كان عدنان يشرب إلى أن يودّع نطاق الأرض. وبينما نحن في هذا الوطيس المستعر، رأيت ثلاثة شباب سعوديين يدخلون المطعم عرفتهم من ثيابهم البيضاء، وأشمغتهم الحمراء، أحدهم كان قوي البنية بشكل ملفت، قفز إلى عدنان وانتشله من بين الأيدي وهو يقول:
ـ خلاص اتركوه معي.

وما كان من الآخرين إلّا أن بدأوا بتهدئة هذه النار المستعرة، وإخمادها، وهم يمسكون بأيدينا أنا وتركي وممدوح ويسحبوننا إلى خارج المطعم. اتجهنا إلى السيارة لكننا لمحنا عدنان بين يدي ذلك الفتوة، وهو يصيح:
ـ هؤلاء القذارة يتطاولون. قمة الاستخفاف عندما يتجاهل العبد كونه عبداً. . . !

طلب ذلك الفتوة من تركي أن يذهب ويشتري قهوة تركية لعدنان، لأنها ستكون سبباً في عودة عدنان لوعيه. كان كالطيور المهاجرة، لا تدري أين تقع. . . ؟ ولا أين تذهب. . . ؟ وما الهدف من وراء هجرتها في المجمل. . . ؟
نظر إليَّ أحد هؤلاء الشباب وقال مخاطباً إياي:

ـ في الأردن حاول أن تكون رجلاً أصم أبكم، من الأفضل ألّا تبقى فيها كثيراً!!

تبسّمت برضى مطلق لهذه العبارة وقلت:

ـ كنا نريد الذهاب إلى سوريا، وفضّلنا أن نتناول غداءنا هنا ونرحل.

قال الآخر:

ـ من أين أنتم من السعودية؟

ـ من تبوك.

أتيتم من حدود المدورة...؟ وتبحثون عن غدائكم في عمان، لماذا دخلتم عمان، كان من المفترض أن تسلكوا طريق شرق عمان.

ـ نعرف ذلك، لكن فضّلنا هذا المطعم لأنه قمة في اللذة، ونحن لسنا في عجلة من أمرنا، وكنا نريد أن نتناول الغداء ونغادر.

صاح عدنان وهو بين يدي ذلك الفتوة، وأخذ يضحك بشدّة:

ـ لسنا على عجلة من أمرنا، وهذا المطعم قمة في اللذة. ألاعيبك مضحكة يا فارس، قل لهم إنك براد بيت، أو توم كروز، يا فارس الكذب عملة الضعفاء!!

نظر الجميع إلى عدنان باستغراب، وهم باهتون لقوله، لكن الفتوة قطع هذا الاستغراب الموحش بقوله:

ـ حمداً للّه، حصل خير.

ثم قال بنبرة عنفوان عظيمة:

ـ كل الطرق موصلة، وكل الطرق موحلة، لكن الحصيف هو ذلك الشخص الذي حينما ينظر للطرق يرى أنها عبارة عن ظل طويل جداً...!

في داخل كل إنسان منا لحظة غضب عارمة يتخلّى فيها عن مبادئه وقناعاته

نهار منهار...

كانت السيارة تقطع الطريق كسوس نشب في حقل زراعي، وأخذ يأكل ثمره بلا استحياء، وعدنان صامتٌ بعد أن أفاق من غيابه ذاك، يتوشّح الندم، ويختبئ في ذاته بكل برود. الخير داخلنا كوخزة في صميم إنسان ميت، تبقي أثراً صغيراً جداً، لكنها لا تحرّك فيه ساكناً.

كان تركي مستاءً من تصرّف عدنان ذاك. فبعد أن عاد عدنان إلى وعيه، أراد تركي أن يوسعه صفعاً بكلماته، فصاح محدثاً جلبة في أرجاء المقصورة:

ـ أنت كالطفل، يخطىء وأهله من يتحمّل تبعات أخطائه...!

لم يرد عليه عدنان، وكانت كل الطرق توصل إلى نقطة واحدة، ومنتهى واحد. ندم عظيم. لكن تركي استمر في صفعه:

ـ أنت يا من تدّعي الفلسفة، ها أنت الآن كالأطفال،

والحمقى. قبح الكثير من مدّعي الكلام أنهم دوماً يقولون ما يتناسب وأفكارهم، ويتركون كل الأفكار والرؤى تحترق!

حينما لم يجد تركي رداً يوقظ الشيطان في داخله، ويشعل فتيل الخصام، والمماحكة، تنهّد بأسف قائلاً:

ـ اللّه يهديك يا عدنان، هذا ما أستطيع قوله.

عدنا في نفس الاتجاه وصعدنا الكوبري متجهين إلى شرق عمان، مروراً بسحاب، والزرقاء، الطريق يوحي ببنى تحتية مهترئة، والطريق بدأ يأخذ في التدهور شيئاً فشيئاً. كل السيارات من حولنا قديمة، نخر فيها الزمن أشياء أحالتها إلى حديد بالٍ:

ـ يقال بأن ذلك المسجد في الأعلى، هو المكان الذي قطنه أهل الكهف...!

قال ممدوح هذا الكلام وهو يشير إلى مسجد كان على يسارنا في أعلى الجبل، كان منظر ذلك المسجد مختلفاً عن بقية المساجد في نفس الحي، بل وكل المساجد التي رأيتها في حياتي، كان شكل ذلك المسجد أشبه بكهف، له قبة عظيمة توحي بعظم هذا المسجد، ومحراب أشبه ما يكون ببطن امرأة حبلى في شهرها الأخير، منتفخ بطريقة عجيبة، موقعه كان من الغرابة بحيث أنك لتخال بأنه لن يستطيع أحد الوصول إليه والصلاة فيه. رؤيته من بعيد تدسّ في داخلك الرهبة، ومن أول نظرة تبدأ فرائصك بالارتعاد، تشعر بأنه

مختلف تماماً عن بقية المساجد. منظره مهيب، وكأنه شيخ وقور من العهود القديمة جداً.

حينما رأيته تذكّرت ذلك المسجد الذي بناه «أحمد علي» في تلك القرية النائية، ذلك المسجد الذي تنازع أهل القرية يومئذ على إقامة صلاة الجمعة فيه. بعضهم يقول إن هذا المسجد أحدث مسجد وهو معدّ بكل الوسائل الحديثة من إنارة وتكييف وراحة، وهو مصدر للخشوع في الصلاة، والبعض الآخر كان يصرّ على بقاء الصلاة في المسجد القديم للقرية، لأنه المسجد الأول في هذه القرية، وهو المسجد الذي اعتادوا على الصلاة فيه منذ أن عرفوا الدنيا، ووعوا فيها بأهمية الصلاة وأن الصلاة عمود الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، فإن صلحت صلح سائر العمل وإن فسدت فسد سائر العمل، كما كان يلقّنهم الشيخ «صخر الداعس»، وقد قضوا فيه سنين عمرهم في الصلاة وحضور خطب الجمعة التي كان يلقيها الشيخ «صخر»، وحتى وإن كان قديماً فلن يتركوه وسيبقون يقيمون الصلاة فيه.

إنقسم أهل القرية إلى نصفين، منهم من يرى ضرورة أن يتركوا المسجد القديم، وأن يقيموا الصلاة في المسجد الجديد فهو مدعاة للخشوع، والقسم الآخر لن يتنازلوا عن المسجد القديم أبداً. لم يكن هذا هو السبب الفعلي لعدم إقامة صلاة الجمعة في المسجد الجديد وتركهم الصلاة في

المسجد القديم، إنما كان السبب هو ما أشاعه «أبو طفية» في أن صلاتهم في المسجد الجديد لا تصح، لأنه صُبغ بطلاء جديد ومستحدث، وهذا الطلاء منتج يأتي من دول كافرة، حتى أنهم حينما سمعوا ذلك قال أحدهم:

ـ صدقت يا أبا طفية، دول الكفر لا تصدّر إلينا إلّا القذارة. . . !

استمرّت القرية في تناطحها هذا فترة من الزمن، بعضهم كان يوافق والآخر كان يتشي للمعارضة، وانتشرت في القرية أنباء بأن الشياطين تظهر هذه الأيام، وتوغل في إضرام النيران بين المتخاصمين، فاعتكف الأهالي في بيوتهم لا يبرحونها، وحرموا الخروج، حتى صلاة الجمعة كان يقف الشيخ «صخر» على المنبر ولا يجد أحداً أمامه إلّا بعض المسافرين الذين كانت تدخل عليهم صلاة الجمعة وهم في هذه القرية! حتى أن الصبية لم يذهبوا في تلك الأيام إلى مدارسهم، وأصبح الأهالي في رهبة عظيمة، حاول بعض الأهالي الهرب من القرية، لكن انتشار خبر الشياطين الرابضة في الطرقات، تلك التي تقتل كل من يحاول الهرب كان سبباً كفيلاً بتراجعهم، والتزامهم بيوتهم، واستمرت القرية في رهبتها حتى سمع الأهالي الصوّات:

ـ قتلت الشياطين «أحمد علي». . . قتلت الشياطين «أحمد علي». . . !

وجد أهل القرية «أحمد علي» أمام باب مسجده ميتاً،

وآثار طعنات عدة متفرقة في أنحاء جسده؛ وجدوه وهو غارق في بركة من الدم، جحظت الأعين، واشرأبت الأعناق، وحاروا في أمر موته، وفاحت رائحة الخوف والرهبة من هذا العدو الخفي، فأرادوا غسله، لكن صوتاً هامساً خرج من بين الجموع:

ـ لا يجدر بنا غسله فهو فريسة الشيطان!!

عندما سمع الجميع كلمة الشيطان انفضوا وانطلق كل واحد منهم إلى بيته، مخلفين «أحمد علي» وراءهم جثة هامدة لم تُغسل ولم تُدفن، وفي اليوم التالي فاحت رائحته في القرية كلها. فأهله أيضاً تبرأوا منه، وتركوه ملقىً على الأرض، لم يقترب منه أحد، ولم يفكّر أحد في غسله ودفنه. وفي صبيحة اليوم الثالث خرج أهالي القرية على صوت ابنة «أحمد علي»وهي تقول:

ـ الشياطين سرقت أبي... يا أهل القرية الشياطين سرقت أبي!

تراكض أهالي القرية يبحثون عن أحمد علي. عبثاً ذهب بحثهم، فقد بحثوا عنه في كل مكان، ولم يتركوا مكاناً إلّا ونبشوه، ولكنهم لم يعثروا له على أثر، وحاموا في كل الأرجاء، كأن الأرض انشقّت وابتلعته. عندها صاح «أبو طفية» في أهل القرية:

ـ إنه الآن سيدهم، فقد بنى لهم مسجداً، أنصحكم بإحراق وهدم مسجده فهو مسجد الشياطين!!

أخذ أهالي القرية بإحراق المسجد وهدمه، حتى لكأنك تشعر بأن هذه الأرض لم يقم عليها أي مبنى أبداً. وبعد تلك الحادثة أطلق على مسجد «أحمد علي» اسم «مسجد الشياطين»، وعاد الأهالي للصلاة في مسجدهم القديم، وكان أبو طفية هو أشدّ الناس فرحاً بهذه العودة!

ـ الخرافات هي التي أحالت عقول العرب إلى مستودع للنتن!!

بهذه العبارة أعادني عدنان إلى الواقع. نظرت إلى المسجد وأيقنت أن قصة هذا المسجد كقصة مسجد الشياطين.

في كل الأزمان تكون الحياة بنفس الطابع، لكن الطقوس تختلف، وفي كل الأمكنة تتوغّل في أعماق الناس نفس الأفكار لكنها بلكنة مغايرة، العالم بأكمله بحيرة صغيرة جداً، يعيش فيها البشر متحاشرين. والحياة تتجدّد بموت كل أمة في هذه البحيرة من تحاشرهم، ليخلق خلق آخرون يعاودون التحاشر مرة أخرى!

تمتمت في داخلي بعد سماع قول عدنان الأخير:

ـ عفننا ينبع من عقولنا، ويصبّ في حياتنا، نموت ونحيا ونحن غير قادرين على الهجرة عن ضفاف هذا النهر القذر!

عبرنا ذلك المسجد، وصار حكاية من الحكايات القديمة، واتجهنا إلى الطريق المؤدّي لحدود «جابر» وصوت محمد عبده يشقّ عباب الصمت:

«أيوووووووووه قلبي، قلبي عليك إلتاع»... آآآآه آآآه...

الحب أن تمارس لذتك لذاتك

يظهر الجمال كلما اقتربت من راحتك...

كان الطريق الموصل إلى حدود جابر محفوفاً بأشجار قصيرة تتوارى خجلاً من المساحة الشاسعة التي تحيط بالطريق. رؤية الشارع من الأعلى أشبه ما تكون بلوحة فنان تشكيلي، المساحات الممتدة الخالية والخضراء تغمر الفضاء بطبيعة ساحرة؛ يختلف المنظر بين شمال عمان وجنوبه. دائماً ما كنت أتساءل، لماذا الشمال في أي بقعة جغرافية في العالم أفضل من الجنوب...؟ طبيعة، وأشخاصاً، وكل شيء!!

كانت الأرض تستلقي على امتداد ذلك الطريق الطويل مفروشة بجمال طبيعة آسر. الخضرة أداة طبيعية فعّالة في النفس، وسبب رئيسي في ولادة الابتسام، حيث الخضرة هنالك أمل بسيط يداعب الإنسان، أن يتنبّه له القدر كما تنبّه لهذه الأرض، أحياناً تكون الأرض محسودة من قبل البشر، وأحياناً العكس، بين الإنسان والطبيعة تناسب عكسي فظيع.

ما زالت السيارة تخبط الأرض بدون هوادة، والإسفلت

يئنّ من ألم الخبط، كم هو مسكين هذا الإسفلت، يتعب في حملنا وأدواتنا، وإذا أردنا أن نلمز أحدهم قلنا له «أنت عبد كالإسفلت»!!، ألا يكفي أنه يحملنا...؟ أليس هو من يفرش ظهره لراحتنا...؟، أشياؤنا الثمينة تتآكل فيما بينها وبين ذاتها ونحن سادرون في تهميشها، لم أقتنع ذلك اليوم عندما قال لي عدنان رأيه وأنا أحكي مأساة الإسفلت:

ـ الإسفلت كالعبد الأبكم، يعمل دون أن ينبس بكلمة.

اقتصّ الإسفلت من جثمان العبيد أثراً كبيراً، فلونه يشي بالعبودية وعمله يوحي بالاستبداد الملقى على ظهره، هو عبد لكن مع فارق التسمية!!

كل الأشياء في حياتنا تتدحرج إلى هوّة كبيرة جداً اسمها القبح، والسعادة أشبه بالمخاط تلتصق بنا في لزوجة متناهية لكن سرعان ما تتمزّق. بقاؤنا في الحياة يربطنا به خيط مزيف، ألم يقل الرسول (صلى اللّه عليه وسلم): «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلّا ذكر اللّه ومن والاه وعالم ومتعلم»...؟!، ألا لعنة على كل الأحرف التي تتجمّع لتمثل حياة، حياة هامشية عشناها بخنوع، أصررنا على دمامتنا وقذارتنا، نحن العار المركب الذي نفتخر به، ونحن الذين نقيس البؤس بمقياس ظهورنا التي تلفعها أشعة الشمس يومياً بملل دخل في طور الطغيان، حتى العذاب ملّ منا، لكنه يخضع لتكرار عمله لأنه موكل بنا!!

من بعيد بدأت تتبدّى بنايات على جانبي الطريق، تدلّ

على حياة قابعة وسط هذه المروج الخضراء. كل الحيوانات التي تعيش في غير موطنها الأصلي هي حيوانات خاسئة. كانت السيارة تقترب من تلك البنايات كقط يتربّص بفأر في ظهيرة يوم قائظ، معالمها بدت واضحة، إنها محلات الصرافة، كل دور النصب، وأماكن التحايل على الأغبياء ما زالت فارعة الطول. عتيقة هي عملية النصب المؤدّب هذه.

أتذكر «سالم» في أول رحلة لي إلى سوريا حين حاول تنبيهي من هذه الدور:

ـ في هذه الدور على اختلافها وتعدّدها نظام واحد، وطريقة واحدة، ابتسامة صفراء واسعة، وترحاب عظيم، وسرقة مواربة، وأخرق يسير على قدمين، فاحذر أن تكون سلطاناً أخرق!!

من بعيد لمحنا شاباً يقف في وسط الخط ويشير بيده اتجاه إحدى هذه الدور، وقد حمل بين يديه كمية من الأوراق النقدية، دلالة على أنه مسوّق لأحد دور الصرافة هذه. قال ممدوح بعد أن شدّ حاجبيه للأعلى استغراباً:

ـ كيف عرف أننا سعوديون...؟!

ردّ عليه تركي الذي بدأت الحياة تدبّ في أوصاله:

ـ ألا تدري بأن القطط لها أعين قوية جداً، وأنها من أذكى الحيوانات، في سرقة أكلها...؟!

انفجر عدنان ضاحكاً، قال وهو يجاهد في إخراج كحة التصقت برئته ولا تريد الخروج:

ـ وأيضاً القطط تُظهر أمامك وداً مطلقاً، لكنها من خلفك تستحيل نموراً قصيرة القامة!!

ثم أردف بعد أن استطالت ضحكته:

ـ إذا بقي على ما هو عليه في وسط الطريق فاصدمه، أصلاً ديته لا تتعدّى الثلاثين ديناراً!!

في هذه اللحظة كانت المقصورة تضيق ذرعاً بضحكتنا، كأم ضاقت من صياح ابنها الرضيع فآوته إلى حجرها وضمّته بتأفف. واستمرت السيارة تجوس الأرض بانتظام، وبين الفينة والأخرى يظهر شيء من هذه المعالم المرسومة أمامنا كميمياوات هادئة وساكنة تنظر إلينا بازدراء...

ـ أعرف شخصاً هنا يصرف، هو نصّاب لكنه قصير القامة كما يقول عدنان...

رددتُ على قول تركي، وأنا أشعل سيجارتي ناراً كي يبدأ العدّ العكسي لموتها:

ـ حسناً، لنذهب...

مزّيت نفساً من سيجارتي، فتداخلت عيناي في بعضهما البعض، وأحسست بنشوة عارمة تجوب كياني، وجعلت أردّد فيما بيني وبين نفسي:

ـ الدخان شعور جميل، لأن أجمل اللحظات تلك التي يهبّ فيها الهواء على أبنية أكل عليها الزمن وأحالها إلى خرائب تبكي أهلها، يحرّك الهواء فيها كل الذكريات،

والقصص والحكايات، ويسطّر التأريخ الدفين في ذرات هواء تضيع في فضاء لامتناه!

أسرع ممدوح بالسيارة لتجد لها مكاناً بين عدد من السيارات المستقرة هناك، كلها كانت من فئة «الأجرة». كانت البناية عتيقة، عبارة عن مطعم شعبي تناثرت على ساحته بعض الطاولات بعشوائية متناهية، وكان المنظر يوحي بالسفر. في كل التجمعات على الطرق البعيدة التي تكون ملاذاً للمسافرين تشابه عظيم، وجوه ذابلة من وعثاء السفر، وكآبة الجدران تلوح في أعين هؤلاء المسافرين، كتقاسيم وجه مسن مدخن بشراهة سقطت أسنانه.

تزاحم المسافرون أمام عامل المطعم. كل يطلب ما تمليه عليه شهيته، المأكولات تقليدية، تتدرّج من ساندويتش وتنتهي إلى دجاجة خانها حظها لتستقر فوق نار وتحيلها إلى لذّة شوي مطلقة. تقافزنا من السيارة كقردة في حديقة للحيوان تحاول التقاط ما تقدّمه أيدي الأطفال من بقايا طعام.

سبقنا عدنان وطلب لنا أربعة أكواب شاي، برفقة تركي وممدوح ذهبت لصرف الريالات السعودية، لنستعيض بدلاً عنها ليرات سورية. شكل الليرات السورية مضحك جداً، هي أشبه بأطفال عرض داون «المنغوليين» فهي كبيرة الحجم لكن فائدتها قليلة. دخلنا على رجل في الأربعين من عمره، أمرد، وكأن بينه وبين شعر وجهه عداوة، لم يحاول الشعر مجرد محاولة في الخروج، لأن الموسى كانت هي العلاج الوحيد

لتطفله، بعد كلمات ترحاب مقتضبة هذه المرة. لم يجد تركي صديقه الذي قال عنه، فبدأه بالسؤال:

ـ أين أبا حسام...؟!

نظر إلينا بنظرة خاطفة، وعاد يعدّ نقوداً كانت في حوزته:

ـ أبو حسام ترك العمل منذ فترة.

ـ كان صديقاً قديماً، ولم أكن أصرف إلّا من عنده...

هكذا قال تركي، وهو يحاول قياس ردة فعل هذا الرجل، لكنه لم ينبس بكلمة، فبادره تركي:

ـ نريد أن نصرف...

ـ كم بدك تصرف؟

ـ ألف ريال سعودي.

ـ السعر اليوم بـ 13,5...

بدءاً استغربت لهذا السعر، لم تكن تلك الأيام أيام موسم، ولهذا كان لزاماً أن يرتفع سعر الريال السعودي فقال تركي له:

ـ هذا هو السعر؟ نحن لسنا في وقت موسم...

ـ هذا اللي عندي بدك بصرف لك ما بدك اللّه يسهل عليك...

إمتعضتُ من تصرفات هذا الأخرق اللعين، يقولون إن الرجل في عمر الأربعين يبلغ أشدّه، وهذا نشاز عن القاعدة، فقد بدأ يفلت من أشده ببلوغه هذه السن، الشواذ قواعد يحكم عليها حين نجد للتندّر مكاناً كبيراً، فقلت له بأدب مبطن:

ـ لا بدنا نصرف، ونعطيك إكراميتك بعد. . .

ـ على راسي يا بو سعود. . .

عندها نظر ممدوح وهو يكتم ضحكة قائلاً:

ـ عليه الشحم واللّه. . .

صرف لنا النقود، وبعد أن تأكدنا من عدّها تماماً، أعطيناه ظهورنا كي يقيس مقاسها، وعندما وجدنا ذاهبين صاح قائلاً:

ـ أين إكراميتي. . .؟!

نظرتُ إليه بازدراء، وكمن وجد فرصة سانحة للثأر قلت:

ـ عمرك أربعون عاماً، وتريد إكرامية، إذا كنت تريد إكرامية، فمن كان في عمر السابعة ماذا نعطيه. . .؟!

لم أمهله أن يتكلم وقلت:

ـ إنتبه لعيالك، وربّيهم وأطعمهم طعاماً حلالاً. . . !

خرجنا من عند ذلك المعتوه، ونحن نحمل كماً هائلاً من الأوراق النقدية، وقد عبرنا إنساناً يحمل أطناناً هائلة من مشاعر الكره والحقد، واتجهنا إلى السيارة. لاح لنا عدنان وهو يقف بجانب عامل المطعم وهو يتحدث وفتاة في مقتبل العمر، جميلة حدّ الإغواء، تحمل بين تثنياتها تضاريس شهوانية، تغري العين في السدور في غيّها، تبتزّ شهوتك بشكل مضاعف، كنا ننظر وهو يتحدث معها وهما يتضاحكان.

كان عدنان يحمل بين تقاسيم وجهه وسامة بريئة، بدون أية رتوش، لكنه كان ينبذ كل شيء يتعلق بالمرأة، حليمته تلك

زادت في داخله كره النساء، لكن يبدو الآن في حال أجمل، ما لفت انتباهنا وقتئذ أنه لم يكن مخموراً، ولذلك لم نصدّق بأنه جريء إلى هذا الحدّ، فكيف استطاع أن يتداخل وهذه الفتاة ويتحدثان غير مباليين بمن هم حولهما، ويضحكان بصوت مسموع...؟!

تنبّه عدنان لوجودنا في السيارة ننتظره. ورأيناه وهو يدسّ ورقة في يد تلك الفاتنة، وودعها والابتسامة تتراقص على محياه.

إن أسهل طريقة لجلب امرأة ابتسامة واسعة...

عاد إلينا عدنان وهو يتراقص كراقصي الرقصات الإسبانية الشهيرة. فتح الباب ورمى بجسده على المقعد، وظلّت ابتسامة عالقة على شفتيه، لم نكن نعلم عن سبب هذه النقلة النوعية في تصرفات عدنان، لكنهن النساء كالحناء يغيّرن مبادىء وقيم الرجل بفعل حركات بسيطة!!

كانت ثمة حركة خفيّة في الممر، وكان هذا البياض في نظري يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى عتمة خالصة، وظلام مدقع. بدأ الصداع ينخر جمجمتي، وانجلت خطيئتي واضحة أمام عيني، وتداخلت الأشياء في رأسي، عدنان، سالم، أحمد، تركي، ممدوح، سليمان، حامد، الكلية، حليمة، سيارتي...

أشياء كثيرة تتحرّك، لا أدري ماهيتها...

في الظلام وحيث العتمة الخطيئة تخاتل الإنسان بأسلوب فظيع...!!

أصوات الأشياء لا تدلّ على حقيقتها المطلقة

الأجواء لم تتغيّر كثيراً...

الأماكن هي العلامة الوحيدة التي لا تتغيّر في نظر عابرها...

في أول رحلة لي وقفت آنذاك كوتوفي ذلك اليوم، لم يتغيّر أي شيء، ولم يتبدّل. لا أدري هل هو تكويني النفسي الذي لا يبعث على التغير...؟ أم أن الأشياء على ماهيتها القديمة حقاً...؟

المواقف تتناكح، لينجب كل موقف شخوصاً آخرين، كل شيء لم يتغيّر إلّا هؤلاء الفتية.

دخلنا الأراضي السورية. يومها ونحن في ذات التوقيت تقريباً. أتذكّر جيداً سالم حينما وقف بنا أمام «السوق الحرة»، ودسسنا أجسادنا في هذا المبنى الفخم. بدائية الزيارات جعلتني مبهوتاً بجمال هذا السوق، وما يحمل في أحشائه من ديكورات، وأثاث ملفت، وفتيات تقاسمنا رغيف الجمال، حتى أنني جعلت أتمتع بسرقة جسد إحداهن بأعين

لم تحيد عن خطّها الأفقي في رصد تثنيات وتقاسيم تلك الأعطاف الأنثوية اللدنة، وبينما أنا أنظر وأسير اصطدمت بطاولة كانت أمامي، أرجوحة طفل غدوت. فعندما رأتني وأنا أتأرجح في حالة يرثى لها، صارت تضحك بأسلوب جعلني كالمعتوه، أتخبّط دون أن أجد لي طريقاً أخرج به من معمعة هذا المكان الأخّاذ، كالمجنون بدأت أسير دون هدى، وأخذت أنظر في كل ما حولي، مما لفت انتباهي، ومما لم ألقي له بالاً أصلاً. أصبحت أحشاء هذا المبنى في نظري متساوية، تقع على حبل رفيع واحد من الجمال والقبح، لا أدري هل هو شعور بالجمال أم أنه شعور بالقبح...؟ ارتسمت الأشياء في مخيلتي كقطع فسيفساء متوحّدة. عندما تغيب المشاعر، ويبقى شعور واحد يعيث في داخل المرء بجبروت وتوحّد، تتساوى الأشياء، ولا يمكن أن تتصوّر الجماليات الخارجية، والقبيحة بنفس الطابع الذي كانت غيره قبل غياب المشاعر. الإنسان كتلة عظيمة جداً من المشاعر المختلفة، هذه المشاعر تتوالد في داخله بطريقة أرنبية مهولة، تعطيه انطباعاً وتصوراً عن الحياة وفقها، حيث لا يكون العقل ماسكاً بزمام التبعات الحياتية التي يعيشها المرء، إنما هي المشاعر المتعقلة...!

خرجنا من ذلك المبنى، والنسيم يفرد أشعته على الفضاء، بكل انسياب. كانت أيدينا حبلى بكل ما لذّ وطاب من أنواع المسكرات، والمشروبات الروحية، بلاك ليبل، ريد ليبل،

شيفاز، فودكا، جنويكر، كونياك، حتى أن سالم حين رأى أحمد يحمل الشيفاز في يده صاح قائلاً:

ـ ماذا تريد بشراب الفتيات...؟!

كان كل من يشرب الشيفاز في نظر سالم فتاة، لأنه لم يكن ذلك المشروب الذي يماري بقوته البلاك ليبل، أو جي بي، أو حتى الريد ليبل، أو الكونياك. وألصق بالفتيات تحقيراً لقوته، بالإضافة لحب الفتيات لهذا المشروب خاصة، لأنه ليس بقوة المشروبات الأخرى...

ففي إحدى المرات، وبينما نحن جلوساً في الشقة طلب أحمد من الخادمة أن تستدعي متعة الجسد. ظروف كانت تنبىء بيوم جميل لبدء ساعات شهوة مميزة!!

الفتيات كنّ يدخلن علناً ونبدأ بالاختيار من بينهن ما يتناسب وأذواقنا. منا من يفكّر في كبر الأرداف، وآخرون لا يعنيهم كبر الأرداف ولدونتها شيئاً مقارنة برشاقة الفتاة، ونحفها، وجمال وجهها، وشفتيها. وأما البعض فلم يكن يفرض قيماً جمالية على شكل الفتاة، بقدر ما يحتاج إلى كم هائل من الراحة والفتاة، بحيث تعطيه كل ما يريد حتى لو كانت دميمة؛ فالراحة النفسية في نظره أعظم من أن تتقارب بالشكل الظاهري، لأن هنالك من الفتيات من كنّ يتملص من تأدية واجب الفراش معهن بالشكل المطلوب. كن أشبه بحبات الفشار الجائمة فوق نار مستعرة لا تستقر على مكان معيَّن. فكن يتملصن، ويتمردن، كي تنتهي فترة العمل،

ويخرجن؛ وبعضهن إن وجدن شاباً متيبّس الرأس، كن يصرخن فيه بكل تأفف: «سرعة... سرعة»، مما كان يغرس في ذات الشاب نوعاً من النفور الزائد، الذي يجعله يلعن ويسبّ كل عاهرة، ويلعن من أوصله إلى هذا المكان، فقد كانت الراحة النفسية في قاموس بعضهم جزءاً لا يتجزأ من المواصفات التي يجب توافرها في الفتاة؛ وكانت الفتيات اللاتي يملكن هذه الميزة، بجانب جمالهن، لا يجدن متسعاً من الوقت لتلبية كل الطلبات المقدّمة لهنّ...

العهر أسلوب رديء في الحياة، والعاهرة هي الشيء الوحيد في العالم الذي نحبه ونخاف أن يطّلع عليه الآخرون!!

كانت بعض الفتيات يدخلن، ومن لم يتم اختيارها تخرج وهي تلعن وتشتم في داخلها العوز الذي جعلها سلعة مستهلكة تدسّ جسدها في أي مبنى، وتجعل من الذكور رسامين يرسمون تفاصيل جسدها بكل يسر وسهولة.

إن المرء حينما يجد نفسه باءت على دنسها سيمتهن الدنس إلى ما لانهاية!

بعد مرور بعض الوقت بدأ كل منا يقبّل من بحضنه فارتمت لحضن كل شاب منا فتاة.

الشباب خارج أسوار البلاد يمارسون عهرهم أمام بعضهم البعض، التحرر المتجاوز الحد أكساهم نوعاً من التبلد في الأحاسيس والمشاعر، يلوكون حياءهم وكرامتهم في ذواتهم داخل أسوار الوطن، أما خارجه فيبصقون هذا الحياء وهذه

الكرامة مع أول سيجارة يتنفسونها بعيداً عن الكبت، ويتبرأون منه علناً، حين يطبع موظف الجوازات ختم الخروج تبدأ الأشياء في التبدّل، والتصرفات في التغيّر، والمشاعر في التحوّر، والأحاسيس في التدهور.

في ذلك اليوم تهافتت الفتيات على مشروب الشيفاز بشراهة كصبيان وجدوا قطع حلوى في أحد الأعياد. نجاستنا أشبه بمذنب هالي، تختفي كثيراً ونسارع في طمرها، لكنها حينما تخرج يكون لها صدى جبّار، وتبقى مجلجلة وقتاً طويلاً. طغت نجاستنا على نقائنا، وأصبح التعامل ينبع من ثلاثة أحرف، يشترك حرفا النون والسين في كثير من كلماته!!

يا اللّه الوضع لم يتغيّر كثيراً، والوجوه كلها تعيد ترميم تآكلها، وينقشع ذلك الوجوم عن سعادة وابتسام. تستحيل الجمادات إلى أشياء قابلة للرقص والانتشاء، شعورنا يتغيّر بتغيُّر المواقع!! وتصرّفاتنا تتغيّر بتغيُّر الأمكنة، نحن ضريبة لا بدّ أن تُدفع في كل ظرف وكل طارىء وكل مكان، حياتنا أشبه بالتجارة، ففي كل مكان لها ربع مختلف، ودخل يخالف سابقه تماماً. في كل مكان لنا تصرف مختلف، وفي كل ظرف لنا سلوك مغاير، تجارية حياتنا هذه، ميلاد جديد للإنسانية المتغيّرة في داخل كل شخص منا!!

هذا الحدّ لم يتغيّر، تتقارب الوجوه في كل رحلاتي إن لم تكن هي نفسها، لا تبدّل ولا تغيّر، إلّا في أرقام لوحات السيارات.

ذات صباح وبينما نحن نقف في نفس المكان، ننتظر الانعتاق من رق إجراءات السفر المطوّلة، كنت أقف أمام السيارة كالصنم، وأمرّ من سيجارة كانت بين أصابعي. في تلك الأثناء أتت سيارة من نوع «جي أم سي»، حشرها سائقها بالقرب من سيارتنا. كان أحد الرفاق في السيارة أفقده الإعياء القدرة على التشكّل الصحيح، الإعياء حقنة تُحقن بها لقتات البلادة بلا حسيب!

كان أشبه بالخرق البالية، متقرفصاً على نفسه، جمع كل أعضائه له، وخنقها في منطقة صغيرة جداً، وجاهد في أن يغمض عينيه لبرهة تقيه شر السهر المتواصل. وعندما أطفأ السائق محرك سيارته الـ «جي أم سي» ترجّل منها، لتتفتح الأبواب الخلفية التي رقدت على زجاجها التظليلة القاتمة اللون، ويبدأ نزول فتيات كثر، وأنا منهمك في عدّهن، كن تسع فتيات يتقارب في ملابسهن، «بلوزة استريتش»، وبنطال ضيق يفضح أكثر مما يخفي، وقد بانت سيقانهن. كان من نوع الـ «برمودا»، كان الاختلاف في الألوان فقط، رأيت هذا المشهد في بداية علاقتي مع السفرات خارج البلاد، لم أكن أعرف الدسائس في أمور كثيرة، ولم أحظَ بعد بشرف أن أعتاد على منظر كهذا.

إنني وإن كنت أكتب الآن، إلّا أنني أرى الأشياء كما هي خالية من كل الرتوش التي تعطينا تصورات أخرى للأشياء،

فالمرء وليد هاجس عارٍ جداً، لا يقيه شرّ التعرّي إلّا بذرة إنسانية، هذه البذرة مفطورة بدافع شرقي الطابع!

الفتيات انسللن من السيارة واقتعدن بجانبها، وضحكاتهن ترسم شكلاً آخر لهذه المباني الآيلة للسقوط. المرأة كالماء هي تحيي أكثر مما تميت. كان الغنج واضحاً من ضحكاتهن، والغواية تمشط الأفق، والناس من حولهن ينظرون وهن غير مكترثات. بدأت أنظر إليهن بشراهة إنسان بدوي مكبوت، من غير اللائق وقوفه أمام هذا المشهد الدرامي المتأجّج. صدقاً، كنت أفتقر للذوبان في مشاهد كهذه، لأن الإنسان مضغة التعري دوماً...

... الكبت هو النظام الذي يجعل منك أخرق في تعاملك والمرأة، يحيلك إلى أضحوكة ترتسم على الأفواه بغباء فاحش.

حينما لمحت رفيقي وهو قادم وبيده الجوازات وأوراق الخروج، ركضت إليه، مما أثار ركضي الموجودين، ووشوشت في أذنه:

ـ أنظر إلى الفتيات هناك...؟!

نظر إليهن بغير اكتراث، وسحبني من يدي وهو يضحك ضحكة مقتضبة، وأسرع دون أن ينطق بكلمة، وركبنا سيارتنا ونظر في المرآة أمامه وتفرس ملامحي بجودة أكثر، وقال:

ـ هل ترى كل الفتيات هنالك، كلهن بائعات للهوى، وذلك الرجل الذي معهن هو قوادهن!!

ـ معقول. . . !

قلت هذه العبارة باندهاش الصبية. . .

. . . شعور مدهش أن تتبدّى الحقيقة عكس ما كنت تتصوّر، وما لم تكن تتصوّر!!

سكت، ولم يطل الحديث، وأنا موجوع من أثر اختراق هذه الكلمات لأذني، فبدأت صورهن تتلاشى من ناظري واحدة تلو الأخرى، والسواد يخيّم على تلك اللوحة التي رسمتها في مخيلتي. كل الجمال في هذا الكون طابع لحظي، يصبح خراباً وعبثاً، وقبحاً طاغياً في درجة من الصدق الجلي!!

كانت الحركة مستمرة في المنفذ. . .

قال لي أحدهم يوماً، ولم أكن أستوعب معنى أن يكون وراء الأسماء أساطير، ولم أعرف بعد أن الاسم من الصعوبة بحيث يحيّزنا إلى شق لن نستطيع أن نهرب منه في يوم ما. كنت أسمع له وأنا منهمك في تحليل السرد، كنت ناقداً مغفلاً لا يحسب إلّا لجودة السرد وتماسكه. لم أكن أعرف أن الأفكار دوماً تأتي من الخلف لتقتلنا، ولم أتجرّأ في أن أعطي حكمي على الأشياء علانية وقوة. هو الإنسان أقرب للخيال منه للواقع، فنحن كائنات خيالية، يرسم فينا الزمن أشياءه بحرفية الرسامين، فالرسام مخلوق خرافي البنية، يعطي الحياة أشكالاً ليست كما هي مطلقاً. . .

قال لي. . إن تسمية هذه الحدود باسم «جابر» تعود إلى

رجل اسمه «جابر»، كان يحكم هذه المنطقة منذ القدم، وكان طاغية حدّ البذخ، كان يحب القتل، وسفك الدماء، حتى أنه في يوم من الأيام فرض إتاوة على كل من أراد أن يمر ببلده التي يحكمها. ولم يكن له صداقات أو علاقات ودّ عابرة. حاول الكثيرون التقرّب منه بأي شكل من الأشكال لكنه كان يرفض، كانت بلاده ملاذاً للخضرة، وكانت تنعم بالمطر في كثير من فصول السنة، مما أكساها مراعي خضراء ممتدة على مسافات شاسعة، حسده الكثيرون من مشايخ القبائل المجاورة عليها، وأطلقوا عليه عبارات كثيرة وروّجوا عنه إشاعات مغرضة، كانوا يقولون:

ـ الشيخ جابر، يستخدم الجن والمردة فهو يستدعي الجن والمردة ويقيم لهم الولائم ويطلبهم أن ينزلوا له الغيث فيذهب الجن وبعد دقائق تبدأ السماء تمطر...!

(أحد مسنّي قبيلة عائر).

ـ إنه لا يتبوّل في الفضاء أبداً، وإذا أراد أن يتبوّل استدعى صغار الجن، وتبوّل في كوب وأرسله إلى ملك الجن كهدية إنسي...!

(أحد أعيان قبيلة طراب).

ـ إن اللّه عزّ وجلّ حضّ أهل التقى بالخير والمطر، وإني لأراه خير أهل هذه البقاع...!

(طالب علم، واتضح فيما بعد أنه يود التقرّب من الشيخ جابر).

لم يكن للشيخ جابر سوى فتاة، وكانت هذه الفتاة مضرب مثل للجمال. كانت لا تسرح بغنمها مع فتيات القرية، إنما كانت تنظر إليهن بتقزّز. وكان أبوها يوصيها بألّا تخالطهن أبداً، كي لا يصيبها وجع الدنس والدونية.

وفي يوم من الأيام، وبينما هي سارحة بغنمها، كان الجو صحواً، يبعث الوضوح في النفس، وفجأة انقلبت السماء سحباً قاتمة اللون قبيحة الوجه، كانت أقرب للغلو منها إلى الوسطية، وبدأت تمطر بغزارة. لم يكن من «جميلة» إلّا أن مكثت حين كانت، تنظر إلى السماء وتشاركها سمتها الأزلية. كانت تبكي، فقط تبكي لذات البكاء، إن المرأة في لحظة الانسداد تبكي، فقد انغلقت كل الطرق أمامها، ولم يعد إلّا البكاء نسكاً لا بدّ من تأديته. ازداد المطر في الانهمار، ولا تدري ماذا تفعل، فأخذت تمشي بغير هدى. لا يشاركها في مشيها إلّا دمعة تندلق من عينيها بغير هدى. إن النساء من الظلم بحيث يقتلن الدموع كثرة، وبغير حسيب، وسارت، وسارت إلى أن وقعت مغشياً عليها، ولم تستيقظ إلّا بعد أن أعيت التعب وأتعبت جسدها، عندما استيقظت وجدت نفسها في كهف وحولها ماء وأكل، وليس بجانبها أحد من البشر. خُيِّل لها بأن حولها أجساد هلامية لا تعرف كنهها، وأحسّت بأنها ترتفع عن الأرض رويداً، وتعود إليها من جديد. وتداخلت الأشياء في عينيها، وأخذت تصرخ، وتصرخ ولكن ليس هنالك من مجيب. عادت إلى رشدها بعد أن نخر

اليأس داخلها، قامت فأكلت، وعندما شبعت لم تدرِ إلّا بيد تضغط على مناسمها، وتحكم قبضتها على أنفسها، وتخنقها، إلى أن أغمي عليها مرة أخرى...!

كاد الشيخ جابر يجنّ بعد اختفاء ابنته، فوضع جائزة مقدارها مائة ناقة لمن يجدها. فهبّ الرجال، وفرسان القرية في طلبها، والكل صار يبحث عنها بكل ما أوتي من جهد، ظفراً بالاثنتين، بالمائة ناقة التي وضعها أبوها كجائزة، ورؤية جمالها الذي يضرب به المثل، لأنه لم يرها أحد من الذكور قط، فأخذ الجميع يبحثون لكن لا أثر لها...

خرج ممدوح وفي يده الجوازات، وأوراق السيارة، وعندما رآه عدنان، قال بصوت مسموع:

ـ من أجمل لحظات العمر، اللقاء بعد فراق طويل، قريباً سأعانقكِ يا دمشق...

الربيع

معذورون أولئك الذين ينبحون لتكدير صفو المدى

غصّت حدود «نصيب» بالمسافرين. . .

. . . وازدحم المسافرون على كونترات الجوازات لإنهاء إجراءات سفرهم، كلٌ يلهث ويجري في سبيل الخلاص من هذا المأزق، ولم يبخل كل واحد منهم من دفع بعض الليرات ودسّها في أيدي الموظفين كي ينهوا إجراءاتهم بأسرع وقت ممكن. في أكثر الأماكن ازدحاماً الغلبة لمن يحاول التملّص من هذا الازدحام بطريقة الطين، تلك الطريقة التي تتشكّل من خلالها مخلوقات سهلة التمثيل. تدافع الناس، فمنهم من يرى أن الدفع للموظفين طريقة غير حضارية، وابتزاز رديء، ومنهم من يرى أنه لا مانع منه كي يخرج من هذه المعمعة بأيسر طريقة.

في هذا المكان اجتمع بشر كثير من أنحاء متفرقة، من الأردن وسورية والكويت وقطر وعمان والإمارات والبحرين بالإضافة إلى السعوديين، كالمصب لكل الدول الداخلة للأراضي السورية كان. إمتزج الرجال بالنساء في مشهد

الحشر الدنيوي. في تلك الأثناء كان الشيطان متربعاً بين هذه الجموع، يحرِّض الكثيرين منهم للممارسات الشيطانية المبتذلة علناً. فقد كان أحد الشباب الكويتيين يراود فتاة أردنية بنظرات شهوانية، فعندما التقيا عند الكونتر قام وأفسح المجال لها كي تنهي إجراءات دخولها، وأخذ يقلب الحديث معها، عن أيسر الطرق من هذا المأزق والنفاذ من هذا الازدحام المرعب، وقد ركّز نظره على نهديها وجسدها، وردفيها، وهو يتغامز مع صديقه الواقف على بعد أمتار منه. وبعد لحظات ودّع كل منهما الآخر وهما على أمل الالتقاء مرة أخرى، فعندما رآهم عدنان هكذا همس في أذني وهو يشير إليهم بطرف عينيه:

ـ المرأة أشبه بالطفل، بأسهل الطرق تخطب ودها وبأيسر الأساليب تحيل حياتها إلى صراخ ولطم...!

عندما سمعت هذه العبارة بعد أن اندلقت على فكري بعفونة فاحت مع رائحة فم عدنان المقزّزة، أخذت أخاطب ذاتي:

ـ كم أنت غبي يا عدنان، المرأة كالطفل!! المرأة نجم مشعّ في كبد السماء لا يصل إليه إلّا الحاذقون.

آراؤنا في هذه القضية انقسمت. فعندنان وممدوح مصرّان بألّا يعطيان أحداً من موظفي الجوازات أية نقود، وأنا وتركي نؤكّد على ضرورة إعطائهم للنفاذ من هذا التكتل العظيم. أيّد عدنان رأيه، بقوله إنه لا مانع من الانتظار، فهذا المكان

جميل للفرجة، وإذا اجتمع في المكان الواحد صنوف شتّى من البشر فهو المكان الأجدر بالفرجة. وكان تركي ممتعضاً، وبدت ملامحه تربو عن اهتزازات، ونشاط لا نظير له فهو يريد الدخول إلى الأراضي السورية بأسرع ما يمكن. فعندما أوقفنا سيارتنا أمام مركز حدود نصيب أدار جهاز التسجيل بعد أن ألقمه شريطاً فانطلقت الأغنية:

(صحيح أنا زعلتك بس غلطانة...

أحلفلك بالمحبة اشقد ندمانة...)

لم يكن منه إلّا أن نزل بجانب السيارة وأخذ «يدبك» بشكل ملفت ورائع، فقد كان يجيد فنون وأبجديات هذه الرقصة بشكل ممتاز، حتى أن مجموعة من الشباب الكويتيين اصطفّوا بجانبه وأخذوا يدبكون معه على مرأى من الجميع، والناس حولهم ينظرون بابتسام يملأ وجوههم. وقد كان ثمة سيارة لبنانية تستقلّها فتاتان مع رجل أربعيني المظهر، فعندما رأوا الشباب الخليجي يبدع في هذه الرقصة الشامية، أخذن يصفّقن وينطلق تصفيقهن ليخترق آذان الشباب، ويصيبهم سعار الدبكة. فتحلّق الناس ينظرون لهذه الفرقة الراقصة، وبعض ممن لا يجيدون هذه الرقصة أخذوا يهزّون رؤوسهم وأخذوا في التمايل طرباً...

ـ أحياناً يكون الغناء سكراً روحياً...

إندلقت من لساني هذه العبارة، فنظر إليَّ عدنان وهو ينفث دخانه من فمه وقال بعد سعلة بسيطة:

- الشباب الخليجي كالذباب لا يتجمّع إلّا على نجس...!

كان تركي قائداً لمجموعته الراقصة تلك، وكان لا يزال مبدياً روعة في رقصته، وكل العيون تنظر إليه بإعجاب، فقد كان يرقص بحرفنة غجرية، وكان بداخله من النشاط ما حمل الكثيرين ممن يرافقوه بأن يتركوا الساحة له دون منازع...

لم تنفض هذه الحلقة إلّا مع صياح ممدوح بعد أن أنهى إجراءات دخولنا وأخفض من صوت جهاز التسجيل، وقال مخاطباً تركي:

- يا تركي، يالنورية، هيا لنذهب...

نظر تركي إلى الجميع بنظرة ملؤها الانتصار، وقال بصوت مسموع:

- يعطيكم العافية، الوعد الليلة بالوسام الذهبي...

الوسام الذهبي هذا كان أحد أفخم الملاهي الليلية على طريق التل/معربة، من أشهر المراقص الليلية، وقد اشتهر بفتياته اللاتي لا يماريهن أحد في جمالهن...

تركنا كل شيء خلفنا كذكرى في مذكرة مراهقة، واتجهنا إلى دمشق، وكل واحد منا في داخله رسام يرسم أشياء وأشياء. تذكّر ممدوح الفتيات اللاتي يصفّقن فنظر إلى تركي وقال وهو يغمز بإحدى عينيه «يا هووووه سرقت قلوب العذراوات»!!

ابتسم تركي ابتسامة مقتضبة. وحينما تذكّرت تلك الفتاتين

اللتين أخذنا تصفقان لتركي ومن معه حينما كانوا يدبكون. لا أدري لماذا تذكّرت قول سالم لي في حدود جابر عندما رأينا ذلك «الجي أم سي» يعجّ بالفتيات...؟! «هل ترى كل الفتيات هنالك...؟ كلهن بائعات هوى، وذلك الرجل الذي معهن قوادهن!».

لا أدري لماذا أتجرأ الآن في سرد قصة الشيخ جابر...؟ وأصرّ على كتابتها هنا...؟ ولسبب لا أعرفه تذكّرتها الآن، لكن هي الأفكار حين تعود لا تعود إلّا مخاتلة...

... في ذلك اليوم عادت فيه جميلة إلى منزل أبيها. حين رآها لم يصدّق أنها ما زالت على قيد الحياة. عادت إلى المنزل ولم يجدها أحد، وبالتالي لم يأخذ أحد منهم تلك الجائزة العظيمة، ولم يظفر أحد برؤية ذلك الجمال الآسر.

التطرف موطن الضياع، والحياة اتزان في كل شيء، حينما نتطرّف تضيع منا الأشياء ـ كل الأشياء ـ وعندما يموت في داخلنا الاتزان يبقى للتمرد أشياء في باطن كل شخص منا يحاول الاستعاضة عنه بشيء في حياته وبترجمته كي يقرأه البشر. كلنا حينما نرى الحياة مصدراً مؤولاً للتطرف، فإننا نسير في منظومة تمرّد مبالغ فيه.

أجمل الأردية هي تلك التي نخيطها بخيوط الاتزان المعقول...

دخلت جميلة بعد أن هدأت وسكن قلبها بجوار أبيها لتستحمّ. وبعد أن خلعت ما عليها من ملابس، وجدت على

كتفها علامة لم تعهد وجودها من قبل. كان شكلها يشي بقنينة مشطورة إلى قسمين، وقد رسمت على كتفها الأيسر بحرفنة رسام تشكيلي، واستخدم في رسمها مادة لا تعرف ماهيتها...؟ فلم يكن هناك أي أثر لجرح أو أي عمل جراحي!! وحاولت غسلها عدة مرات، ودعكت كتفها مرات ومرات ولكنها لم تستطع غسلها، ولم تتغيّر العلامة، وبقيت على ما هي عليه، كأنها موجودة منذ خرجت لهذه الدنيا. وبقيت هذه العلامة في يدها سنوات طويلة. وعندما خرجت من الحمام، وأسرت لأبيها بخبر هذه الرسمة، انتفض أبوها كمن لدغته حية، ونظر إلى تلك الرسمة، وعندما تأكّد منها قال بصوت هامس:

ـ ألم يمت...؟ الجوع والصحراء والخلاء كفيلة بموته!!

كانت هذه العلامة مشهورة لشيخ يدعى «منور» وكان بينه وبين الشيخ جابر خصومة منذ القدم. فاستغل الشيخ جابر وجود الشيخ منور لوحده، فقد كان أبناؤه في رحلة إلى بلاد العراق وقتئذ، فدخل عليه منزله، وهدّده بالقتل، وسبى إحدى بناته، وطرده خارج القرية، وأحرق بيته أمام ناظريه.

وبعد مدة من الزمن عاد الأبناء فعلموا بما حلّ بأبيهم، فأرادوا الانتقام. ولكن الشيخ جابر في يوم باغتهم في منتصف الليل بعدما علم من عيونه أنهم يودّون قتله، وأجهز عليهم وقتلهم.

كلنا نعيش في منظومة خيانة عظمى. ارتبط تأريخنا

بالخيانة، وأصبحت لازمة تصرفاتنا أينما ذهبنا، عندما تهاجر القيم النبيلة، لن يبقى للتصدّر إلّا القيم الخاسئة والقذرة. . .

قتل الشيخ جابر كل أبناء الشيخ منور إلّا واحداً، أصغرهم فقد هرب، كان يدعى «حسن». كان يبلغ حسن آنذاك الثالثة عشرة من عمره. بحث عنه في كل مكان ولكن لم يجده، فقد هرب، ابتلعته الصحراء بعدما فتحت شدقيها كأكلة شهية. . .

هام حسن في البراري، كأسير هرب من أحد المعتقلات لم يستوعب بعد حياته، ولا يدري أين يدسّ وجهه في هذه الأرض الممتدة. كانت كل الطرق في نظره واحدة، والأفق يتّفق في كل شيء، واللاشيء هو الشيء الذي يراه ويسمع به، إلّا من قمر وشمس تتكرّر يومياً برتابة وآلية. . . وبينما هو يسير يوماً وقد خرجت الشمس بتكرارها اليومي، وحين انتصفت الشمس وبدأت ترسل شظاياها لاسعة وقوية سقط حسن مغشياً عليه. . .

الإنسان كائن ضعيف فعلاً، يواجه بطش الحياة بجسارة الجبناء!!

وفي اليوم التالي استيقظ حسن وإذا بشيخ هرم يقف على رأسه، وبجانبه عجوز مسنّة نخر الكبر عظامها، واستشرت الأمراض في كيانها، كوجبة مرض دسمة. عرف الشيخ ابنه، وعرفت العجوز ابنها، وعندما علمت الأم بخبر موت أبنائها جميعاً، لم تستطع تمالك نفسها، فأخذت تبكي فلذات

كبدها، إلى أن فقدت بصرها، عندها لم يكن من الأب إلّا أن سرد كل القصة على ابنه الصغير هذا، فزاد الكره الباطني للشيخ جابر في ذات حسن...

خطايانا تتكاثر وتزداد ونحن الذين نمدّها بسوائلنا المنوية...

ومع مرور السنوات توفيت أم حسن، وآخر كلمة نطقت بها قبل وفاتها:

ـ أي بني، الحياة الدنيا بدأت بخطيئة، وستنتهي بخطيئة، الحياة دائن ومدين، استوف دينك...

رسم الأب على كتف ابنه الأيسر تلك الشارة، وهي قنينة مشطورة إلى قسمين. وكبر الابن، وبرزت معالم رجولته، وازداد انفراد عضلاته، وظهرت فتوته ووسامته. فعندما بلغ العشرين من عمره كان قد ألمّ بكل وسائل القتال، وكان حريصاً على اقتناء جواد له، فذهب إلى بلاد الرافدين، واشترى من هناك جواداً كان كالبرق. وصار فيما بعد من أشهر الخيول في المنطقة. وبينما هو عائد من سفره، وجد عجوزاً في منتصف الطريق تطلب أن يمدّها بما تيسّر من مال، فنظرت إليه بتمعّن ودقّقت النظر وقالت:

ـ أي بني، تبرز على محياك ملامح الملوك، لكن المصائب ستنهال على رأسك فاصبر إلى أن تبلغ مرادك، يبدو على وجنتك اليمنى جرح طفيف، عزائي لك يا بني...

ناولها ما أملته عليه قناعته ومضى. مضى وهو مبتسم غير

مكترث بما قالته هذه العجوز الهرمة، وأنها مجرد بائعة للكلام في ظرف المال والحاجة. وعندما وصل إلى والده وجده قد مات وبجانبه ورقة مكتوبة بالدم وقد تلطخت يداه دماً، وهو طافر من فمه، مات وهو يسبح في بركة من الدماء، التقط الورقة، وقرأ ما فيها:

(بني، الكره يولّد الموت، ادفني في قريتي)...

غسل الابن والده، وأغدق عليه الماء كثيراً، والدموع تشارك ذلك الماء الانهمار على جسد والده. كان يشعر بالتقزّز والقرف من نفسه، وكان يحسّ بغثيان يجعله يتقيأ أمعاءه وأحشاءه الداخلية، نظراً لتفريطه المركب هذا، فكانت دموعه تتقاطر من عينيه، ولا يُسمع له صوت حتى غدا بكاؤه فيما بعد مثلاً يضرب فكان يقال (تبكي بكاء حسن منور)...

بعد أن انقضى من غسل أبيه، كفّنه وانطلق به بعد أن انتصف الليل، وهدأت الأنفس، وأسدل الليل عباءته المعتمة على جبين النهار، إلى أن وصل إلى قريته القديمة. كانت القرية أشبه ببيت أثري مهجور، لم يكن يسمع إلّا أصوات الكلاب، وعواء الذئاب الجائعة، وصوت النوم الأثيري الأزلي. سلك الطريق الموصل إلى بيتهم القديم الذي أحالته السنين إلى بناية خربة. كان مدعاة للتأمل، وكان عنواناً للتشرّد. همَّ الابن بحفر قبر لأبيه، لكنه فضّل أن يقوم بجولة في أنحاء هذا المنزل المتهالك، فأخذ يدور، وتدور في رأسه صور لا يعرف مصدرها، كانت الصور تتوالى وهو ينظر وكأنه

طفل أمام تلفاز، رأى صورته وهو صغير، ورأى كميات هائلة من الدم وقد لطخت جدران المنزل، وأصوات نساء، وبكاء، وصوت شاب وهو ينطق بالشهادة. عاد ليحفر قبراً لذلك الجثمان المسجّى، لكنه تذكّر لحظة الموت، وقف أمام هذه اللحظة بهدوء وسكينة، فالموت له قدسية لا يحقّ لنا تعكيرها، في لحظة حداد قصيرة وقفها أمام أموات، كأن قطعة من لحمه تندلق على الأرض، وقطرات من دمه تذكر أن الحياة أرجوحة صبي، فيها من التأرجح ما تختل أمامها الثوابت. فقام وحفر لأبيه في وسط البيت قبراً، وأوسع له فيه، ودفنه، وأخذ يصلّي عليه ودعا له بالرحمة إلى أن تجرّأت الشمس على المشرق، وبدأت تتبدّى مرسلة إشعاعاً ضعيف الإنارة.

الحياة ألم وألم، الحياة تبدأ بألم وتنتهي بألم...

غادر حسن القرية، وقد بدأت الأصوات تتعالى، وثغاء الشياه يصدح في الأفق ليعود نشازاً أكثر من ذي قبل. أصبح وحيداً في حياته، قمة الوحدة أن تجد نفسك في هذا العالم المليء بالبشر دون أي رابط يربطك بهم. اعتزل حسن الناس، وأخذ يردّد مقولة أبيه كلما خلا بنفسه (بني، الكره يولّد الموت)...

... حينما يستشعر المرء منا الموت، تموت كل الأشياء الرديئة في داخله. الإنسان لا يظهر إنساناً إلّا حينما يستشعر الموت...

بقي حسن على حاله إلى أن جاء ذلك النهار...

ذلك النهار الذي أسرفت فيه السماء بمائها، كانت كريمة حدّ البذخ، وكان حسن يمشّط الجبال والمراعي القريبة، بعيداً عن الناس سارحاً مع نفسه. تبادل للأدوار في دستور إنساني معتّم، إنسان قريب من الناس بعيد عنهم. هكذا هي حياتنا همّ النحن يضعف ويتوارى أمام همّ الأنا، الأنا كائن جبّار وسفّاح جائر. كانت السماء تمطر بغزارة، وبينما هو يسير سمع صوت ثغاء لأغنام قريبة، فاقترب فوجد فتاة بين غنمها ملقاة على الأرض، مغشياً عليها، فحملها وقاد القطيع أمامه، وبدأ يطبّبها وهو لا يعلم من تكون، فنظر إليها فوجدها قمة في الجمال. تقاسيم وجهها توحي بأنوثة طاغية تنبري خلف ثنايا هذا الوجه الأنثوي الجميل.

نظر إليها بتأمل، وأحسّ بشعور جارف تجاهها، شعور لا يعرف مصدره. وبعد انقضاء المطر، أخذ يجوب الأرجاء يتلمّس أخبار هذه الفتاة الضائعة. وبينما هو كذلك سمع مع أهل القرية أن ابنة الشيخ جابر خرجت ولم تعد، فأدرك أنها هي، فغادر المكان سريعاً وانطلق إليها وما إن وصل حتى كشف عن كتفها ورسم عليه تلك القنينة المشطورة كي يعرف الشيخ جابر أنها إشارة منه، وأنه لا زال حياً. فلما عادت إلى أبيها، وقد انصب على ظهرها ألم عظيم كان كفيلاً باستحضار عرجة كانت تظهر في مشيتها...

آآآآه ملابس بيضاء، قفازات، ملامح شرق آسيوية،

وأجهزة عدة تجوب أرجاء المكان ذهاباً ورواحاً، وطفل يصرخ في داخلي لا أريد أن أموت، الدنيا تضمحل، وتضمحل إلى أن تصبح أصغر من ثقب إبرة، محاليل، ونظافة عالية، ورطن بإنكليزية بلكنة مقزّزة. بدأت أعود إلى وعيي...

أخذ الشك ينخر قحف جمجمة الشيخ جابر، وأحسّ بشرفه يتمزّق، وقد فقدت ابنته عذريتها، لا سيما أنها وقعت في يد أحد ألدّ أعدائه، فجاءها مستلطفاً يسألها «بنيتي، إن من رسم على كتفك هذه الرسمة، لهو ألدّ أعدائي». وسرد لها القصة بأكملها، وكيف أنه طغى وتجبّر حتى إن ابنة الشيخ منور التي سباها قد ذبحها جوعاً، فلم يقدّم لها الماء والطعام مدة طويلة جداً فماتت... فقال لها آخراً:

ـ هل أصابكِ بمكروه....؟!

أخذت جميلة تغالب نشيجها، وهي تبكي بحرارة على موت تلك الفتاة ظلماً، وعلى طغيان أبيها، وعلى طعنها في عذريتها فقالت:

ـ لم يمسسني أبداً...

ثم أردفت بعد برهة ليست بالطويلة:

ـ أبي، إنه إنسان...!

لم يفقه الأب مقصد ابنته من عبارتها الأخيرة، ولم يدرك أنها سخرية سوداء لاذعة...

وفي اليوم التالي شاع في القرية خبر اختطاف ابنة الشيخ

جابر على يد «منور» وأعوانه، وكثر الهرج والمرج فبعضهم كان يقول:

ـ منور أصبح قاطع طريق، وجمع حوله الكثير من الدهماء والرعاع، واستقرّوا في أحد كهوف الجبل، يسرقون ويأكلون من أموال الناس. . .!

ـ يقولون إنه أصبح يأكل لحوم البشر. . .!

ـ الشيخ منور، رجل شريف، كل ما يقال عنه كذب وزور. . .

ـ يقسم أحد الرعاة أنه رآه يوماً وقد سرق شاة، وذبحها وأكل لحمها نيئاً. . .!!

ـ يقول عابر سبيل مرّ من هنا قبل زمن وأقسم على ذلك أنه رأى جموعاً من الناس وحولهم الكثير من الكلاب وعندما توارى خلف أحد الصخور رآهم يذبحون الكلاب ويشربون دمها وأخال بأنهم جماعة منور. . .!

ـ أنتم حمقى. الشيخ منور لن يفعل هذه الفعلة، وهو شيخ كبير فلن يمهله الزمن أن يعيش إلى هذه اللحظة. . .

وجد القول الأخير قبولاً عند الأكثرية، فبعضهم آمن بهذا القول نظراً لكبر عمر الشيخ منور، والزمن الذي قضاه مشرّداً. لكن بقي سؤال متعلق بأستار أفواههم لم يجدوا له إجابة: من رسم على كتف جميلة تلك الرسمة. . .؟!

تناقلت القرى خبر هذه الرسمة على كتف بنت الطاغية كما يسمّونها، كنسوة ليس لهن همّ إلّا الحديث، وبدأت تكثر

الأقاويل والشائعات حتى أن أحد رجالات القرى المجاورة، أقسم أنه رأى في منتصف ليل أحد الأيام، ملكاً فارداً جناحيه وقد ظهرت تلك الرسمة في الأفق الممتد أمامه. في تلك الأثناء سمع حسن كل ما يدور في القرية.

وفي ليلة من ليالي الشتاء القارص البرودة وبينما كان الشيخ جابر في مجلسه مع ابنته يتحدثان عن القرية وهمومها، وعن الأنباء المنبثقة من حناجر أولئك المستضعفين، لم يتنبّها إلّا وقد وقف حسن أمامهما على باب الحجرة، يحدّق فيهما بابتسامة رقيقة تنزّ من شفتيه:

ـ ماذا تريد...؟!

هكذا صاح الشيخ جابر، وهو يهمّ بالقيام... فنظر إليه حسن وهو يشير إليه بالجلوس بنظرة المنتصر، والحاقد، وقال:

ـ جئت فقط لأبيّن لك بأنني لم أمسس هذه الفتاة.

وأشار إلى جميلة ثم أردف:

ـ علّمني أبي ألّا أكره...!

نظر إليه الشيخ جابر بتأمل وفمه فاغر عن أسنان نصفها قد سقط:

ـ من أنت...؟!

ـ أنا حسن ابن الشيخ منور، وهذه الفتاة وجدتها في يوم ما مغشياً عليها، فقدّمت لها المساعدة، وأخليت سبيلها بأن

تعود إلى أهلها، لكن الناس لا يعرفون معنى أن يكون المرء إنساناً...!

ثم ابتسم ابتسامة تشي بالسخرية وقال:

ـ الإنسان كائن قذر، الرذائل تلوح في ناظره قبل الفضائل!!

كان شباب حسن يفتر عن رجولة، وتقاسيم وجهه توحي بكم هائل من صفات الرجال، كان مفتول الجسم، فارع الطول، لبشرته بياض ممزوج بالحمرة. نظرت إليه جميلة وأعجبت بشخصيته ونبله. كثيراً ما كانت تحلم بشاب يحمل هذه المواصفات، لكنها في قرية كلهم لها عبيد.

النساء الحالمات هنَّ أسهل النساء اختراقاً!

ـ إذا أردت أن أقف غداً أمام كل أهل القرية، وأبرّىء هذه المسكينة من عهر لم تقترفه فلك ما تريد...

ـ.........

ـ أنا ذاهب سأعود إليك خلال الأيام المقبلة، فكّر في الأمر ملياً.

ذاب حسن في جمال تلك الجميلة، وتبادلا نظرات الإعجاب بحذر شديد. الحب مقل في الحياء، فهو دائماً لا يطرق باب القلب، بل يدلفه بلا استئذان، الحب هو الشخص الوحيد الذي لا يستحي.

في صبيحة اليوم التالي خرجت جميلة وهي تهشّ غنمها أمامها، وثغاؤها يملأ الأرجاء. قادتها نفسها إلى تلك البقعة

التي فقدت فيها وعيها يومذاك، وأخذت تنظر يمنة ويسرة علّها تلمح هذا الحسن القادم، لكنها عادت في آخر النهار والخيبة مزمومة في طرف ردائها تجرّها معها. وعندما رأت ملامح منزلهم القديم وهي عائدة تنهّدت تنهيدة أسير وقالت:

ـ أصعب ما في الحياة ملاحقة حب هارب!!

لم تيأس جميلة، ولم يخامرها الريب في إحساسها بأن حسن سيأتي. المرأة حاسة مدهشة جداً في الحياة، المرأة بأكملها إحساس لا يخيب. وأخذت تجوب تلك المنطقة، وتمشّطها مجيئاً ورواحاً وهي تمنّي نفسها أن تجده، وبينما هي كذلك سمعت صوتاً من خلفها يقول:

ـ أيتها الجميلة، هل أجد عندك شربة ماء....؟!

انتفضت كالملدوغة، والتفتت إلى مصدر هذا الصوت، وإذا به نفس الصوت الذي تنتظره، حسن وقد انشقّت شفتاه عن ابتسامة جذّابة، أظهرت أسناناً بيضاء بياض الطحين. ناولته قربة كانت تضعها على كتفها بعد أن اقترب منها لخطوات كأول ذكر في حياتها يقترب منها كل هذا الاقتراب.

أحياناً تكون المرأة في مجتمع ما معتقلاً عسكرياً خطيراً جداً!

شرب بعمق، إلى أن تضلّع، وبعد أن انتهى، حمد الله. فباغتته بسؤال، لأنه كان في نظرها أشبه بغزال لا تستقرّ

الأرض من تحته. كان ذلك السؤال كفيلاً بأن يسمّره على هيئته:

ـ لماذا أتيت إلى أبي...؟!

أنزل القربة على الأرض، ومكّن مؤخرته منها وقال:

ـ عندما يشعر المرء بأنه مصدر للشر، عندها سيبذل ما بوسعه لنفض هذا النتن، إن كان نقياً، وإن لم يكن نقياً، سيتمرّغ في هذا الوحل إلى أن يموت عفناً.

عجبت من ردّه بادىء الأمر، وحاولت أن تظهر أنها قد فهمت ما قاله وبادرته:

ـ وهل كنتَ مصدراً للشر...؟!

ـ مذ رحلت من هذه القرية وأنا مصدر للشر، ولا زلت كذلك إلى أن أموت أو يموت أبوك!

ـ لكنك تبدو إنساناً طيباً!!

ـ أشكالنا قوالب صغيرة جداً، تحشر المرء في شيء أصغر منه...

ثم أردف:

ـ أنت ترين أنني طيب، وغيرك يراني الموت القادم من الجبال. الناس كالكلاب لا تجري إلا للقمة عيشها!

شاركهما الصمت فترة وجيزة إلى أن قطعه متسائلاً:

ـ هل تعرفين من أنا...؟ وما هي قصتي...؟

ـ نعم قالها لي أبي، لكن ما حيّرني ماهية هذه الرسمة...؟!

رفعت القميص عن كتفها، فرأى الرسمة التي رسمها بيده، فضحك ضحكة مواربة وقصيرة، ثم وضع يده على رأسها وبابتسامة:

- هذه الرسمة تبيّن حياة أسرة عاشت مشرّدة، وهي من علية القوم، أسرتنا المشطورة إلى قسمين كتلك القنينة. شعورنا بالانتماء لهذه القرية وحبها والحنين للعودة، وكرامتنا، وكرهنا لأبيك الذي قتل كل أهلي، ومحاولة الانتقام، أفرزت رسمة بسيطة كتعبير بدائي عن هذا الانتماء...!

ثم نظر إليها بنظرة صقر ثاقبة وأردف:

- في حياة كل شخص منا حياتان. فهو إنسان طيب، وهو أيضاً إنسان شرير. هذا التناقض في شخصية كل منا أدّى إلى التدافع في الحياة. إن الحياة مزيج رهيب من كل شيء كمرمى النفايات يجتمع فيه من كل شيء جزء!

(المآسي تلد الحكماء، المآسي أشبه بالحيوانات المنوية كثيرة لكنها تخلف في الأخيرة شيئاً. المآسي تخرج من ثقب ظلمتها نوراً يضيء كل الظلمات ويحيلها إلى نور ساطع).

هكذا كانت تخاطب نفسها بينما كان حسن يتكلم...

رآهم على هذه الحال أحد الرعاة، فانطلق إلى الشيخ جابر وأسرّ له ما رأى، فاستشاط الشيخ غضباً وصرخ بأعلى صوته:

- النعاج لا يليق بها إلّا الموت.

قطع الشيخ جابر على نفسه وعداً بأن يقتل هذا الصعلوك، وبعد أيام عاد حسن إلى الشيخ في ظلمة الليل وسأله:

ـ ها أنا قد عدت، هل تريد أن أقف في أهل القرية خطيباً وأخبرهم بأنني لم أمسس جميلة بسوء...؟

عجب الشيخ من قول حسن لابنته باسمها الحقيقي «جميلة»، لكنه نظر إلى حسن بخبث وقال كلاماً غلّفه الحقد:

ـ نعم أريد وقوفك هذا، وأريدك أن تبرّىء تلك المسكينة من ألسنة هؤلاء الرعاع القذرين...!

عاد حسن إلى كوخه، واستمرّ في مقابلة جميلة كل يوم حينما تخرج بقطيعها إلى المراعي. وفي يوم من الأيام، وبينما هما جالسان مستظلان بظل شجرة قال حسن:

ـ جميلة هل تتزوجيني...؟!

لم تنطق جميلة بأية كلمة، فقد أخذها الاستغراب، وهذا الوضوح، والشفافية، ولم تتجرّأ على نكء الكلمات أبداً... فأردف حسن:

ـ أنا لا أريد إلّا أن أتزوج منك، ونهجر هذه القرية الظالم أهلها... ما أجبرني على البقاء هنا هو أنني...

قاطعته قائلة:

ـ سأخبر أبي بالموضوع، وغداً تأتي في أهل القرية خطيباً، وتبرّئني وتبرّىء نفسك من الخطيئة، وسنتحدّث في الموضوع بجدية أكثر.

وفي عصر اليوم التالي، جمع الشيخ جابر أهالي القرية،

وهو يكبت في داخله حقداً حاول كثيراً التمرّد في الخروج. فقد فاتحته جميلة بموضوع زواجها من حسن، وأنه يودّ أن يتزوّجها، فتبسّم ابتسامة تنمّ عن سخرية مبطنة وقال:

ـ أردأ المواقف هي تلك المواقف التي ترى فيها الدود، يظهر النقاء، ويبالغ في رسم النظافة على أرجاء أي بقعة يسكنها...!

لم تفهم جميلة مغزى كلام أبيها، لكنها اطمأنت لأنها أوصلت هذا الخبر إلى مسمعيه. تجمّع أهل القرية وجاؤوا ينتظرون هذه المفاجأة وكل منهم يلوك في سرّه أشياء وأشياء.

صوت (1): أعتقد أنه يريد قتل أحدهم، لا يجمعنا إلّا إذا أراد أن يرينا جبروته!!

صوت (2): يقولون إن وفداً من قبيلة الشيخ «زعل» قادمون وقد جمعنا لنرحّب بهم!!

صوت (3): لا أعتقد أنا سمعت أحدهم يقول إن وفداً من بلاد الروم قادم، وأراد أن يبيّن لهم أنه يملك من الرجال العدد الكبير فطلبنا...

صوت (4): لننتظر حتى نرى ما عنده.

صوت (5): كيف يخرج من بيته ويُخرج أهل القرية، وابنته العاهرة في المنزل وقد خلا لها كل شيء...!

صوت (6): قبّحك اللّه اسكت... فلو سمعك أحدهم وأخبره فسيذبحك وسيعلّقك كما تُعلَّق الشياه...!

وبينما هم هكذا، وإذا بجواد ضخم أسود قادم من بعيد،

له قامة عظيمة، وما هي إلّا دقائق حتى مَثَلَ بين يدي الشيخ جابر. لقد كان حسن أراد أن ينفض غبار الخطيئة عنه وجميلة. وعندما وقف حسن أمامهم خطب الشيخ جابر فيهم قائلاً:

ـ يا أهل قريتي، هذا أخوكم حسن بن منور، ابن الشيخ منور وكلنا يعرفه، يريد أن يخبركم بأمر، وقد أبى إلّا أن يخبركم بنفسه...

عندها طلب الشيخ جابر من حسن أن يتقدّم، فتقدّم إلى أن مثل أمام الجموع بشموخ وقال:

ـ يا أهل قريتي، أنا منكم وأنتم مني، وقد لا تعرفوني، لكنكم لا محالة تعرفون أبي، وأهلي، وأسرتي. فأبي لم يكن يوماً زنديقاً، ولا عاهراً، ولا كذاباً، ولا ظالماً، ولم يكن يبحث عن الخطيئة أبداً، كان شهماً، وإنساناً صالحاً...

وهنا تداخلت الأصوات:

ـ أي واللّه لقد كان صالحاً...

ـ ونِعمَ الرجل...

ـ أرى فيه سمات أبيه..

ـ خرج من هذه القرية مظلوماً...

ـ حسبنا اللّه فيمن ظلمه...

ثم أردف بعدما أحسّ بخفوت الأصوات قليلاً:

ـ يا أهل قريتي، إن الإنسان مبدأ وقضية؛ فالنعجة تموت وهي نعجة، والكلب يموت دون أن يأخذ من صفات الأسود

شيئاً، والأسد يبقى أسداً ما بقي، فما أريد قوله، أن تعيشوا أحراراً، كما يعيش الأحرار، وأن تُبقوا لكرامتكم متسعاً كبيراً من حياتكم، وإلّا ستموتون كما تموت النعاج...

استغرب الشيخ جابر من كلماته هذه، وأراد أن يتكّلم لكن حسن أكمل:

ـ وإني واللّه سمعت حديثاً لا يخرج منكم، بأنني مارست خطيئتي من ابنة الشيخ جابر. هذا الفعل ليس من عادات الرجال، والرجال لا تنجب إلّا رجالاً، الرجولة تصرفات، وموقف، وما أردت أن أقوله لكم بأن هذا الحديث لا يليق بكم، وإن ابنة الشيخ جابر طاهر، ولم أمسسها بسوء، ولن أمسسها بسوء ما حييت... هذا والسلام عليكم...

تشجّرت الأصوات وردّات الفعل...

ـ إنه مثل أبيه فعلاً...

ـ يريد أن يبرّئها وهي العاهرة، أغبياء أولئك الذين يخالون بأنهم مبدعون في التنظير...

ـ صدق الأسود تبقى أسوداً لا تغيير...

ـ نِعمَ القول قوله...

ـ أظن أن الشيخ أرغمه على هذه الفعلة...

ـ تقول نساء القرية إنه يريد الزواج منها، وما هذا إلّا تمهيداً كي يسدّ الفجوة التي صنعها...

ابتسم أحد الرعاة وقد ارتسما أمامه فرآه ينهل من مائها، وفحيحها الذي يسمع يغري الأذن على الغواية...

ـ يظهر لي من جسمه الفارع، أن عضوه كبير. . .!

ـ أهذا كلام تقولونه، لعنة اللّٰه على الرجال أمثالكم. . .

أشار الشيخ جابر بيده أن يهدأوا، وعندما بدأت تتلاشى الأصوات شيئاً فشيئاً قال:

ـ لقد سمعتم كلكم ما قاله ابن منور، وإني قطعت على نفسي عهداً. . .

وعندما قال هذه الجملة، انطلق على حسن مجموعة من عبيد الشيخ جابر، وأمسكوا به، وكتّفوه، وربطوه، ومرغوا وجهه في التراب، وأخذوا يحشون التراب في فمه، وهو لا يملك أدنى مقاومة. اضطرب الناس، وتعالت أصواتهم، وهمهماتهم، فأكمل الشيخ جابر:

ـ وإني قطعت على نفسي عهداً، بأن أذبحه كما تُذبح النعاج، وأمثل به، ولأصلبنه، انتقاماً لشرف فتاة ضعيفة، عفّره بالتراب. . .!

فاقترب منه، وأخرج من خاصرته مدية كان حدّها يبرق من شدّة ما كان جاهزاً للنّحر، وذبحه كما تذبح النعاج، وأنثر الدم كثيراً جداً، وتعالت الأصوات وتشابكت. . . وانتشر الخبر في القرية، انتشار النار في لوح كرتوني، وبعد أن جزّ رأسه، صلبه في أول القرية عند مدخلها ورأسه مربوط لقدميه. . .

يقال إن جميلة جلست تبكي أمامه أسابيع، ويقول آخرون إنه سُمِع صوتها وهي تصرخ:

ـ والله لأعفرنّ شرفك يا قذارة الأرض. . .!

إختلفت الروايات حول هذه الفتاة، لكن أقربها للصواب أنها استحالت في آخر حياتها إلى عاهرة. الكل يرعى من مراعيها، ويتأمل تضاريسها، حتى إنهم ليقولون إن ابن الخطيئة الذي حملت به أسمته «جابراً». . .

لكن أهل القرية لم يمهلوا الشيخ جابر أياماً بعد مقتل حسن، فقد خطب أحدهم قائلاً:

ـ يا أهل القرية، لقد قالها ابن منور: (إن الإنسان مبدأ وقضية، فالنعجة تموت وهي نعجة، والكلب يموت دون أن يأخذ من صفات الأسود شيئاً، والأسد يبقى أسداً ما بقي، فما أريد قوله، أن تعيشوا أحراراً، كما يعيش الأحرار، وأن تُبقوا لكرامتكم متسعاً كبيراً من حياتكم، وإلّا ستموتون كما تموت الشياه. . .).

وحرّض أهل القرية على قتل شيخهم الطاغية، فاجتمعوا عليه وقتلوه وجزّوا رأسه ومثّلوا به كما فعل مع ابن منور، وصلبوه على مدخل القرية. . .

حتى إن أحدهم قال:

ـ ستبقى قريتنا مثالاً يضرب وسيبقى صيتها ينداح على مسامع الناس، لكن بئس الصيت هو. . .!

وبقيت تلك القرية تسمّى قرية الشيخ جابر. وعندما وضعوا الحدود كانت بالقرب من مكان تلك القرية، ولم يجدوا إسماً مناسباً أبلغ من اسم حدود جابر. . .

أحياناً أرى في الأسطورة شيئاً يعطي الحياة بُعداً آخر...

... نرسم حياتنا في الأساطير لأننا غير قادرين على إتمام الحياة في قالبها المأمول، نحن من الضعف أقرب، لذا نكون إنساً خرافيين، ونحاول تشكيل الأحداث وفق ما تمليه علينا قواميسنا، فالمرء حين لا يجد إلّا الكلام منفذاً يسمع منه، فسيصرخ بالخرافة ترميماً لواقع أبله!

هذا ما جعلني أسرد هذه الحكاية، وأنا لا أعرف صدقها من كذبها، كنت أسمعها وأقف بين حالتَي الصدق والكذب، لم أكن قادراً على تخطّي مرحلة حكاية من حياتي...

أعترف بأنني كائن حكائي الطابع، لا أتذكّر إلّا الحكاية بوصفها أستاذاً رديئاً، لكني لم أكن مضطراً لقولها إلّا لأنني حين أقف أمام الأمكنة لا أتذكّرها إلّا من باب الحكاية!!

... هااااااااا

(يربطنا بالحياة سائل لزج سرعان ما يتمزّق هو الخير الموجود فيها)!!

فضاءاتنا أشياء تؤكل

اصطفت الأشجار على جانبي الطريق بشكل منتظم، وصارت أشبه بحرس جمهوري في حضرة الرئيس المفدى، مستقيمة رافعة رؤوسها للأعلى، الإسفلت معبّد بطريقة غير جيدة، تظهر منه التجاعيد والتشققات، والهواء منعش يبعث الراحة، والأفق يغمض عينيه. لاحت الحمرة من بعيد كأطراف نار على موقد قديم، وصوت جهاز التسجيل يهدر في مقصورة السيارة:

ويـلـي مـن الـعـشـق يـا ويـل...

عـذبـتـنـي بـنـت الـلـيـل...

كـل يـوم أسـهـر بـمـرقـص...

كـثـر الـسـهـر هـد الـحـيـل...

كان تركي ينتفض باهتزازات ورقصات، كشخص أمسك به تيار كهربائي في عزّ هيجانه، قال عدنان مخاطباً ممدوح:

ـ أطفىء المسجل، نحن في وقت الغروب.

كنا نخاف وقت الغروب دوماً... لا أدري ما هو السبب وراء هذه الخشية...؟! ولا أدري من صنع هذه القناعة في

دواخلنا لتصبح ثابتاً...؟! فهل الغروب من الخشية بأن نتعتق من آثامنا فيه...؟! وكيف يمكن تصنيف الزمن بكل هذه السهولة...؟! وهل العقوبات لا تأتي إلّا غروباً فقط...؟!

توارى تركي، وبدأ يتقلّص خجلاً، عندما قام ممدوح بإطفاء جهاز التسجيل. كان وقع كلام عدنان على تركي أشبه بمبيد حشري رُشّ في منطقة موبوءة. سكن الهدوء معنا في المقصورة، وأنا أنظر بتأمل في تلك الأشجار المرتصة بأدب. لاح في خاطري أولئك العساكر الذين يحيطون بالآليات، وكثرتهم الباعثة للرهبة، عندها تذكّرت عساكر الجيش العراقي، إبان حكم النظام العراقي السابق، والحرب في العراق، ولاح في مخيلتي طيف تلك الفتاة العراقية التي ابتاعت نفسها بثمن بخس.

في دنيا الفقر، تؤول كل المبادىء والقيم والقناعات لأشياء دقيقة وصغيرة تتلاشى بأول نفس عابر!

حكاية سياستنا العربية مؤسفة، لعبتنا السياسية أشبه بمصارعة الثيران، حتى وإن كنا فيها الفائزين فإن لعبنا فيها مدعاة للتندر...!

وضع العالم العربي الجغرافي خطير جداً وحساس. كلنا حينما نتأمل في خارطتنا الجغرافية نجد أنها متمددة من وسطها، ومنبعجة عند الشمال والجنوب، تشبه خارطتنا الجغرافية هيئة الكرة الأرضية، هي كرة أرضية جزئية المنظر، لهذا نجد كل شعوب العالم تهوى العبث فيها.

إلى عدنان كنت أنظر بدقة. كان يعبّ من كأس كان في يده، فأدركت حينها أنه إلى الآن لم يغب. مضحك ذلك الشعور الذي نرى فيه من يدّعي الخير، وهو يمارس العهر علناً، ومؤلم الإحساس بأن التناقض سمة إلّهية تسكن في أفئدة بني البشر، نحن في تخاذلنا والحياة، نمارس الأمزجة المؤلمة، نمارس الرذيلة، وفي ذات الوقت ندّعي الفضيلة، الرذيلة والفضيلة في قاموسنا، مجرد مصطلحات برّاقة ننمّق بها حياتنا.

أرجأت سؤالي إلى أن يدخل عدنان في زمرة الأشقياء. الشقاء في بعض الأحيان يلد العباقرة. كنت أودّ معرفة كيف يفلسف السياسة في نظره وماهيتها، لم يخطر ببالي يوماً أن أستحث مفاهيمه السياسية، ونظرته للوطن العربي السياسي.

الحروب والنزاعات مفطورة والعالم العربي. لم تعش دولة من العالم العربي بدون حروب أو نزاعات، نحن والنزاعات في تبادل أدوار، تارة يكون لنا التسلط، وتارة يكون لها الطغيان والاستبداد، هذه التبادلية ولدت شعوباً مهترئة الفكر والمشاعر. فيما بيننا وبين أنفسنا نجد الشخص يظهر الولاء والانتماء أمام الأعين، وفي الخفاء يلعن كل من حوله بدءاً بزوجته. هذا الاختلال الواضح في مفاهيم القيم الروحية يتبدّى بعد سلسلة عظيمة من الأحداث السياسية المكررة، ولادة هذه الشعوب تشبه إلى حدّ كبير عمليات الإنجاب الطبيعية، فالمرأة الحامل تمرّ بسلسلة متكررة من الأحداث

المؤلمة في مجملها، ولا تخرج من هذا الألم إلّا بعد لفظها لتلك القطعة اللحمية في داخلها. نعيش الآن في المرحلة التي يعيشها الرضيع، لا نستطيع أن نحتكم لأنفسنا ونعتدي عليها، بينما أمنا تعاشر أبانا، وستحمل منه ولداً آخر، يصرف عنا الاهتمام...

نظرت إلى عدنان، في وقت أشاحت فيه العتمة عن وجهه الدميم، وبدا لي أنه ثمل للغاية، لا أدري لماذا أحب أن أناقش عدنان وهو سكران...؟! بالسكر يكون الإنسان عارياً حتى من ألفاظه!!، قلت له والخبث قد تطاير من داخلي كحداد أبدع في تلحيم قضيب معدني والشرر يتطاير من جانبه غير مكترث به:

ـ عدنان، ما رأيك في الوضع السياسي العربي...؟

دوت ضحكة مجلجلة، اخترق قحف جمجمتي، وعدنان يضرب كفاً بكف:

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون، أنت مالك ومال السياسة، هل أصابتك نظرية التبلد...؟!

أذهلني بقوله نظرية التبلد، ولم أعرف ما الغرض من ورائها، وعندما هممت بالسؤال عنها قاطعني:

ـ الوضع السياسي العربي كأي وضع سياسي في العالم. العالم بأكمله يعيش في وضع قذر، لعبتنا في الحياة لعبة رديئة، نعيش لنحيا، وإذا اطمأننا للحياة، باغتنا الموت فجأة.

كنت أكره نظرة عدنان الدونية للحياة، وأحببت أن أنهي هذا الهذر فقلت:

ـ أنا أسألك عن الوضع السياسي، وأنت تقول لي حياة وموتاً...؟! حسناً لا أريد معرفة أي شيء...

ـ مشكلتك يا فارس أنك تعاني من بطء الفهم. الأوضاع السياسية في كل العالم كالموت والحياة، فهذا نظام يموت ليحل مكانه نظام آخر، وهو حياة له من جانب آخر، لعبة القذارة هي من حلبت من أنفسنا تبلداً مزمناً، وهذه هي نظرية التبلد...!

ـ ماذا بكما، من يراكما يظن بأنكما محلّلان في إحدى القنوات الفضائية!!

هكذا صاح تركي وهو يضحك، فقلت:

ـ إذا أردنا أن نطبّق نظرية التبلد هذه على كل الأشخاص في عالمنا العربي وفقاً لقولك يا عدنان لنا أن نقول...

شبكت أصابعي في بعضها البعض، وبدأت أنحت هيئة المنظرين وأردفت:

ـ لنا أن نقول، إن لنظرية التبلد هذه ردود فعل كأي نظرية أخرى في الحياة. هذه الردود تتفرّع إلى فرعين، الفرع الأول أن تخنع وتتبلد تبلداً كلّياً، بحيث لا تنبس بأي كلمة في هذا المجال...

قال ممدوح وهو يبتسم، وقد راق له الحديث:

ـ والفرع الآخر...

ـ الفرع الآخر، لديه ما يمكن أن نسمّيه تبلداً جزئياً، هذا التبلد يتشظّى إلى جزءين، الجزء الأول نراهم في كل وسائل الإعلام، المناط بهم العمل السياسي التنظيري، هؤلاء أشبه بإكسسوارات قابعة في محل لبيع البضاعة الرخيصة والرديئة الصنع، شكلها جميل لكن مضمونها لا يتعدّى الأربع والعشرين ساعة من الصلاحية. والجزء الثاني هم القابعون في المناسبات والولائم والتجمعات الاجتماعية الخالية من الرقابة، هم يلعنون كل السياسات في العالم لكن بخفية!!

ابتسم عدنان وقال وهو يصفق:

ـ أحلى تحية للوطن العربي المعطاء. . . !

وأردف ممدوح:

ـ فارس لم أكن أعلم بأنك منظّر سياسي. . .

قال عدنان:

ـ كل أفراد العالم منظّرون سياسيون، وأنا أراهن على هذا القول. المشهد السياسي لكل بقعة في العالم ينجب ساسة حمقى. . .

وأشار عليَّ بإصبعه، لم يكن مني وقتئذ إلّا أن أضحك، رغبة مني في عدم تعكير صفاء جو عدنان. . . فقلت:

ـ الإنسان كائن أحمق، تدفعه للحماقة فطرة قديمة قدم الأرض. . . !

ساد الصمت مرة أخرى أرجاء المقصورة، وبدأ الهواء يدخل من المسام الضيقة في زجاج السيارة، باعثاً أصواتاً

خفيضة تدعو إلى الركون. وبعد فترة تذكّرت تلك الفتاة التي قابلها عدنان عندما كنا نصرف النقود، فقلت لعدنان:

ـ لم نعرف قصة تلك الفتاة التي قابلتها عندما كنا نصرف...

حدجني بنظرة غريبة وهو يقول:

ـ النساء أغرب مخلوقات على وجه الأرض، لأنهن مزيج من كل المخلوقات، حتى الحجارة...!

نظر تركي إليه وبنبرة ساخرة قال:

ـ دع عنك الفلسفة، وقل لنا القصة...!

ردّ عليه عدنان بأسلوب ساخر أيضاً:

ـ إن العظماء مدفوعون للحياة بطريقة ساخرة!!

من ينتظر أن ينصفه الزمن فإنه يقتات البلاهة عمداً...

الرقة أعظم سلاح لامتلاك امرأة...!

لم يخيّل لي بأن العالم العربي سلعة مستهلكة، ولم أكن بتلك القوة التي يمكن أن أحلل كل ما حولي بأغنية مبتذلة. نُحارب كي نُستبَز في خيراتنا. الأعين تراقبنا بشبق مادي مضحك، ونحن لاهون نخال بأن ذلك إعجاباً، بينما الإعجاب والنظرات الشهوانية يفترقان بفرق يتسمّر على شفتي الناظر، إن كزّ عليها بقوة فالشهوة تتقاطر من عينيه كصنبور مياه لم يحكم إغلاقه، وإن كزّ عليها برفق فالإعجاب رائده في تلكم الحالة. نظريات تفصّل حياتي بشيء من المرارة، تحيلها إلى خردة. إن الناس مجبولون على الشر إذا لم يجدوا أرغفة الخبز ليتناولوها باكراً... اختزال عدنان جعل مني إنساناً تشاؤمياً، كارهاً لكل المسميات الجميلة، وكل الأضواء الخافتة التي تشي بالجمال؛ عندما تخفت الأنوار، ويصير الكون كله معلّقاً على حدود تلك الأنوار. فكل الذين يعيشون في ذلك النطاق سيجترون جمالهم خلفهم ببهاء، وإن

زادوا التوغل فيما بعد هذا الخفوت، سيحترقون في العتمة!!

بدأ يتحدث عدنان بعد أن تعاركنا بالألسن، فقد تذكر السوق الحرة، وأنه لم يشترِ منه بعضاً من ماء الروح، لأنه كان من أفضل البقاع التي تُعنى بماء الروح هذا. لم أكن أظن أن عدنان مسعور لهذا الماء بهذه الطريقة، سعاره هذا صيّره مخلوقاً عجائبي التصرفات، والصورة!! فقد هجم علينا وبدأ يناطحنا بالكلمات السمجة.

كل امرىء في الحياة له أشياؤه التي يتودّد لها وحين يجد أنه اغتيل في أحدها سيكون كالحيوان، إما أن يهرب ويتركها، وإما أن يموت دونها، والحيوانات مخلوقات لم تخلق إلّا لتبين لنا قيمتنا نحن البشر...

أخذ يسرد قصته:

ـ بينما كنت أهمّ بالدخول إلى المطعم، صدفتها عند بابه. كانت جميلة حدّ أنني لم أستطع أن أنظر إليها بتأمل؛ في الخجل غارت تصرفاتي، لمحتها بنظرة خاطفة، كلص محترف، حدجتني بنظرة ملؤها الاستصغار والتقزز، لكني لم أعطها بالاً. دخلت وطلبت أربعة أكواب من الشاي، «سكر زيادة»...

باغته ممدوح:

ـ أفاً على الرجال، ذي أخرتها...؟!

ـ أنت آخر من يتكلم عن الرجولة، الرجولة لك كحلم إبليس بالجنة!!

ثم نظر إليه بتشفٍ وأكمل:

ـ وقفت أمام العامل أنتظر الشاي، مرّت بجانبي، وعندما لم أعطها أي انتباه، تأففت بصوت مسموع، عندها تدفّق الدم إلى رأسي سريعاً، وبدأت حرارة جسمي ترتفع غضباً، وقلت بصوت ساخر (المرأة أشبه بقدر الضغط، وعاء يحمل في بطنه الملذات لكنه لا يكف عن الصراخ)، وما إن انتهيت من هذه الجملة، حتى سمعتها تقول بعد ابتسامة ساخرة نزت من شفتيها (الرجال كالفلفل الحار، يعطون الحياة مذاقاً جميلاً، لكن في كل الأحوال لهم حرارة لا تطاق). عندما سمعت مقولتها تلك أخرجت من جيبي علبة السجائر، وأخرجت منها سيجارة، أشعلتها بطريقة فنية رائعة، وأخذت أمزّها ورغبة ملحّة تعترك في داخلي بأن أستنطق تلك الفتاة...

أخرج عدنان سيجارته وكأنه يعيد الموقف مرة أخرى، ويمثّل دوره فيه بحذافيره، وأخذ يرتّب دوره في ذلك المسلسل بأسلوب أروع. جميع أبطال السيناريوهات في العالم رسم لهم الخط بشكل عريض يتلاعبون فيه بأريحية عشوائية، عشوائية لعبهم هذا لم تكن إلّا بطولة مجيدة في أعين مشاهدين يلوكون المشاهد ببلاهة...

أكمل: وقفتُ بجانبي، نظرت إليها بنظرة امتزجت فيها رغبتي الجامحة، وقلت:

ـ نطلب لك شاي...؟!

لم تتكلّم بادىء الأمر، ولم تلقَ لي بالاً، فأشرت للعامل

بأسلوب بهلواني، واحد شاي سكر زيادة. ابتسمت ابتسامة غواية، عندها أدركت رضاها، دائماً رضا الأنثى يتصورخ من ابتسامة أو رأس مطأطىء، فبادرتها:

ـ الأخت أردنية...؟!

ـ لا سورية أعيش في الأردن.

ـ بلاد الشام منذ القدم معروفة بجمالها، يتدرّج هذا الجمال من جمال الأرض إلى جمال نسائها...

ـ...........

ـ كل الجمال يقف عند نقطة معينة.

ـ ما هي هذه النقطة...؟

ـ عند تلك النقطة التي يرتسم فيها الكذب على شفتي أي كائن!!

ـ وما دعاك لقول هذا الكلام؟

ـ الشعب العراقي شعب مثقف، هم ينبوع للعلم، وأصل كل العلم العربي، يكفي أن الحجاج كان حاكماً لها...

ـ...........

ـ لهجتك العراقية، هي السبب وراء قولي هذا!!

ـ الحجاج ظلم العراق، وأهلها، كل حكام العراق على مرّ العصور حجاج.

ـ البنية الاجتماعية في العراق تحتّم أن يتحجّج الحكام. العراق هو الشعب الذي لا بدّ أن يُعنف. تمردكم أهم عامل

في الطغيان الحاكمي، كلكم طغاة حتى في جمالكم الخلقي...

ـ ها ها ها، إذن لا بدّ من الإجحاف...؟!

الإجحاف ليس في كل الحالات حفر أخاديد يحترق فيها الشخوص...!

ـ بمعنى...؟

ـ بمعنى أنني حينما أمارس الظلم على أي كائن، فليس بالضرورة أن أكون ظالماً. الحياة أشبه بمباراة لا بدّ من التدافع فيها، ولولا وجود الظلم لما وجد الخير...

ـ فلسفتك للحياة جميلة جداً.. يبدو لي أنك فيلسوف...

ـ إن كل فلاسفة الأرض، أناس عاشوا كي لا تموت شعوبهم مغطاة بوحل من القيم الفاسدة، بينما أنا أموت وأنا مغطّى بقشرة لن يفهم كنهها أحد.

ـ لا أعرف ماذا تقصد؟

ـ مصيبة حينما يكون كل العالم من حولك لا يعرف إلّا نطاق أعضائك الخارجية، والمصيبة الأدهى عندما يطوّقك التحجيم ككلب حراسة!!

ـ...........

ـ أنا وملايين الشباب في هذه المنطقة من العالم، نموت دون أن يكون لنا بريق يضيء عالم الشباب المعتّم الذي عُنون عليه بأن الشباب دهماء ليس لهم هم سوى القذارة. محكومون نحن بلحظة طيش، أو ممارسة إنسانية غريزية.

هنالك حيث الشباب يكون للعقل صدارة مجلس الحياة لكن يا ليت قومي يفهمون!!

ـ أأنت سعودي...؟

ـ نعم...

ـ لتحمد اللّٰه على نعمة الأمن والاستقرار، فالحروب التي مررنا نحن بها كانت كسكين مهترئة تقطع أوصالنا دونما تهذيب.

ـ الحمد للّٰه نحن نعيش في أمان، لكن في كل الأمكنة يجد الناس أنهم في معضلة، وأنهم يحتاجون إلى دفعة نحو قيم الأفضل. أحتاج إلى دفعة صادقة عاقلة مع نفسي، وأحتاج إلى أن أُعطي ولو مرة قيادة دفّة الحياة!!

في تلك الأثناء، تنبهتُ لوجودكم في السيارة، فقلت لها:

ـ رفاقي في انتظاري لكن هل لديك هاتف، أولو أعطيتني رقمه...؟

ـ نعم لكن أعطني أنت رقم هاتفك...

كانت محفظة نقودي متخمة بأرقام هاتفي، فأخرجت من جيبي رقم الهاتف ودسسته في يدها، وتناولت أكواب الشاي بعد أن وُضِعت متراصّة بجانب بعضها البعض في قطعة كرتونية. وحينما أردت الذهاب نظرت إليها بعد أن انبثق من محياي نور ابتسامة ساطع وقلت:

ـ فرصة سعيدة، نحن ذاهبون إلى سوريا...

ـ ربما نلتقي هناك...

ـ حسناً إلى ذلك الحين أستودعك اللّه الذي لا تضيع ودائعه . . .

وحين هممت بالرحيل، سمعت تمتمة لم أتبيّن منها الشيء الكثير. حاولت جاهداً أن أستوضحها، فكانت تخفيها قدر المستطاع فسمعت آخر عبارة كانت تقول:

ـالحياة بلا رجل، كزهرة تزيّن مزهرية في صالة فاخرة!!

ركبت السيارة، وتآكلت مع نظراتكم، ولم أعد أتذكّر إلّا حلم اليقظة!

كان عدنان وقتئذ مخموراً، ورائحة المشروب والتقزّز يفرد أجنحته على محياي. . .

دخل أحدهم عليَّ. . . فسألته:

ـ بشر. . . ؟

نظر إليَّ بقبح وكأنه يقول:

ـ الأمل في الحياة يعيش في منطقة كوخز الإبر، إما أن يشعّ من تلك الوخزة الدقيقة، أو يموت متدثّراً تحت أكوام هائلة من الصفات الإنسانية!!

إن الجزيئات الصغيرة قدر بارز

الوصول مسألة رياضية تتداخل فيها الأرقام ليخرج الناتج عشوائياً!!

اللوحات الإرشادية تسمّرت على جانبي الطريق. كانت أشبه بمُضيّف ينتظر مقدم ضيوفه ويرحّب بهم. تململت من وقفتها، وجاد وقوفها بنوع من تكرار مأساة حياة بالية عانت فيها عنت التكرار، ثباتها يحلب من ذاتي الكره للرتابة، والتبلد الرديء. لوحاتنا الإرشادية حياتنا بوجه آخر، تكرار وتكرار، عبثاً تذهب ابتساماتها، كل اللوحات تعبرها الأجساد لا تلقي لها أي انتباه، وضعها يشبه يتيماً فقد أهله، عبره الناس كلوح خشبي ملقى في زاوية بعيدة من حياتنا، تسائلنا الوجوه العابرة، فندسّ أجسامنا في الفراغ الطويل غير آبهين بكل عواصف الأسئلة.

عبرنا «درعا» و«بصرى الشام» و«الغاربة الغريبة» و«خربة غزالة» و«عتمان» و«تل شهاب» و«مزيريب» و«الشيخ مسكين» و«الكسوة» و«الغزالة» ولم يبقَ قرية من قرى ريف دمشق المنطرحة بجانب الطريق إلّا ودسسنا أعيننا في طياتها

المتباعدة.

الخبث إنسان يجري معنا... نمارس به طغيان نظراتنا ونحن بعيدون عن الرقباء. فالرجل يراوغ بعينيه الأجساد الأنثوية بمعية زوجته، ويخاتل غطاء وجهها بتصرفات الرذيلة، دون رقيب أو حسيب، يخونها بعينه، وبداخله، إذن لماذا نتزوج أصلاً...؟!

خيانتنا باتت تعيش في الأوساط الشفافة، وأضحت تنخر أعيننا وأجسادنا ومواطن الشهوة في جبروت الرجل القاصر، المرأة تفتك برجولة زوجها وهي بجانبه، تلحظ فتونة الرجال، وشعيرات ذقونهم بنهم وشبق يتوارى وراء حجاب أسود صنعته العادة عنوة!

كثيرون من يمسكون بحبال التلاعب المرجعي الأبدي، ويتحايلون على قمم الإنسانية بأساليب موغلة في الصبيانية. يتلذّذ البشر بفعل خطايا النفس، وشهوات الأجساد المائلة للقذارة، ويبقى المظهر شبحاً عظيماً، وغولاً سادراً في خداعه.

كان ممدوح يقود وهو مترنّم على الأنغام المنبثقة من جهاز التسجيل. الغناء أكبر مولف للمشاعر والقلوب في هذا الكون، وأكبر قطعة مغناطيسية للبشر، الغناء كالصمغ، له رائحة نتنة وله طعم مختلف، لكنه يساعد في التلاحم. مشاعرنا أقصوصات ورق مترامية في أنحاء كثيرة، يقاربها الغناء ويلصقها ببعضها البعض، يجعل منها أشباه كتابات،

وتصاريف بلاغية ونحوية، وتعود في الأخير جملة لا محل لها من الإعراب!!

كان تركي يهتزّ ويتأرجح والأغنيات، وفي داخله سيل عارم من النزوات التي كبتها في عالمنا الأثيري الذي نحياه. نحن أشبه بقطع «الضومنة» يتلاعب بنا الزمن والمجتمع، وإذا ملّوا منا أعادونا إلى ذلك الصندوق المستطيل وأقفلوا علينا بإحكام، لحظية سعادتنا آنية ومرّة، حسرتنا مع قيمة أجسادنا البراقة. أصبحنا أداة لإسعاد الزمن والمجتمع، وإن ضاع أحدنا أصبح وجودنا مجرد مكعبات محفورة لا قيمة لها، يعود المجتمع ليبعثرنا خارج إطار الحجرة، يرمي بنا في سلة المهملات. نحن كائنات وقتية، لنا قيمتنا في وقت معين، وفي باقي الأوقات نصير عبارة لاكها فم عجوز خرف، ولم يحسن تقطيعها، وهذيانها أخذ يهدر في كل حدب وصوب!

عدنان هو الشخص الوحيد فينا الذي يدرك قيمة حياته لا زال ثملاً فوق العادة وكان يقول:

ـ يا شباب، الحياة تسير في خطين متوازيين، إما حرية مطلقة، وإما كبت مدقع، في الخيار الثالث أعيش أنا، حيث أمثل بين هذين الخطين بخط رأسي، ليصبح شكل حياتي مستطيلاً، له قاعدتان، حين أرتكز على الحرية أعيشها وكأنني أحياها لأول مرة، وعندما أستند إلى الكبت ألعن ما في داخلي وأسبّ. اللعن والسب مصطلح أشبه بسيف في يد معاق، ألا لعنة على كل آيات الكبت... ويبدأ في الضحك

الهستيري. . .

دائماً ما كان يحمد ربه على أنه قطن قرب الحدود. الخروج خارج الإطار في نظره معجزة، إن تخرج إما أن تكون خارج الإطار، أو إطار الخارج نظريات فلسفية تتناولها أذهاننا في سرد ضحكي غاية في السرور، هو كالجرس مزعج لكنه يوقظنا من النوم.

قرأ يوماً كتاب أدونيس «المحيط الأسود»، وجاء وهو يترنّم ويضحك وهو يقول:

ـ يقول أدونيس (ما السر في أننا نحن العرب نحب القصص، ولا نريد أن نخرج من الرواية؟؟) أجيبوا مالكم تنظرون. . .!!

وبعد أن وجد أننا لا نقوى على الإجابة قال:

ـ أسرار حياتنا عبارة عن مكاشفة غبية، لم نستطع يوماً أن نخفي أي سر. أجزم بأن أدونيس يدرك ذلك السر، أجزم بأن سؤاله هذا لم يكن إلّا سخرية سوداء لأذهاننا؛ نحن العرب آلات صدئة أكل عليها الزمان، نحن نهوى النوم، وتأسيس الحسرة، إن السر وراء كوننا مخلوقات تحب القصص، أننا بشر نعشق النوم، ونهوى إغماضة الأعين، القصص هي السّبب وراء هذا النوم، كالأطفال نعيش، على باقي أمنيات كصروح الرمل، نحن نحب الرمل، ها ها ها. . . القصص زيف للواقع، الروايات كذب مبطن، نحن كذابون!!، أنظروا إلى أنفسكم وأحوالكم، أنتم قصيدة شاعر حداثي، متراصون

بجانب بعضكم البعض، لكنكم عمق للتفكير، المتأمل فيكم في توغل يجد أشياء وأشياء وأشياء!!

آآه منك يا عدنان، أتريدني أن أموت؟!!

في أسرّتنا الليلية التي نخلد إليها للنوم، أشكال كثيرة للقيم، نخون، ونبكي، ونضحك، ونمارس قبح المبادىء. هي نحن، وفيها نكون عراة من كل شيء، حتى رتوش القيم الجميلة تضمحل مع أول نفحة من رائحة الغطاء، في الأسرّة الليلية نعشق الفضيحة، ونعشق التحرر، أسرّتنا الليلية نظرية طبية غاية في التعقيد، ليس فيها إلّا جانب الروح. الأعضاء مجرد مشارط مهترئة، وهي نواة الإنسان الحر البذيء الذي خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، ألا يكفي على قذارة الإنسان أنه يخرج من أقبح الأمكنة في الرجل والمرأة...؟!

الحياة في سوريا بسيطة. بدأت السيارات تختلف، موديلات قديمة تشقّ الأرض بتؤدة، سيارات قديمة لكن عمرها لم ينته بعد. الناس في شغل شاغل، كل يبحث عن مأوى له، لا أحد يلتفت لأحد. أرخى الليل أجفانه على الأرض، وبدت أنوار السيارات باردة وخافتة، تتغيّر الأنفس في الليل، ويصبح طابع الليونة هو المهيمن، كأنها قطع حديدية وضعت على مجمر وبدأت تلين.

النهار مدعاة للريبة والشك. في النهار تكون الأنفس أكثر توهجاً وكأن الشمس نار تصلي هذه المشاعر حتى تتوهج

وتحترق، وتصبح تصرفاتنا في أيدينا كهراوة نتلاعب بها كيفما نريد، كلاعبي رقصة «المزمار» يتلاعبون بشوماتهم مثلما يريدون. في الليل نهرب، نتوارى عن قذائف النهار المرعبة، نحاول تدنيس مشاعرنا بتدليس الليل، في الليل يكون التزييف وجبة عشاء فاخرة، وإلّا لماذا اللصوص لا يسرقون إلّا ليلاً؟ لأنه أنسب وقت لتبديل المبادىء والقناعات، نعيش كالأفاعي، نبدّل جلودنا مثلها، لكننا سبقناها وتجاوزناها بأننا في كل ليلة نبدّل هذه الجلود وننسلخ منها.

تراتبية هي حياتنا، نغوص في الوحل بانتظام، ونخرج منه بانتظام ويتبقّى التأنسن واجباً يومياً نقدّمه صباحاً، ونحرق أوراقه ليلاً.

دسّ ممدوح السيارة من تحت الكوبري، وكأننا لصوص يودّون الهرب. سلكنا الطريق الموصل إلى برزة بآلية منتظمة. بدت عمائر الأربعين بجانبنا وكأنها مدير مدرسة في حضور معلميه، يبرز أنفة طاغية، منظرها يوحي بالرهبة المبطّنة بالضحك. لم تكن كتلك العمائر التي تعوّدنا على أنفتها في بلادنا، هيبة مركبة كالكثير من الهيبات التي يتوشّحها الكثير من الناس في هذا العالم. عبرناها وتركناها خلفنا كأي شيء مرمي. وصلنا إلى كوبري الثورة ذلك الذي يسبق حي «ركن الدين»، هذا الحي الذي كثيراً ما رأيناه في المسلسلات السورية العتيقة، في هذا الحي وقف كثير من الممثلات السوريات الجميلات. أتذكّر الآن كم كنت مولعاً بتلك الأنثى

الجميلة التي تدعى «سلاف فواخرجي»، كم كنت أتمنّى لو أجلس معها لفترة بسيطة لأتأمل جمالها الصارخ. كثيراً ما كنت أُعيّر نساءنا بقبحهنّ الشديد مقارنة بها، هذا الحي الذي على يساري بأشجاره المزروعة بالقرب من المنازل وفي الطرقات، تمنّيت لو أنني أستطيع أن أقطنه مدى حياتي. أمانيّ هي المعجزات التي وضعتها في حياتي كقلادة لفّت عنق فتاة بريئة. أشياء جميلة تخامر تفكيري حينما أرى ذلك الحي، فيه قطنتُ في إحدى رحلاتي، وقابلت «نورة»، عشت وإياها ساعات من أفضل ساعات عمري، حينما أتت نظرتُ إليها برغبة جامحة في قطف جمالها الأزلي، دخلت بها ومكثت معها قرابة الساعتين، يومها لم أستخدم أي واقٍ، شاركتها في لحمها، شاركتني تأوّهاتي، كانت تتأوّه وأنا بين أرجلها جسد ضئيل لا يشعر إلا بعضوه فقط. في الجنس يفقد المرء الإحساس كله، وتتغيّر المسارات الإحساسية لتنحسر في عضو الرجل وفرج المرأة، وعندما وصلت سقف كفاية المتعة، لم أخرجه من فرجها وأنزلت كل حممي في داخلها، عندها نظرت إليّ بابتسامة أنثى مكسورة وقالت: «لا عادي ما عليك»!!

بدأت تتبدّى «مساكن برزة» من وراء الأبنية، وبدت كأنثى جميلة غاب جمالها وراء دهس واطئيها. عندما وصلنا إليها قال تركي مخاطباً ممدوح:

ـ لنتسكع بنا قليلاً في أرجاء برزة.

أخذنا نجوب آفاق برزة، هذا كشك اللورد، وهذا الكشك الفرنسي، وهذه بناية عطر الندى، وهذا مطعم مرطبات الإيمان، ومطعم حضرموت، وهذا مطعم أمية، وهذه خمارة الملك، والفرات، وهذا كشك علي الدولي، الشارع مزدحم بالناس، غصّ بهم حتى لكأنه سيبتلعهم. في الأماكن المزدحمة يظهر تباين الناس كأنك في محل بيع للأقمشة، الزحام أشبه بالمسائل اللغوية، هي في منظور العامة أمر بسيط جداً، لكنها في منظار أهل الاختصاص تنبىء بمعضلة.

توقفت السيارة أمام أحد مكاتب العقار، ترجلتُ من السيارة. وما إن بدت هيئتي واضحة بجانب السيارة حتى انتفض شخص من داخل المكتب وهو يهتف، «هلا واللّه»، «حيو أبو سعود». كان «عبدو» سمسار شقق، ويمتلك مكتباً عقارياً لتأجير الشقق إلى السياح القادمين من خارج البلاد، وكانت تربطني به علاقة وطيدة. سلمتُ عليه، استقبلني بحرارة، وحميمية، قربته من الرفاق، وعرّفته عليهم، وقلت:

ـ عبدو، نريد شقة نظيفة وواسعة وسياحية.

ـ على راسي يابو سعود كل الشام تحت أمرك.

سألته عن عدة شقق كنتُ أعرفها، وأعرف جمالها ونظافتها وبعدها عن مواطن الضوضاء، فقال لي بأنها مستأجرة. استلّ مفتاحاً من المكتب، وركب معنا في سيارتنا، واتجهنا إلى الشقة وعدنان يقول بلكنة مواربة وكأنه يخاطب نفسه:

ـ المصلحة مدرّة للكلام الجميل، عندما ترى العبارات

المنمّقة، والبشاشة المصطنعة، عندها لا بدّ أن تحرص على أن تكون يقظاً!!

في المجهول تنعدم المحسوسات

شعور خفي ينخر ذاتي. وهمٌ يبدّد وحشة الأحلام في داخلي. أشعر وكأن العالم يموت في نظرات طائشة، يتقلّص إلى أن يصل إلى نقطة رمادية اللون. كل الأشياء حولي ناصعة البياض، إلّا وباء استشرى في كينونتي، ضعف توسلاتي، وجبن يعرقل سير الفكر والتعقل، تراكيب تبدي أشياء من جزئيات الحياة التي أعيشها، زحام شديد يفضّ بكارة عالمي، هل العالم يشعرون بما أشعر...؟

معاناة، وألوف مؤلفة من روايات الألم القديم تتكدّس في مخيلتي، حالي الآن أشبه بغصن يابس ممتدّ من شجرة عملاقة وضخمة، لا تأبه بوجوده الكائنات الأخرى، يباس كل المشاعر في حضور جبروت المرض، وجفاف كل الأفكار في سلطة الفايروسات المعقدة.

ماذا يفعل الأصدقاء الآن...؟ هل يحسون بأحاسيس معطلة...؟ أم أنهم يدنون من ملذاتهم وهم فاغرو الأفواه...؟!

إن الإنسان في لحظة ضعف، يشكّل أحاسيسه في قالب

أقرب للغباء، لأن الضعف وليد الغباء دوماً!

الملذّات في دنيانا أصبحت عشباً يأكله خراف البشر بلذّة، ونشوة تجاوزت كل الحدود. هل أنا محتاج إلى من يلقّمني حجر موت العار سريعاً...؟ أم أن في عذابي هذا دروساً مستقبلية لكائنات لم تخلق بعد...؟

كل الأشياء الثمينة تخسر قيمتها حينما تجد سوقاً كساداً تباع فيه. أنا عنصر فلزي دقيق جداً في أرض بوار، لم تطأها قدم بعد، ولم تلوثها جرثومة الإنسانية، أصابني داء الفكر في أواخر عمري، أيقنت بأن المواد لا تذوب إلّا بعامل خارجي، وأنا أذوب بعامل داخلي، تنافر عجيب فكيف لي أن أكون مادة...؟!

الإنسان مادة هلامية لا يعرف كنهها أي مخلوق.. هو من الصعوبة بحيث نراه ملكوتاً خاصاً وهو في الأصل جرثومة نهمة تأكل ولا تشبع.

إن القياسات التي نقيسها في عالمنا تؤطر بؤسنا المركّب، وتحدّد مسار الشقاء، ودورانية مجرات الحياة المستديمة، قائمون على العدالة أولئك الذين يشعرون بأن الإنسان عصا تهمّش وتضرب وتكسر، وتهتك، ومخلوطون بقيم السمو أولئك الأشخاص المتهندمين لكل شقاء وبؤس ودنس!

في وقت تسود فيه العوامل الخارجية، على المقصورة الرئيسية للحياة، يكون كل من في الجوار عبوات ناسفة. مضحك جداً أن أفجّر وأتفجّر، لم أتحيّز لأحد الركنين،

كنت ككل الأشياء التي تفرز خيراً، وتتهك فيما بينها وبين نفسها!!

ملكيتنا تبادل أدوار، وليس لنا ملكية خاصة إلّا الموت. أموت أنا وموتي ملك لي ويموت غيري وموته ملك له، بينما تبقى الحياة ملكاً لأشخاص ليسوا نحن. لا أدري لمن هذه الحياة...؟! إن كانت لنا فلِمَ لم ننعم بشيء منها يزيد الشبق الحياتي...؟ وإن كانت لغيرنا لماذا نصطف جماهير تتابع أولئك الذين ينعمون بحياتهم...؟!

تمامية القهر، أن تجد كل من حولك ينظرون إليك بعين الإشفاق. أكره الذين يلتوون حول المشاعر ويصمونها بالكذب، وأبغض كل من يدندن على أوتار التبعية. آآه المرض بدايته «مر»، مر وعلقم، جرعات الحياة الأخيرة، وتدنيس لطهر الأمل العذري!!

أيتها الشقراء دخولك هنا كان كدخولنا لتلك الشقة، شقة الموت، أيها الموت دعني وشأني، إذهب لا أريد أن أموت...!

المناظر في الحياة متشابهة
لا تتغيّر البتة...

كانت الشقة خالية من كل العناصر الحياتية. تراكم أشياء جمادية باهتة اللون، كان منظرها لأول وهلة يوحي بأن ثمة حوادث إجرامية مورست تحت سقفها الأبيض، البياض في حياتنا موضوع نقاء في عالم التفكير التقليدي، لكنه في عوالم الخرافة والابتداع ضعف لأن البياض أسهل لون يتأثّر بغيره، قوة التأثير والتأثر في الأجسام كقوة نباح الأجسام من حولك، لا تنظر إلّا من عين تزوغ عن العالم كله، عندها ستؤمن بالإحصائيات غير المعقولة في الحياة.

كان وقت وصولنا للشقة وقتاً لا تأتي فيه الخادمة حيث ينتهي عملها اليومي مع انتصاف عصر كل يوم. فالخادمات يعدن إلى بيوتهن ملطّخات بأنجاس كثيرة، نجس خدمة الصعاليك، ونجس جلب المومسات، ونجس الخطيئة والطهر...

في بعض الأحيان يكون الطهر نجساً، حين يتقارب من الخطيئة، تقاربه منها يحيله إلى نجس. مجرد التفكير في

الطهر وأنت تشعل فتيل الخطيئة تجعل من وقتك آنذاك نجساً مركباً. كم هنّ تعيسات أولئك الخادمات، يعشن حياة تشبه حياة الدبابير، إفرازات سامة ومؤلمة وربما تميت في بعض الأحايين؛ الموت في العهر آخر الأشياء المتوقعة، وأول هاجس لك بعد إراقة مياه الشهوة؛ جرم الممارسة وممارسة الجرم، مترادفان على ظهر حياة في مجملها رذيلة.

دلفنا إلى الشقة، وتناثرنا في حجرها كأطفال وصلوا للتو إلى حديقة الحيوانات. أول شيء في العري أن تتعرّى من ملابسك، ثم قيمك، فمبادئك، فقناعاتك. تتعرّى من كل شيء لتصير كجذع شجرة دون لحاء، هكذا فعلنا، تعرّينا أمام بعضنا البعض، كلٌّ يثني على قضيب الآخر، في عالم الذكور، تغيب القيم ويضمحل الحياء، كأنه قطعة سكر خانها حظها وسقطت في كوب من الشاي يفور حرارة.

ألم السفر لم يساعد في ثنينا عن قطع مساحات كبيرة وقاحلة في صحراء التحرر، والإباحية، قذف كل منا حقيبته في ركن قصي، وأخرج منها عدة الحرب القادمة، ملابس جديدة، تداورنا على الحمام، كأفراد مستجدين في السلك العسكري، وصوت جهاز التسجيل القابع في صالة الشقة من بعيد يهدر في تأفف موارب:

(خمس صبايا حدّ العين... وحده منهن مخطوبة)!!

كفيلة كانت هذه الأغنية ببعثرتنا في الشقة، ذهاباً وإياباً، رقصاً وغناء، كنا أشبه بقطع شطرنج بعثرها حشاش ملّ من

ملاعبة نفسه. أشعر بنشوة غريبة من ضحك مكرّر عندما أجد إنساناً يلاعب نفسه. أحادية عبثية غبية جداً أن تكون خصم نفسك، فهل يعقل أن نكون مقابلين لأنفسنا في معركة ما...؟ أوليس تفكير الشخص موحداً...؟ فكيف أهزم أناي...؟

عدنان لا يزال يتخبّط في صحراء سكره. استلقى في وسط الصالة وفي يده ملابسه الجميلة، شعوره بالضعف ولّد في داخلي إحساساً بالعطف. الإنسان دائماً عندما يضعف يكون كالعجينة إذ يسهل تشكيلها. ممدوح قابع في الغرفة يقلّب آدام الملابس والثياب، سهل جداً أن تلبس وصعب جداً أن تختار ملابسك، في هذه النقطة الصغيرة في دائرة الملابس يكون طول المسافة الموصلة إلى اللباس أقرب من طول المسافة الموصلة للاختيار. وقفت أمام عدنان بصنمية، فنظر إليَّ وكأنني لست إنساناً وبعد تهليلة وجع خافتة قال:

ـ هل تنتظر أن تدخل الحمام؟ أتعلم يا فارس أن الاستحمام أقبح ممارسة وجودية للكائن البشري، لأنه يرى في استحمامه أن يزيل كل الأوساخ، وهو يزيلها في موضع الأوساخ، أيعقل أن أرمي عني النفاية، وأنا في مرمى النفايات...؟

ضحكتُ يومها إلى أن أخذت في القفز. ليس كل العقلاء على صواب، وليس كل المجانين مخطئين، في تبادل الأدوار الحياتية. لا بدّ لهذه النظرية أن تتمّ وفقاً لتبادليتها. إن

الإحساس بالاختلاف ليس عاملاً نشازاً في قدسية الحياة المعيشية، إنما هو جمال ملائكي يطغى على هذه القدسية الزائفة. أحياناً يصبح المفكر أخرق، والأخرق داهية، بين تلك الخانتين لا يستطيع أحد أن يضع أداة حسابية ملائمة تقيس الفارق بينهما، وتخرج في ناتج دائم تام!

فكرة المعادلة صعبة الحل، والمعادلات دون حلول، فكرة مقبولة جداً، بسبب النقص الحاصل في أذهان البشر، لكنها من جهة أثيرية ملائكية ذات طابع برجوازي، لا يمكن أن يولد شيء بلا نواتج!

جلست بجانب عدنان، وفي داخلي أعاصير تحطّم كل الحواجز التي وضعتها أمام هذا الشخص. رغبة جامحة تساورني، وتلتحف تفكيري في ابتزاز الجانب الغامض من شخصية فيلسوف بالفطرة. في كل الأزمان يظهر عباقرة قلة يشتهرون، ونيران المجتمع تشبّ على رؤوسهم، لكن في الأساس ثمة عبقري واحد وراء كل هذ الجموع العباقرية.

سألته بعد أن أشحت بوجهي عنه باتجاه التلفاز:

ـ عدنان كيف ترى المشهد الثقافي العربي. . .؟

ـ ها ها ها، المشهد هو ذلك المكان الباعث للصورة، ونحن لم نر بعد فكيف يكون لنا مشهد. . .؟!

سدّ منافذ فضولي، وردمها تحت وطأة سخريته اللعينة. شعرت بالنفور من ذاتي المتعبة، إرهاق ينتشر في صحراء عقلي القاحلة، وخيرة متملّقة تقف أمام عتبات رأسي تدقّها

في همجية، أعدتُ عليه السؤال مرة أخرى بصيغة مختلفة:

ـ لا أقصد ما قلته، هل يمكن أن يكون ثمة عرب مثقفين...؟! وما رأيك في الثقافة العربية...؟!

اعتدل من استلقاءته تلك، ووجّه نظره إليَّ مباشرة، في اللحظة الصدامية التي تجد فيها نفسك في موضع المواجه ليس لك إلّا التأهب والتأهب فقط...!

ـ فارس، أنظر إلى عيني مباشرة، التجاوز عما مضى أمر في غاية الصعوبة. إن كل الحضارات كائنات ولدت وعاشت في مواجهة حياتها وجهاً لوجه، إلّا الثقافة العربية، ولدت أفكاراً من بطن ثقافات أخرى، رتبتها كما تفعل المرأة مع جنينها، أو بمعنى آخر هي مسخ من ثقافات أخرى!

القيم كل القيم تذوب في تلك اللحظة التي يصبح فيها مستوى غليان التحرر فوق العادة، هذا ما يفسّر ترسب أفكارنا وثقافتنا وذوبانها. ردُّ عدنان أعجبني فعلاً هذه المرة، نحن لم نستطع أن نجعل لثقافتنا مواجهة دامية وحقيقية للواقع، ولم نفرز لها استقلالية موحدة لها ديمومتها وكيانها المستقل، لذلك عاشت ثقافتنا مدلّلة كالأبقار، نجلب لها الأفكار من الخارج، ونعلفها لتسمن وتموت من التخمة، دون الإفادة منها.

خرج تركي من الحمام. دخلت بعده وأنا أتذكّر كلام عدنان عن أقبح ممارسة، أدرت محبس المياه، فهطل الماء كالحجارة فوق رأسي ليفتت بقايا الأوساخ، ويدكّها بعنف.

قريب كان عدنان مني اليوم حدّ الامتزاج، آمنت بكلامه، فعلاً، الاستحمام أقبح ممارسة وجودية!!، بعد «دش» دافىء احمرّ جلدي إثره، جلست أنتظر إلى أن يفرغ الرفاق من عملية التحضير. كم من لعنات ولدت تحت هذا السقف، وكم من خطايا مورست بين هذه الحيطان، الشقة وقتئذ كوضعي الآن، لعنات تنصبّ فوق رأسي، أشعر بأنني ولدت إبناً للعنة. خطايا أخبئها بين أعطافي أغدق عليها حناني ودفئي، بينما أمها تتسكّع أمامي في الطرقات وفي الأزقة المظلمة، توقظني من نومي الهانىء، وتبكيني حين أشعر بها تقف لساعات وساعات أمام ناظري، كشبح مومياء في عيني طفل بريء.

عملية الإبدال قاطنة فوق رأسي، وتبادل الأدوار نهم في أكل حياتي وواقعي. الامتزاج نظرية فيزيائية برهنت على صدقها في معمل فيزياء الحياة، التجمّد خاصية غادرت مدائن عالمي بدون رجعة، أنا الذي يعيش انصهاراً في انصهار، أنا الذي أتجرّع سموم الليت والتمني والحسرة. ندمنا دماء تنزف دون انقطاع، عذاب جرحها أعظم من مردود الموت المريح. إن كل مشاعرنا تتفنّن في العذاب وتميت، لأنها خلقت كي تشتّت الأجساد وتساعد في تمدّدها حتى تنقطع، والانقطاع هو الموت، والموت ليس في قاموس المشاعر، لفظة دخيلة لم تجد لها القواميس تعريباً، فأبقتها على حالها، لذا لم تجد

مفعولها المعنوي، الذي يؤثر على سياق جملة الحياة؛ إذن الموت كلمة ساكنة في سياق الحياة، لا ترفع ولا تنصب ولا تجر، بقاؤها مخيف، لكنها حيّز أحرف دونما تغيير في السياق، أليس الناس يموتون وتسارع الحياة في تكرارها وكأن شيئاً لم يكن. . .؟!

ثقافة الموت عندنا ثقافة تكرارية مملّة. وجودها بين الثقافات سد مكان فقط، لكنها في جملة الثقافات تجسيد حقيقي لعظمة جبروت سماوي أزلي، واقعٌ لامحالة.

كنا جميعاً نتضوّر جوعاً، وما إن انتهت عملية التحضير حتى اتفقنا ضمنياً على الأكل، والذهاب لتناول طعام العشاء قبل الولوج في نفق سهرة ماجنة، نخرج منها آخراً وعلى أكتافنا بقايا من أوصال شيطانية سامة ومميتة، في اتفاقنا ذاك موضع غرابة، عندما نتّفق جميعاً على رأي موحد، يصير هذا الرأي مسلمة بديهية، لكن ما يحيّرني ذلك السؤال الضخم هل في الحياة مسلمات وبديهيات. . .؟!

الطابع السعودي كان يتطلّب منا إتقان العمل السعودي المترتب على أكل الكبسة بكل حذافيره. كان مطعم حضرموت القابع في شارع برزة هو الملاذ من طغيان جوع ترتّب بانتظام طوال ساعات السفر التي قضيناها بعيداً عن عناصر التعبئة الفمية الإيجابية. . .!

كان الشارع مكتظاً بالبشر بتراتبية عظيمة تسير وفقها الجموع. تذكّر ممدوح شيئاً وقال:

- نريد الذهاب إلى عبدو لتوقيع العقد. عدنان أنظر هل الجوازات في درج السيارة...؟!

تأكدنا من وجود الجوازات. عبرنا الوجوه الواجمة بسرعة، ودخلنا على عبدو، وقعنا العقد في عجلة، وتركنا جوازاتنا عنده كأمين، أو كصندوق أمانات. الحرية تفقد الإنسان عقله بصفة عامة، كما نفعل ويفعل غيرنا في وضع جوازاتهم في يد سمسار.

كان مطعم حضرموت يقف بجانب الدكاكين في شارع برزة بحضور مميز، مطعم متهالك، لكن مضمونه يجعل خلفية الذاكرة تعود إلى أعتى مطاعم تبوك من «ديرتي» ومطعم أبها، وغيرها...

زال الغبش عن عيني عدنان بتلكؤ، وبدا إنساناً هادئاً ولطيفاً. السكارى أطفال في عزّ النشوة يعيثون هرجاً ومرجاً، وعند انطفاء النشوة يصيرون هدوءاً يسير بقدمين.

دخلنا المطعم، لم يكن للكائنات السعودية فيه أي وجود. انقراض مفاجىء لهذه الكائنات في هذه المحمية التي تتوالدون فيها دون أن يتجرّأ أحد على صيدها، عندما دلفنا المطعم لم ننتبه إلّا لصوت تركي وهو يقول:

- حبتين مندي مع الرز وأربعة بيبسي.

كانت عقارب الساعة تتراقص آنذاك عند الساعة العاشرة، ونحن داخل المطعم...

في كل الأزمان البارعون هم...
القادرون على تحديد أبعاد الحياة

لا أكذب إن قلت بأن الخوف يسكنني جراء كتابة هذا البوح. لكن شعوراً غريباً يعتريني بأنني مقدم على شيء عظيم، بداية العظمة تنطلق من نقطة، هذه النقطة في داخلي هي نقطة حرف الفاء في اسمي «فارس».

كان خروجنا من المطعم بعد وجبة مسائية حبلى بفيتامينات التخمة مدعاة للذكرى، لأن الرجل حالة أكل دائمة، ولأنني لم أكن أتصوّر أن أقدم على فعل شيء وأنا خالي البطن. ثقافة البطن عند الرجال ثقافة أزلية جبّارة، تولد في داخله من جراء الحياة التي لا يشاهد فيها إلّا الأكل. كنا ندرك جميعاً بأن ثمة جهداً مضاعفاً سنبذله. الإنسان مهيأ بدافع داخلي يرنّ كلما حان وقته، ونحن نسير على صراط دقيق جداً من الحرية، والكبت يملأ أفئدتنا بدخان سام، قاسينا مرارته وسمومه كثيراً. مساكين نحن نعيش بين السموم والعفن طيلة حياتنا، وحين نتمرّد، نتمرّد في خفية، ما يجعلني أنتفض من معيشة نسائنا. تساؤل شلّ تفكيري، كيف لهن أن يتمرّدن

وهن كالعصافير محشورات في أقفاصهن لم يتمتعن بنشوة الحياة، يقاسين الكبت الغائر في جبروته برضى هادىء...؟

كل الكائنات في حياتنا في نقطة معينة تصبح أشياء تصارع من أجل البقاء!

هل تحرُّرنا هذا وبحثنا عن متعتنا صراع من أجل البقاء...؟ وهل احترافنا للآلام الموجعة المغلفة بغشاء قيمي موروث خنوع وخضوع...؟ لا أدري لماذا يغشاني شعور بأن كل من حولي إنس لم يكن للإنسانية نصيب في حياتهم...؟

أشياء عدة تخامر عقلي عندما أرى الشارع مكتظاً بالبشر المذعنين!

كانت إشارة طريق التل حمراء. كان لونها فاقعاً. لقد تغيّر في ذاتي تصنيف الألوان، وأحسست بأنه ليس ذلك اللون الذي رأيته قبلاً. لماذا تتغيّر مشاعرنا عندما نخرج من فقاعاتنا المعهودة...؟ هل للمحيط دور أساسي في اكتمال دورة المشاعر وولادتها...؟

طريق «معربة» يتلوّى كخرطوم مياه متدلّ، طوله أشبه بالأفعوان الإستوائي غير العادية التي لم أكن أراها إلّا في التلفاز. أدركت عندما رأيته بأن لكل إنسان حياة يعيشها وتبقى مهيمنة عليه، هي حياته الأولية التي رضع من ثديها أوائل طفولته حليباً خالصاً...

السيارات كثيرة تتوافد على هذا الطريق وكأنها تؤدي عملها

في آلية مفرطة. في كل مناطق سورية يمكن أن تخطىء الطريق إلّا في طريق «معربة»، له رائحة مختلفة. ونحن أناس لدينا حاسة شم قوية، وأجساد الفتيات تفوح منها رائحة نفّاذة لا يصعب على الأنوف التقاطها.. «المراقص» تطلّ بأنوفها عن يمين الطريق ويساره، على هيئة سماسرة محترفين.

أخذت أتأمّل في شكلها، الوقت ما زال مبكراً على حرارة النشوة، أخذ ممدوح يدور بنا متأملين تلك البنايات التي تضم بين أعطافها صخباً أنثوياً بارداً، يزيد من حرارة النشوة. كيف يمكن أن تكون البرودة سبباً في ميلاد الحرارة...؟ خرق للقوانين الفيزيائية، فمعالم الإنس عالم عجيب بالقدر الذي يخرق المسلمات، فبرود الفتيات في أداء عملهن الوظيفي في الرقص وابتزاز جيوب الحضور، سبب في حرارة أولئك الحضور السكارى الملمني الخيبة والغباء.

الزير... العنقاء... الطير... ليالينا... أوسكار ليالينا... الملك... تاج الملك... الوسام الذهبي... الساهر... الرحال... البرنس... ريم البوادي... كلها ملاهٍ ليلية ترحّب بالقادمين. نظرنا إليها بنظرة المنتصر؛ بدأ تركي يرتشف من مشروب الروح الذي كان بجواره، رؤية التحرر كفيلة بإشعال وساوس الشيطان. أجّل عدنان شربه إلى أن نستقر، ونمكّن مؤخراتنا من الكراسي على طاولة أحد هذه الملاه...

ـ أين تريدون أن نسهر...؟

هكذا قال ممدوح وهو يلتفت يمنة ويسرة، وكان يجاهد في الخلاص من زحام السيارات القادمة. صرخ تركي على الفور:

ـ الوسام الذهبي، اللقاء هنا اليوم كما وعدتُ أولئك... أتذكّر أني تمتمت يومها... (الوسام.. الوسام.. وش ورانا...)

لكي تسعد قابل الأشياء بذاتها

لا أحب الكتابة في الأجواء الباردة، الأجواء الباردة تشحنني بالبرودة وتحيل الورقة إلى صقيع عظيم، يقرأها الشخص منا ويطوح بها بعيداً كيلا يموت متجمّداً، أو كيلا تتتابه نوبات الرشح التي تقلب منخريه إلى غيمة ماطرة تقطن منطقة استوائية. الكتابة الحارة تدخل قارءها في أجواء الحرارة، وتجعله على قدر كبير من الجرأة في خلع ملابسه، ورميها، ليظهر كما هو عارياً من كل شيء.

وجوه كثيرة تنقلب أمامي ككشكول مراهق كتب فيه مواقفه مع زملائه، ابتداء بممارسة التدخين خفية عن كل رقيب، انتهاء بالإجراءات الروتينية للعادة السرية، هذه العادة التي عشقتها منذ أول يوم أمطرت خصيتاي ماءً لزجاً. في ذلك اليوم استيقظت على صيحات أمي ليوم دراسي ممل. استيقظت وملابسي ترفل في بللها، في بادىء الأمر ارتبكت، ولم يخطر ببالي يوماً أن حلم ليلة كاملة وبنت جارنا سيكون عائده هذه القطرات. في أحيان كثيرة نرى الأحلام أفضل وسيلة لقضاء رغباتنا الوقحة ببرود زائد. لم أخبر أمي يومها،

ولم أتجرّأ على كشف ستار ذكورتي البالغة. دخلت إلى الحمام وخلعت ما عليَّ من ملابس، وغسلت عانتي وفخذيَّ. لم أحب أن أثيرها باستحمامي الصباحي وأنا الذي لم أعتد أن أستحم صباحاً أبداً. استبدلت ملابسي بملابس نظيفة وجديدة، وفي داخلي ألف رواية ورواية، سأسردها على مسامع أصدقائي، جراء هذا الحدث الإلّهي الكبير. تغيّرات كثيرة في حياتنا يبقى لها وقع كبير على دفوف الذاكرة، لا تُنسى بسهولة. تدارست وأصدقائي هذا الخبر العاجل، بعضهم تندر، وآخرون فرحوا لرجولتي، وقلة أشفقوا عليَّ من تبعات هذا الحدث حينما يغتال الإناث...

الجو داخل المرقص وخارجه مختلف اختلافاً بالجملة. في الخارج سكينة الليل التي قطعت أحشاء الصخب، وفي الداخل ضجة ملأت رؤوس الحضور انتشاء حدّ السقف. الغجريات كنّ داخل المرقص يؤدّين عملهن بعناية، في ذلك اليوم قلت لعدنان حينما سكر:

ـ ألا تلاحظ يا عدنان أنهن يؤدين عملهن بآلية صرفة...؟!

نظر إليَّ، وقال بنبرة ساخرة وغاضبة:

ـ إذا كان الرقص عملاً، فلن يكون للخط الأحمر مجال يضع أنفه فيه...!

وبينما نحن نهمّ بدخول الملهى، سمع كل من تركي وممدوح صوت المغنية، ولمحا الأجواء الصاخبة تنحت

شعور الحضور بحرفية عالية، لم يكن منهما إلّا أن انطلقا من جانبنا، وأخذا يرقصان بصبيانية. نظر إليهم عدنان، ونحن نساوم المعلم على السعر وقال:

ـ في داخل كل منا طفل، لا يموت البتة...!

إقتعدنا طاولة بجانب البست، ووضعنا عليها كل مستلزمات السهرة القيادية. إن الإنسان في أحوال معينة يقارب الفوضوية منها للانتظام في محاولة بائسة ورديئة في ترتيب القيم المتناقضة في جو من العبث. فور انتهاء الأغنية عاد كل من ممدوح وتركي، وهما يلهثان ككلاب فرغت من مطاردة قط متطاول في ليل بهيم، جلس تركي ومدّ يده إلى طبق المكسرات على الطاولة، وأخذ حفنة منه وأودعها فيه، بينما مدّ ممدوح يده إلى قنينة الماء على الطاولة، سكب منها في الكوب بعضاً من الماء وهو يهم بالشرب قال:

ـ يا شباب، لا داعي للحياء، ساعات التحرر قليلة اغتنموها بنهم!

كان عدنان يمزمز من كأس كان في يده مليء شراباً، سكنته قطعتا ثلج أحالته إلى برودة صارخة. ها ها ها هيذي البعثرة في القوانين الفيزيائية، كيف للبرودة أن تساعد في زيادة الحرارة...؟ برودة الشراب وهو في الكأس، وحرارته في داخل الجسم. إن برودة الشراب تساعد في حرارة الوخز واللسع في الحلق والبطن، عندما تتقلب الأشياء في تسارع فهي مذهلة بكل جوانبها، هذا الإذهال يمتزج فيه شعور

غريب غرابة سرعة تقلّبه. كلنا إزاء المتغيرات السريعة نقف مذهولين، يعترينا إحساس خليط من ذهول وغرابة!

الإنسان مخلوق مريب من فرط ما في داخله من متغيرات!

صرخ المغني بأغنية كاظم الساهر «عيد وحب هاي الليلة الناس معيدين»، انتفض أكثر من في الملهى وبدأوا يرقصون «دبكة التشوبي». لم أكن أعرف أن للدبكة أنواعاً عدة وأشكالاً مختلفة إلّا حينما سافرت مع سالم، لسالم الفضل الكبير في تلقيني الكثير من الدروس الشامية، من تصرفات، وعادات، وتقاليد، ورقصات، لكنها ليست كتلك التي نمارسها في حياتنا. كالطفل كنت أتجرّع من ثدي سالم الدروس حليباً لذيذاً، كوّنت ثقافة عالية في هذا المجال، قال لي يوماً:

ـ إن للدبكة أنواعاً منها «التشوبي»، وهي عراقية الأصل، يرقصها الراقصون بهدوء تام، لا يخلو في بعض الأحيان من الصخب، يبادل الراقصون بين أرجلهم بهدوء، هي أشبه برقصة «الخطوة» في جنوب المملكة العربية السعودية، لكنها تختلف في طريقة التأدية إزاء وقع الأرجل وتبادلها بنفس الطريقة. تختلف هذه الدبكة عن دبكة «العرب» اختلافاً بسيطاً في تغيير الخطوات، لكنها تشترك معها في الهدوء والرقص بسكينة. . .

بالتدريب بدأ يعلّمني، إلى أن أتقنتها. هاتان الرقصتان كانتا الأقرب إلى ذاتي، فيهما من الهدوء جزء يجعلك

تمارس وخز النظر للفتيات بأسلوب مشوّق. تبادل الأحاديث والغجريات في هذه الرقصة شيء بسيط جداً، حتى أن البعض يسارع في طلبها بغية التحدث مع حبيبته بشكل مطول.

نمارس عهرنا حتى على أنغام الموسيقى، الموسيقى تولف القلوب كالفنان حينما يولف أوتار عوده!!

استطرد سالم كثيراً ذلك اليوم، كان مخموراً بذلك القدر الذي حوّله إلى معلم صفوف أولية. . .

ـ أما رقصة «الأربعطعش» كما تسمّى، هي رقصة متعبة نوعاً ما، لا يتقنها إلّا البارعون في رصّ الحبوب المنشطة تحت ألسنتهم، يتقافز بها الراقصون وكأنهم يرقصون على الجمر. . .

بدأ يشرح لي وأنا مستمع، كانت دروسه عبارة عن سرد لثقافة شعب بأكمله. كانت رقصة «الأربعطعش» تهيج الغثيان في داخلي، لأنني لم أكن أتقنها أبداً، وكان تركي بارعاً فيها لأنه كان بارعاً أيضاً في إلقام نفسه حبوب الكبتاجون. مكثت ذلك اليوم أنخر علوم سالم كثيراً، كبكتيريا وجدت عفناً من قذارة ملقاة على أرض نجسة، زاولت عملها بكل أريحية. . .

ـ قد تستغرب عندما تجد أهل سوريا الأصليين لا يجيدون إتقان هذه الرقصات بأنواعها، لأنها في الأساس ليست رقصاتهم، إنما هي ابتداع من الغجر ـ النور ـ أو بتحريف بسيط منهم جعلها ملكاً خاصاً للغجر. . .

قال سالم هذه العبارة وأنا ممعن النظر بأجساد أنثوية

كانت تتراقص أمامي على هامة البست، تتمايل كأغصان هبّت عليها رياح عصرية في يوم نقي...

قمنا جميعنا وشبكنا أيدينا على صهوة البست. أخذنا نرقص بنشوة على أنغام أغنية «عيد وحب هاي الليلة الناس معيدين» يرأسنا في الرقص تركي وممدوح. عدنان كان أشبه بأطفال عرض داون، لا يشعر بمن حوله، أطياف أجساد، وظلال لأنس يحلقون من أمامه، فقط كان ينظر إليّ بابتسامة بلهاء شحذها كثيراً حتى تسمّرت على محياه. في تلك الأثناء مرّت بجانبنا فتاة جميلة، نظرت إلى عدنان بخبث، فأفسحت المجال بيني وبينه وشبكت أصابعها بيننا وأخذنا نرقص، وهي تنظر إلى عدنان وتتلاعب به كدمية.

أن تسكر وتعلم بأن السكر طرب لأناك، فأنت حتماً في تبادل تجاري لقيمك!

عندما تحين ساعة السكر، تحين معها كل المواعيد الخارجة عن نطاق التصرف الإنساني السوي، لكي تكون إنساناً طلّق السكر طلاقاً باتاً.

في عراء المشاعر، تهبّ أعاصير التصرفات القبيحة، وتكسي الكون لوناً قاتماً، تضيع فيه الأشياء النبيلة، ولا تهتدي الطريق.

بات استمرار الأغنية قرابة الربع ساعة يرعب وجودي. الرؤوس تترنّح طرباً وسكراً، والأمنيات الخبيثة قابعة في بواطن بعضهم، والبعض الآخر ترجم أمانيه الخبيثة بطلب

بعضاً من النقود، ليستولي مشهد «التنقيط» على المسلسل. . .

هذا المشهد الذي لم ينتهِ بعد، هو أشبه بالمسلسلات المدبلجة التي تستمر لسنوات طويلة دون نهاية.

عدنا إلى مقاعدنا بعد انتهاء الأغنية برتابة، وأخذ كل منا يؤدّي واجب الشرب بمثالية صرفة، بينما كان عدنان يتضاحك مع تلك الفتاة التي استلّها من على البست وأجلسها بجانبه.

حين تجد المرأة تقتعد جانب رجل ما، فثمة طلب لا بدّ أن يُلبّى. المرأة في حياتنا طلب لا ينتهي، والرجل أداة تنفيذ عالية الجودة، في هذا المصنع البشري يترأس العفن طاقم العمل، بينما يكون الجمال حارساً على باب هذا المصنع!

إن تكن شخصاً يفكّر بعمق فأنت مطرود لامحالة. البقاء في هذا المصنع يوجب التبعية المفرطة، كلنا إمعات لتزمّت الدناءة، وبؤس الجمال، وطيش القذارة الجسدية!

وطأ شاب على جبين البست، وخلفه عدد من النادلين يحملون طاولة وقد غيّبت صفحة وجهها النقود، وضعوها في ركن قصي من البست. بدأت نظرات الفتيات تنحرف إلى بعد أبعد من الغنج والدلال، بغية لفت النظر، كي يكون لهن نصيب من تلك النقود المنطرحة أمامهن، تلك النقود التي ستداس بالأرجل بعد لحظات. أشار الشاب للمغني بحركة عسكرية آمرة، لبّى لها المغني بسرعة فائقة ككلب قطع مساحة كبيرة من صحراء التعلم والتبعية، الابتسامة تسكن فاه هذا المغني على طوال ساعتين لا يمكن أن يمزّقها نصل التأفف.

صاح المغني: «أحلى تحية لشباب السعودية»... «أحلى تحية لشباب تبوك»... عندما سمع تركي هذه العبارة صاح كالأطفال في منظر لفت انتباه الجميع فنظروا إليه بغرابة، فاضمحل، وتقلّص إلى أن غدا دودة صغيرة جداً... استمر المغني في سرد التحايا: «أحلى تحية لشباب الرياض... وجدة... والقصيم... وحائل... والقريات... وعرعر... شباب الدمام... السعودية وبس... السعودية وبس... السعودية إلين الصبح... أحلى تحية رنا... رنا... وينك يا رنا...

تفاجأت ساعتئذ عندما رأيت «رنا» هذه وهي تقوم من جانب عدنان، لم يتمالك عدنان نفسه آنذاك وضحك كثيراً وقال:

ـ في المتلازمة الحسابية للحياة ثمة امرأة ونقود، لا يمكن أن تتم هذه العملية إلّا بتلازمهما وإلّا لكانت العملية خاطئة..!

صاح المغني: «رنا لقدام والصبايا لورا... رنا وخالد... خالد ورنا... ورنا وبس والباقي خس... رنا يا أحلى رنا...» قبل أن يطلب من الفرقة الموسيقية أغنية «خمس صبايا حد العين وحدة منهن محبوبة»، دسّ ذلك الشاب في أذن المغني كلمات ثم صاح المغني بأعلى صوته: «اللي يتحدا ينزل»!!

ثم عاود نفس الصيحة، وهو يغني: «خمس صبايا حد

العين وحدة منهن محبوبة». نظرت إلى عدنان وهو يهمّ بالقيام، واهتزازات رأسه توحي بخدر لذيذ. أخذ يردّد مع المغني نفس الأغنية وهو ينظر إلى رنا، ويقول: «خمس صبايا حد العين وحدة منهن شرموطة»...!

قمنا جميعنا وراء عدنان، بادلها عدنان ذات التصرف، وقف بجانبها، وأفسح المجال بينها وبين خالد، وتناول يدها وشبك أصابعه بأصابعهما، وأخذ يرقص معها وذلك الخالد ينظر إليه بنظرة ملؤها السخرية... والغيظ...

تبادل الأدوار كامن في حياتنا، اتخذ كهفاً وسكنه بعيداً عن مرأى العين الإنسانية!!

إن الأنثى هي من تستطيع أن تميّز أبعاد جسدها بحرفنة

وجدت لذة عظيمة في السكر، سكرت وسكرت، وشربت حتى ظننت أنه تتكسّر في يدي شظايا تهتك أستار عقلي وتشتتها، والكون من حولي يشبه كرات بلورية تسير على استحياء. صوت المغني هنا ينسكب على مسمعي قطرة عسل منسابة. أصوات النساء بجانبي تعين الغواية على التعمق فيّ، تصيّرني أنصالاً تمزّق جسد الطهر بأدب مقرف...

إن المرأة جرم سماوي بعيد جداً عن مدار عقولنا نحن الذكور، يتجمّد إن بعُد، ويحترق إن قرُب، في كلا الحالتين يردم، والرجال زناد سريع الاستجابة، يكفي أن تشير إليه ليثور...

خالد ما زال يردم تضاريس أنوثة رنا بالنقود. وعدنان ينظر بابتسامته البلهاء تلك، لم أكن أدري يومها كيف يستطيع رجل أن يقف أمام سارق أنثاه هكذا وقفة...؟ هل هو جبن في تركيب الإنسان...؟ أم أنه هدوء...؟ أم أنه تبلّد في المشاعر...؟ أم قناعة...؟ أم شيء لا أعرف كنهه...؟

المبادىء في حياة الرجال عوامل تعرية لهم، ولضخامتهم، وانفتاحهم، حتى لو كانت مبادىء إيجابية... دائماً المبادىء هي نفسها لا تتغيّر، إنما الإنسان هو من يصوغها في قوالب متشكلة. رؤيتنا لأي مبدأ هي من تصنّفها إيجاباً أم سلباً...

لم أفقه عبارة عدنان ذلك اليوم حينما قال:

ـ الفأل الحسن أن تتطيّر من رائحة المرأة!!

لم أكن على مستوى يقيني شر التخبط في التفسير، قلت له بعد ذلك وكأني فهمت:

ـ الحسن الوجه الآخر للذنب، فأي الحسنين تقصد...؟

نظر إليَّ باستغراب، وساد عليه الصمت ولم يتكلّم... تركني أتخبّط في وحل من الفضول، لكن الجمال في اللاإجابات...!

كانت آلية عمل الشرب في رأسي أشبه بعملية صنع رغيف خبز، عجنته في رأسي، وتركته إلى أن تخمّر. رائحته تشي بعمل خارق للأنظمة الحالية. أشرت إلى النادل بطريقة هوليودية، أقترب مني ودسست في أذنه «أريد عشرة ملايين ليرة»...!

بعد برهة رأيت النادل يسير بخطى واثقة، وابتسامته الصفراء تسبقه. التقطت عدنان من يده وأنا أقول «قم، إن كل من في هذا الكون مجرد نفاية قادمة من التربة»!

إقتربت مني المغنية بخطى ثابتة. كان ثمة هطول لابتسامة رقيقة على عراء وجهها. طلبت أغنية «يوم يوم... ما أحلى

النوم... ع الزردوم» رغبة مني في إشعال فتيل الفوضى فيه، أخذت أنثر النقود تحت أقدام عدنان، وأنا أحرّض المغنية على قول «أحلى تحية لعدنان... واللي مو عاجبه يشرب من البحر»!!

صاحت المغنية بأعلى صوتها:

«يوم يوم... ما أحلى النوم... ع الزردوم... يا وردي لأعمل عمايل وأشوفك يا أم خصر المايل».

بدأت دبكة «التشوبي» زلزالاً ضرب أرجاء الملهى، وضجة متناهية في العبث كانت اللحظة آنذاك، وشيت في أذنها، فقالت «أسبل». توقفت فرقعة الموسيقى، وتوقف نبض الطبول، الأعين كانت مسمّرة عليّ، والرقاب مشرئبة باتجاه المغنية. نظرة مستبقة الأحداث كانت أعينهم ترسم، الكل صار يتكهّن بما سوف يحل. لقنت المغنية ما أردت قوله، عادت الصيحة مدوية مرة أخرى قالت «تركي وممدوح وفارس ووووووووويس» ورجع الصوت في الموسيقى كمن استعاد عافيته، وعاد النبض في أوردة الطبول، كانت هذه الوقفة بمثابة إبرة منشطة للجميع دون استثناء، واهتزّ البست من تحتنا يبكي ألم الضرب على ظهره. كان الكل يرقص، عدا ثلة ممن لا يجيدون الرقص اكتفوا بهزّ رؤوسهم. منظر صخب كانت لوحة الملهى وقتئذ.

انهزاميتنا توحي بأننا أجساد وأشلاء لا رابط بينها، تصرفاتنا الحمقاء تشي بذات الطابع، عندما يكون لحياتنا

حماقة وغباء مركبين سنكون كلنا في خانة السالب تحت صفر العرب، ذلك الصفر المعجزة الذي لم يسبقهم أحد إليه. . .

في أحيان كثيرة أشعر بأن العرب أغبى المخلوقات، لأنهم اخترعوا الصفر، هم يشبهونه كثيراً، في وسط الحياة، حيادية صرفة، مثله تماماً، لا يعطون أي دلالة رياضية إما سلباً أو إيجاباً، وقوفهم في طابور الحياة بحيادية، جعلهم نفقاً تعبره الشعوب دون اكتراث. . .

اعتلت سخونة الملهى وجوه الموجودين، ولم يكن لأي شخص ـ ذكراً كان أم أنثى ـ الاعتبارية المطلقة في رفض هذه السخونة، تداخل فتية بالفتيات، في مثل هذه المواقف يكون الشيطان كائناً هلامياً يتموّج والجموع. أتذكّر أنه في يوم وبينما كان الوضع أشبه بذلك التداخل الفظيع، كان ثمة شاب يرتدي ثوباً وشماغاً، لمحته في هذه العجينة البشرية العاهرة، يدسّ إصبعه في مؤخرة فتاة، كانت مؤخرتها تغري بالدفء، نافرة، وتهتزّ بتكرار شهواني، ساعدته هي في التثني يمنة ويسرة، الرجل مخلوق جبان دائماً، لا يتجرأ على قدح الزناد إلّا حينما يرى المرأة تسارع في تقريب الفتيل. أحياناً تكون المرأة حمقاء فهل تشعل الفتيل لاحتراقها؛ في نظرية الاحتراق هذه يبقى للخلفية الحضارية في دنيا الفرد وقع الوقود، إن كانت كبتاً مزمناً سيطول الاحتراق، وإن كانت تحرّراً مدقعاً سينطفىء نار هذه النظرية سريعاً. بين كل أطراف

نظرية الاحتراق، تُعلق الموروثات على حائط التجاهل والنسيان، ويعبث الأفراد عبثاً طفولياً مفاجئاً. . . !

في بادىء الأمر لم ترد الفتاة أن تلفت الأعين إليها، بأنها امتهنت في مؤخرتها، قلبت كتاب الوقت الآني على صفحة التجاهل، لكن ذلك الشاب كان من الغباء بحيث كرّر العملية مرة أخرى، التكرار صفة غبائية عظمى. في كل حالات التكرار ثمة طرف أرعن لا يفهم، وما إن ارتوت إصبع ذلك الشاب من دفء مؤخرة تلك الفتاة مرة أخرى، حتى استدارت لتجد وجهه معدّاً للطم، لطمته على صفحة وجهه الأيسر لطمة كانت كفيلة بأن تسقطه، لم تكتف بذلك فقد انهالت عليه ركلاً وسباً، إلى أن أوقفوا الموسيقى وتقافز أفراد مجموعة من «الزعران» من كل جانب، طوّقوا ذلك الشاب، وانهالوا عليه ركلاً وضرباً، وحملوه على أعناقهم وطوّحوا به خارج الملهى، في ذلك اليوم انتابتني رعشة حزن ورأفة عارمة، فخرجت لألقي نظرة على ذلك الشاب، وجدته مستلقياً بجانب إحدى السيارات، وهو يئنّ، بادرته:

ـ صار خير، حمد للّه على السلامة، كيف حالك الآن. . .؟

خرجت من فمه آهة عظيمة أخال بأنها خرجت من صميم قلبه وقال:

ـ الحمد للّه، لكن سأعرف كيف أربيهم!!

ـ هوّن على نفسك، لا شيء يستحق. .

لا أدري لماذا تذكّرت قول عدنان عندما رأيت ذلك الشاب منطرحاً على الأرض عندما قال لي: «النساء خلقن للخطيئة، ليس هنّ من يدفع ثمنها، بل نحن المستهترين!».

لم ينطق بكلمة فقلت له:

ـ هل أخدمك بشيء...؟! لم يتكلم أيضاً، فبادرته: عموماً أراك على خير.

غادرته، وأنا أسبه في داخلي، وأردّد في آهة باطنية «الذكورة عقم في التصرفات، هي من الأنانية بحيث تنسي الفرد أصله، وكينونته، ومراحل تكوينه الأولى»...

في أثناء سير قوافل الفوضى، طلبت من النادل نقوداً أكثر، في محاولة مني لخلق جو أكثر صخباً وضجة. رؤيتنا للأوضاع بدونية هي التي ولدت ابناً معاقاً في التفكير. واستمر المسلسل، وتتابعت قوافل الفوضى بهدوء، وامتلأت الرؤوس بأصداء متداخلة. نظرة واحدة من الخارج لهذا اللفيف تولد الهرب خشية الانهيار!

تجسيد للحرية بحذافيرها كانت هيئتنا آنذاك، تحجيم لقوى الكبت الذي عانيناه كثيراً. في لحظة الانطلاق يندفع المرء بكل قوة غير مبالٍ أبداً بقوانين السباق وخططه وإجراءاته. كلنا مدفوعون للخطيئة بنفس راضية، وكلنا مسلمون على أن الشيطان كان ما زال كائناً هلامياً...

الشيطان كالموت كلاهما كائنات هلامية تعيش في أوساطنا لتلقي القبض على فرائسهما بأريحية تامة!

بعد قرابة النصف ساعة من الرقص ونشر النقود المتواصلين، هدأت عواصف الضجة، وبدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً، وعاد كل إلى مكانه في تراتبية عالية، وانتظم الجميع في أماكنهم يحدقون في الوجه الأنثوي المعتلي هامة البست أمامهم. والبعض يعبّ من قوارير الماء الملقاة على الطاولات، وقليلون عادوا يشربون من شراب الروح كي لا يخرجوا من دوامة متعتهم.

منحازون إلى مشاعرهم من يخالون بأن المتعة ديمومة لا تنقطع!

رسم التعب على وجوهنا علامات كثيرة، نحن الذين لم ننم، نحن المسافرين القاطعين مسافة طويلة دونما راحة، بحثاً عن مُثل تنتهي بانتهاء فترة وجيزة، ومعالم جغرافية رسمها القدر عنوة. عقارب الساعة تلاحمت عند الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة، أدنى ممدوح رأسه منا وقال:

ـ لم ننم بعد، ما رأيكم في الذهاب...؟

قال تركي:

ـ أنا مؤيد لفكرة الذهاب...

قال عدنان:

ـ بالنسبة لي، كل الأشياء في نظري متساوية...

كان قولي وتتذ هو الفيصل قلت:

ـ حسناً لنذهب، ثم أردفت... يا عدنان عندما تتساوى

الأشياء في عين شخص ما، فهو لم يحطّ بعد على أرض العقل!!

فهم مغزى كلامي وردّ قائلاً:

ـ تكفى... يبدو أنك لم تحط بل سقطت لتكسر ثناياك... ها ها ها...

ذهبنا إلى المعلم، نريد دفع ثمن هذه السهرة المباركة. وعندما وصلنا للمعلم تبسّم وقال: إن ثمن الطاولة ثلاثة آلاف ليرة، وثمن «التنقيط» أحد عشر ألف ليرة، مجموعها أربعة عشر ألف ليرة، لم أكن أتوقّع هذا المبلغ. وكما هو متفق عليه بأن ثمن «التنقيط» لا يدخل في إطار ما جمعناه من نقود، كان عليّ أن أدفع أحد عشر ألف ليرة من مالي الخاص. أخرجت النقود من جيبي، ونقدت الرجل كل المبلغ، وهم لا يعرفون بأنني استللت ذلك المبلغ من حزمة مالهم الخاص.

عند المحن لا مانع من التحايل، وعند التلاعب تضيع كل مبادئنا وتتبعثر!!

ركبنا السيارة، كلنا كان مخموراً. هدوء وأدب طريق العودة في هذه الساعة، كل الساهرين في بحورهم يسبحون، ونحن قافلون في طريق العودة...

والخمر يجوس في رؤوسنا خراباً!!

السؤال: ولادة العقم

أرواحنا منفى ثابت. في دهاليز الروح الخابية للإنسان تهب أعاصير من المشاعر محرقة ومدمرة، هي من الغباء بحيث تجمع قيم الروح في عاصفة وإعصار. كل المشاعر في حياتنا أعاصير مدمرة، مشاعر كره ـ كحالتي ـ ومشاعر حب ومشاعر حقد، وإخاء كلها محرقة، ومميتة، ليس خطأً أن تشعر بحالة معينة تقيك حرج الحيوانية، إنما الخطأ أن تصير روحك منفى ثابتاً!!

صرير برودة ينخر عظم الذاكرة البالي.

في أحايين كثيرة تداهمني تساؤلات لا أجد لها مستقراً في مطار العقل. هل فعلاً نحن مخلوقون ومحفوفون بالألم...؟ وإن كنا كذلك هل حياتنا جديرة بأن نعيشها متداخلين والألم...؟ وإن كانت جديرة بالعيش فأي الطرق نسلكها كي نسعد...؟ في غرائبية الحياة قوة خيالية باطنية تدفعنا للعيش، لم أجد لها مسمّى، ولم أجد لطابعها نعتاً حقيقياً. كل العلوم تشكّل هذه القوة كما يحلو لها، كعجينة في يد فتاة تهامية في صباح يوم باكر.

لم يكن وصولنا للشقة عسيراً مثل بعض الأيام، في تلك الأيام التي يتعسّر وصولنا للشقة، نصبح أشبه بحامل، في عسر الوصول نتألم من حرارة التخبّط والدوران حول محورنا، مثلما تتألم الحامل بمرارة من القابع بين فخذيها، وفي آخر هذه السلسلة الحرائكية المضحكة نلفظ إجابة لهذا العسر، كما تلفظ المرأة القطعة اللحمية التي تنحشر بين أرجلها. نتذكّر فيما بعد، ونبتسم ونضحك، على مرحلة مارسنا فيها شعوراً مؤلماً يدلّل على إنسانية منحسرة تماماً.

دلفنا للشقة، لم يمهلنا السكر أكثر من خطوات قريبة من الباب، ليلقي كل منا بجسده كخرقة اجتماعية بالية، لتفوز الأريكة، أو الأرض كما فعل عدنان، بشرف احتضان سكارى عانوا غصّة الفقد. أما ممدوح فهو الوحيد الذي احترم جسده ودخل إلى الحجرة ليرتمي على سريرها ويعبّ من كأس النوم عبّاً...

أحياناً لا يقدّر المرء المسافة بين جسده وكرامته، في هذه النقطة من اللاتقدير يمارس والجسد تعذيباً مشاعرياً طاغياً، يكون فيه الجسد أسيراً خارقاً للقانون، لزاماً معاقبته، في مثل هذه اللاإرادية للأجساد نمتهن قوانين خرافية لإرداء هذه الخرقة البالية في مستنقع من الخطايا والموبقات. دافعنا الأول خلف هذا الامتهان لمشاعر لا رصيد لها من الإيجابية، نشوة وتغييب، نحاول شنق الجسد وإدخاله في

دوامة من المعاصي الخلفية كي تتساوى معها السلبية الصفرية. . .

إذن المسألة مسألة حرب مشاعرية/جسدية، في هذه الحرب يضحي العدل والظلم في مرتبة واحدة على سلم الحياة. . .

يغلبني شعور اليأس، فما دمت أرى مثل هذا الأمر، فلماذا أسير في الحياة بمثالية صرفة. . .؟ في داخل كل منا شيطان، هذا الشيطان هو الوازع الأخرق تجاه الخطايا والتأويل الساذجة، لا يمكن نكران وجوده، ولا يمكننا جحد جبروته في شرائعنا المعلقة بالخطيئة. إيماننا بأنفسنا ينقص عند تلك اللحظة الآدمية التي نراها بريقاً إنسانياً، لكنها في الأساس خطيئة ملفقة وعابرة، تتعاون كل القوى في حياة بني آدم، لتدخل الآدمي في سرداب ضخم مظلم هو سرداب الخطيئة!!

في ذلك الصباح استيقظت على صوت أنثوي جميل، كان صوت الخادمة، رفعت طرف عيني اليسرى لألمحها تلملم ركام المخلفات المسائية، قوارير شرب، جوالات، ساعة يد، مفاتيح السيارة، خاتماً، ومسبحة لعدنان. . .

كان لمسبحة عدنان يوماً ما قصة غريبة غرابة فلسفتها، فقد كان حريصاً أن تكون معه في كل لحظة، سألته يوماً:

ـ عدنان لماذا دائماً تحمل معك هذه المسبحة. . .؟

ضحك بخجل وقال:

ـ اقتناء الأشياء شعور عاطفي تجاهها، وهي في الوجهة الأخرى تكميل لنقص ولج في كينونة البشري نفسه. فيها أمارس ملامسة الأشياء بلذّة، تعطيني تصوراً للجمادات أكثر، وهي بالنقيض تحيلك من إنسان ينتمي إلى الإنسان، لإنسان يحسّ بالجماد أكثر. أنا أشعر بأن مزاولة التبادل بين الإنسان والجماد، أفضل من التقوقع والبشر في مماحكة مضحكة!!

هذه الأحجية التي ذكرها لي لم تلج إلى رأسي مطلقاً. تمتمت بكلمات لم يسمعها، ولكني تركته ومسبحته في ملامسة لذيذة...

تصنعت النوم. أردتُ أن ألقي عليها القبض وهي متلبسة بالجرم. في كثير من الأحيان نمارس قبحنا بترداد ممل. رضى نفوسنا بهذا القبح راكم في داخلنا البؤس والشقاء، عندما يرتمي الشقاء والبؤس على ظهر حياتنا، ستخور قواها وتنهك وتلقى صريعة، كنا نتوجّس من الخادمات خيفة، من سرقة أو سحر، هذا ما كان يلقننا إياه مدمنو السفر، وأولي الخبرة في مجال التحرر.

أتذكر أنه قال لي أحد المسنين الذين قضوا زماناً لا بأس به في هذا الخط الفاصل بين الغباء والتلذذ، أدمن ذلك الطريق، الذي يبلغ طوله 700 كيلومتر...

ـ إن الشعوذة والسحر بعض من النفوس هناك، تجري من حياتهم مجرى الدم، لذا احذر من هذا المارد!!

الخطأ ينجب خطأ، في عملية الإنجاب هذه يكثر الأولاد،

ويختلفون في التركيب الشكلي والمظهري. فحينما تكون الأم خطيئة والأب خطيئة، سيكون الأولاد خطايا مركبة. السحر والشعوذة تنجب العهر والسرقة. هذه المعادلة حاصلها الحسابي حسرة تخنق الإنسان ـ فقط الإنسان ـ مدى الحياة...

كما آل إليه ذلك الرجل الذي ذكر لنا قصة أبي تركي، فقد كان صديقاً قديماً له. اكتشفت فيما بعد أن أبا تركي لم يكن ليقول هذه القصة، ويعرّي صديقه إلا محاولة منه لردعنا عما نقوم به، بأسلوب عقيم من النضح...

مؤمن بأن الاستقامة دفعة معنوية أشبه بالصدمات الكهربائية لا يحتاجها الإنسان إلّا في وقت معين، بعد ذلك الوقت يعود للحياة بوجه آخر...

قال:

ـ كان صديقاً حميماً لنا، امتهن السفر، وأدمنه. في بداية الأمر كانت سفراته هروباً مؤدّباً من واقع مخنوق، وولعاً ورغبة عارمة في النفاذ. انقلب حال تلك السفرات فيما بعد، بعدما تعرّف على فتاة «نورية» وأقام في داخله سرداقاً عظيماً للحب...

في ذلك اليوم بعد انتهاء أبي تركي من سرد قصته، مكثت خارج المجلس أدخن وأفكر في حال الغجر. الغجر هم أسعد مخلوقات الأرض، لأنهم يلعبون في الحياة بأدواتها، يعيشون حبها بأسلوب مغاير، فيه يجتمع ثراء الروح، وثراء

اليد، حمقى أولئك الذين يدعون المثالية بعيداً عن مسلمات الواقع...

... استمر أبو تركي:

ـ بعد أن تعلق بها وأحبها بدأت تسوء حالته، وتنحدر إلى الهاوية. في تلك الأيام لم يتزوج بعد، كان في بداية توليه وظيفة حكومية جيدة، تكفيه لإنشاء منزل، والتزوج، وإنجاب أبناء ورعايتهم...

ضحكت كثيراً في داخلي عندما سمعت ما صبّه أبو تركي في أذني، نحن أمة لا همّ لنا إلّا ارتواء الجسد، نبخس الجمال الروحي حقه، همّنا زواج ومنزل، وبعد أن نتشرّب مياه نسائنا حتى الثمالة نعود إلى حياتنا الأولى من الارتواء بجسد أنثى أخرى.. لماذا نخون..؟ الخيانة ردة فعل عكسي للتشبع الجسدي، والوفاء فعل للتشبع الروحي، قضيتنا وخيانتنا قضية إشباع وتشبع...

كان أبو تركي ما زال يسرد قصة صديقه:

ـ ترك صديقنا العمل بعد إجازة اضطرارية لم يعد منها إلى اللحظة. تقدّم بطلب إجازة اضطرارية لمدة عشرة أيام، ذهب ولم يعد. بعد مضي سنة تقريباً من ذهابه، خرجت أنا والعائلة، وهو يشير إلى تركي قال: «كان تركي وقتئذ صغيراً»، إلى سوريا للتنزّه. وبينما نحن خارجون في عصر أحد الأيام، ركبنا سيارتنا وانطلقنا من تلك الفيلا التي كنا نقطنها في «الزبداني»، واتجهنا إلى «بلودان». وقفت بجانب

كشك لشراء بعض العصائر والمأكولات الخفيفة التي ستخفف عنّا صياح الأطفال. وعندما أخذت ما أردت شراءه، وأنا أمدّ يدي لنقد صاحب الكشك ماله، صدمت بأن ذلك الواقف أمامي هو صديقنا القديم... صرخت... «فلان»...؟ ردّ عليَّ دون اكتراث «نعم فلان من أنت»...؟ أنا أبو تركي صديقك القديم... «لا أعرف أحداً بهذا الاسم». أخذت أهرول في الذاكرة بمحاولة يائسة لاستعادة ما تخزن فيها تجاهي، لكن للأسف لم أستطع أن أفضّ بكارة عقله. أحزنني منظره المروع، عدت إلى السيارة، ولم أنبس بكلمة، عدت مباشرة إلى المنزل. وفي صباح اليوم التالي، كنت أقود سيارتي عائداً إلى وطني... عندما وصلت إلى تبوك، اتجهت مباشرة إلى صديق لي يُدعى أبو ماجد، يعرفنا كلانا، ذكرت له ما حصل، كسبق حدثي مذهل، قابلني باستغراب:

ـ إذن أنت لا تعرف ما حلّ به...؟

ـ لا لم أعرف...!

ـ لقد سحرته «نوريته» تلك، وجعلته يترك أهله ووطنه ويقبع بين فخذيها إلى أن بار ماله، وانقضت مدخراته، عندها ألقمته فم الشارع مشرّداً ذليلاً، وهو يعمل ليل نهار وفي آخر المطاف يعود لينقد تلك النورية ما اكتسبه من مال...!

ارتشف أبو تركي من فنجان قهوة عربية كان أمامه:

ـ يقولون إنه توفي قبل قرابة السنة والنصف منتحراً، فقد

رمى بنفسه من هاوية أحد جبال «بلودان». ويقولون إن جثته لم يبحث عنها أحد، فقد كانت تلك الليلة مأدبة ضخمة للكلاب...

سرت في داخلي قشعريرة وأنا أتذكر هذه القصة، رسمت على جلدي حبيبات صغيرة، وأنا أتأمل في الخادمة. شيء ما في داخلي يقول بأنها ليست غجرية، وشيء آخر لا أدري كنهه، يفسّر لي علاقة البراءة في مشيتها وتصرفاتها؛ أحياناً نترجم وقائع ما في داخلنا بتصرفات عادية جداً، لكن النساء في التناسخ عملة عجيبة تتفق في كثير من الأمور...

أخذت أراقبها عن كثب، كانت ترتّب الشقة بهدوء كيلا تزعج أحداً منا. توغّلت الخطيئة في داخلي، أرمق أردافها بشهوانية، ردفاها نافران، اهتزازها رائع فعلاً، كانت خيوط ملابسها الداخلية تنفر من وراء البنطال الاستريتش الضيّق. هذا ما أغراني في متابعة مسلسل الإغواء هذا...

وبينما أنا كذلك، وجدتها تجمع مخلفاتنا الليلية، تضع القوارير في الثلاجة، والمفاتيح والجوالات ومسبحة عدنان على التلفاز...

تنهّدت، وطردت الكثير من الوساوس التي كانت تنخر جمجمتي، ونفضت ما في داخلي من شك وريبة، ولم تزل عيناي معلقتين بأردافها تحرس خيوط ملابسها الداخلية.

الشعور الذي يأخذك للبعيد شعور حي

يتقدّم الجنس قائمة حياتنا السوداء، ينظر إلينا بازدراء إذا لم نلبّ ما يريد. هو الجبروت اللذيذ، هو التسلط الممتع، لماذا لا نجيبه ونحن مأخوذون إليه بالفطرة...؟

يعتريني شعور خفي تجاه تناسلنا، نعم نحن نتناسل بشكل مضحك، فكيف لتأوهات تزيد من حجم البشرية على الأرض...؟ البشرية بالون مرقوع، فيه ثقوب كما وجه سبعينية. المسنون طيور فينيقية، ماتت من زمن لكنها عادت للحياة لتوبّخنا على انطلاقنا الممتع، لماذا المسنون يصرّون على إركابنا زورق التخلف... والحماقة...؟ لماذا يؤيدون فكرة أننا مستهترون...؟ عقدة النقص تولّد عقد نقص كثيرة. المسنون لم يجدوا منفذاً لحياتهم إلّا الكلام. أسلوبهم حكواتي يثير نوعاً من القرف، هو قرف المعرفة المحنّطة. طريقتهم تحيل حياتهم لمؤتمر عربي، جلّ ما فيه غثاء...!
نطارد الجنس كالأطفال...

نظرت إلى ذلك النهر بين ردفيها، تأمّلته بعمق، تظاهرت بالاستيقاظ، أنا الذي مكثت في مراقبة ذلك العضو طويلاً،

استيقظت أسدلت رموشي على عينيّ بطريقة فاتنة، ونفضت النوم عن جسدي، هبّ في داخلي شعور الخدر اللذيذ... مددت قامتي، وكأنني من أولئك الهنود الحمر...

نادتني:

ـ صباح الخير...

ـ أهلاً صباحكِ ورد... والابتسامة تعلو محياي...

المعلبات، والأطعمة الجاهزة تضخّم بها المطبخ. حملناها معنا من السعودية. في هذه الحالة لا يسعنا إلّا اكتشاف حجم بطوننا... ثقافة البطن هي الثقافة المتسيّدة على عقول الذكور خاصة، الأكل معول بناء في التفكير الآدمي، وهو حصيلة نتائج تراكمية في شهادة الحياة الأزلية...

ـ هل أعدّ لك الإفطار...

قالتها وهي تنظر إليّ بطريقة لا أدري ماهيتها... فقلت:

ـ أي واللّه، إنني أتضوّر جوعاً، وأريد شاياً «سكر زيادة»...

تركتها تسير أمامي بانثناءات فيزيائية أنثوية بحتة، وأنا أراقب في مرصد الجنس الفكري، ما يدور في ذلك الكوكب... الخطيئة ندبة في جفن الحياة، أحالت جمال تلك التضاريس إلى مسخ مشوّه...

اتّجهت إلى الحمام، اغتسلت وطردت ملايين الجراثيم من فوق مستعمراتها الجلدية، وأزحت نصل البارحة الذي ما فتىء يشرّح مخيلتي، وتفكيري. خرجت وأنا متّزر بمنشفتي،

خرجت فوجدتها في الصالة بابتسامتها المشرقة. كان شعر صدري عامل تحريك النشوة في داخلها. الجنس أشبه بالمشروبات، يجب أن يخلط في النفوس ويحرّك بعناية قبل أن نشرب منه!

بادرتها:

ـ أفضّل لو تناولنا الإفطار في المطبخ...

كان المطبخ واسعاً، وقد سكنت في وسطه طاولة طعام كبيرة، جديرة بالتقاء عروسين. لم أكن أقصد بهذا التوجيه اللبق، إلا الاختلاء بها... حاولت تبرير رأيي هذا قبل أن يعتمل الشك في داخلها ويخيط قناعات تلبسها وتتدثّر بها، فأردفت:

ـ الشباب هنا نائمون ولا نريد إزعاجهم...

رغم تبريري هذا إلّا أني ظننت يومها بأنها فهمت ما أصبو إليه. المرأة في بعض الأمور أذكى من الرجل، لا أظن بأن الجنس بعيد عن هذه الأمور. المرأة في قضايا الانتشال تلعب دور المحامي. أخذتْ تلملم الأطباق من وسط الصالة، كطفل نشر أمامه مستلزماته الدراسية، وتوجهتُ إلى الحجرة، ارتديت أفضل ملابسي التي كانت معي، وسرّحت شعري المنسدل الطويل، ورششت على ملابسي ونحري من عطر اقتنيته معي... لا أدري لماذا استعدت عبارة عدنان تلك التي قالها لي يوماً وأنا أرشّ العطر على نحري (المرأة هي الكائن الوحيد الذي يعشق من أنفه)!!

في الصباح، جمال المرأة صارخ، وجمال الرجل صارخ أيضاً، بين هذا وذاك تلتقي الأجساد على حبل رفيع ودقيق جداً، هو لذّة عابرة!

دخلت المطبخ، وجدتها تنتظرني. صافحتها ثم شددت يديها إليَّ برفق، لثمت خدّها ورائحة العطر تفوح في المكان، كانت سبباً في تخدّرها ودوختها، ثم نظرت إليها:

ـ فارس...

ـ نور...

لم أشعر بوجود الأطباق من حولنا، تسامقت جرأتي على قامتها اللصوصية. تجسّس خفي تقوم به هذه الأطباق. كانت الفتاة في بداية العشرينيات من عمرها، عراقية الأصل من أم سورية، متزوجة برجل لا تعرف عنه إلّا خلوة ليلية يصبّ فيها جام لذّته ويرحل. المرأة هوة عملاقة، لا بدّ أن تهتم بها وبجمال حفرتها كي لا تردم!

ـ عطرك مرة حلو...

قالت هذه العبارة وهي تقطع أجزاء من خبز كان أمامها وتناولني إياه...

ـ ذوقك الحلو...

كنت أعرف أن من اللباقة أن أقدّم لها هذا العطر كعربون صداقة، وكنت واثقاً أيضاً بأن للسرقة جانباً كبيراً في هذه العبارة. قلبنا الأحاديث على نار هادئة، وتطرّقنا إلى العراق

كثيراً، وعندما ذكرنا مأساة العراق، لم أتلكأ في ذكر مقولة عدنان التي قالها لي مرة:

(مأساة العراق هم من أنجبها، وهم من ربّاها، وهم من سيموت بها، العراق لا تحكمه إلّا المأساة).

برّرت عبارة عدنان هذه، وفككتها بجمل تعليلية، وأدوات استفهام، وانتهينا من إفطارنا. بدأ الشيطان يلعب لعبته. عندما يحين الشبع ويتوارى الجوع، يصبح للشيطان متّسع كبير يعبث فيه...

ساعدتها في جمع الأطباق كوسيلة تقليدية رديئة في الطلب المؤدّب تجاه امرأة... لا أدري لماذا نضعف أمام المرأة عندما تحين ساعة الجنس...؟!

حين يداهمنا شعور الجنس، تنقلب الأشياء رأساً على عقب...!

الجنس عملية ولادة مكرّرة، حمل ومخاض ولفظ. نحمل شهواتنا في دواخلنا، ثم نرتعش باهتزازات، ثم نلفظ ذلك السائل ليرى النور. في الحياة تكامل مدهش، تكاملية الحياة تعطي دورانية مدهشة أيضاً، هذه الدورانية الحياتية تساعد في سير رحى الحياة بدون تلكؤ، ليس كما يدّعي عدنان حين قال لنا نظريته تلك التي أطلق عليها «فلسفة الدائرة». فعندما دلفنا إلى شارع برزة، طلبت من ممدوح أن يدور في عكس الاتجاه منطلقين إلى مكتب عبدو، فقال لي:

ـ لا تقل تدور، لأنه ليس ثمة شكل دائري في الحياة!!

إستغربت باديء الأمر وقلت له:

ـ كيف. . .؟

ـ ليس ثمة دائرة في الأشكال الهندسية، وليس ثمة أي شكل دائري في هذا الكون، الدائرة هي تلك الأريحية التي نرى بها الأشكال الهندسية. خروجنا من بطن أمهاتنا الأقرب للشكل الدائري ولّد لدينا هذا التصور الدائري للأشياء. تكور بطن الأم الحامل هو ما جعلنا نرتاح لقيم الأشكال الهندسية، واستحالة بعضها إلى دوائر، فهل يعقل أن يكون ثمة شكل هندسي ليس له بداية أو نهاية. . .؟ في حياتنا هل يمكن أن يكون ثمة عملية دائرية. . .؟ حياتنا تبدأ بالولادة، وتنتهي بالموت، ولا يمكن العودة للحياة بأي شكل كان، ومن هنا أدلّل على اللادوائر في عالمنا. . . إن الرائي لأي شكل هندسي يمثّل دائرة في نظره، فهو يرى الشكل بأريحية وبالتالي يراه دائرياً، والعين المجردة لم تدرك قيمة التكسّر في هذا الشكل الهندسي، لتحدّد نقطة البداية من النهاية. فلا بد أن يكون ثمة جزء يمثّل زاوية ترتكز عليها هذه الدائرة لتمثل بدايتها وتبرّر نهايتها. . . العين المجرّدة غير قادرة على إثبات هذا الأمر، من هنا آمنّا بوجود الدوائر، والسبب الآخر هو أننا خرجنا من شكل هندسي هو تكوُّر بطن الأم، جانبنا الروحي أعطانا هذا التصوّر للأشكال الهندسية. سؤال دائماً ما يعتريني كيف لأي شكل هندسي نراه دائرة أن يستقر على سطح مستوٍ دون أن يتحرّك يمنة أو يسرة. . .؟ لا بدّ أن

يكون لهذا الشكل الهندسي نقطة يرتكز عليها وتمثل تكسر فيها بحيث تجعلها تقف! فليجرّب أحدكم أن يضع أي شكل دائري على سطح ما سيجده يتوقّف. فهل من المعقول أن يقف هذا الجسم...؟ دون أي تكسر في جوانبه يشي بأنه ثمة زاوية فيه تمثّل بدايته من نهايته وبالتالي يخرج هذا الشكل من قيم الدائرة فعلاً.

بعدما انتهينا من ترتيب الأطباق وغسلها، سحبتها من يدها، وذهبت بها إلى الحجرة حيث العطر. رششت عليها بعضاً منه، وطلبت منها أن تنقل حقيبتي إلى الحجرة المجاورة، لم يكن قد دخلها أحد بعد. عدنان وتركي ناما في الصالة، وممدوح ممتد أمامي في هذه الحجرة. كانت تلك الحجرة خالية من كل شيء إلّا بوادر الخطيئة!

سبقتني إلى الحجرة، لحقت بها، وعندما دلفت وراءها أغلقت مزلاج الباب بإحكام، كان العطر في يدي، فقلت لها، وأنا أمدّه تجاهها:

- أشكرك على ذوقك، وهذا أقل شيء يمكن أن أقدّمه تجاه ذوقكِ الرفيع...

أخفضت رأسها قليلاً ثم قالت:

- لم أقل إنه جميل بغية أن تعطيني إياه...

- أنا أريدكِ أن تأخذيه...

- شكراً «كلك زوء»...

التقطته من يدي، فأمسكت يدها برفق، وجعلت أنظر

لعينيها وشفتيها باشتهاء، نزت على محياي بسمة طفيفة، وضعت يدي على شفتها السفلى، لم تحرّك ساكناً، عندها قلت:

ـ أنتِ جميلة.. فعلاً...

لم تتكلّم، كمن اقتطع لسانها من فمها، وأطرقت في خجلها، وكان هذا دافعاً لي في الاستمرار. كانت يدي اليسرى تحرس خصرها، ويدي اليمنى مسمّرة على شفتها السفلى. أخذت أقترب منها، وأقترب، إلى أن ألصقت شفتي بشفتيها. قبّلتها قبلة حارة، سرت الحرارة في جسدي، كانت كمن خرج لتوّه من نار مستعرة، عاودت الكرة مرة أخرى، والتقطت لسانها، أخذت أمصّه بلذّة. سعار متوحش غزاني، قامت بدورها والتقطت لساني وبدأت تمصّه بشبق لذيذ. شعرت بأن الدنيا تدور بي، دخت، ضاعت قيمة الأشياء من حولي. لم أكن أشعر إلّا بنقطة واحدة في هذا الكون الفسيح هي لساني، طوّقتها بكلتا يديّ، فقامت هي ووضعت يدها خلف رقبتي، بعنف ضممتها، لم أعد أتذكّر إلّا صوت قارورة العطر وهي ترتطم بالأرض!

إن الإنسان الذي يحاول الاستجداء بالبكاء لا يستحق الحياة...

ـ أشعر بأن هروبي من واقعي يُترجَم ببكاء أو جنس!

نطقت بهذه العبارة من جملة الكثير من العبارات، كنا مستلقين لا يفضح عرينا إلا غطاء السرير، أجمل الأحاديث هي تلك التي تتعقّب الجنس، تعرية في كل المفاهيم، وفضائح في كل العبارات..

كانت نور إنسانة غير عادية، نظرتها للأشياء لم تكن كتلك التي تتحرّش بسطحيتها، اكتشفت ذلك بعد محاورتها قلت:

ـ لماذا تشعرين بهذا الشعور..؟

أبعدت رأسها عن صدري، وأناملها التي كانت تتلاعب بشعيراته، ونظرت إليَّ بإشفاق أم وقالت:

ـ أنا واحدة من مئات الفتيات اللاتي يدفعن ضريبة الحرب...

ـ كيف ذلك..؟

ـ عندما تكون ناتجاً في أي عملية فعليك أن تتحمّل عبء كونك ناتجاً لا يمكن تغييره...!

مراراً كرهت عدنان، وهو يصبّ الأحاجي في أذني رصاصاً مذاباً حارقاً. كانت تتعامل معي كما يتعامل معي عدنان. أصبتُ بعقدة اللافهم من كلامهما المبتور هذا. أحياناً أحسّ بأن البتر أسلوب وضيع لعقلية هشّة لا تستطيع أن توصل ما بين الفقرات بأسلوب أمثل...

لم أتجرّأ وألقي عليها سؤالاً آخر يبيّن مدى ما أنا فيه من العته. تخزني وأنا أنظر إليها فاغر الفاه، لكنني ادعيت الفهم، وقلت لها وأنا ألملم خصلاً من شعرها نفرت عن أخواتها لتحطّ على عينيها:

ـ في كثير من الأحيان لا يكون الناتج خطأ، الخطأ في تركيب العملية وليس في ناتجها!

ـ فارس، نحن لم نكن خطأ، العراق مرّ بعملية رياضية غاية في التعقيد لنخرج نحن ناتجها. هل تظن بأن تلك العملية خطأ في الأساس...؟!

ـ لكن ليس لكم ذنب في كل ما يحدث...؟

ـ أقدارنا تنبت في تلك الأرض التي نعيش فيها، نحن تراب العراق، تراب العراق لا بدّ أن يتغيّر...!

ـ لكن أليس من المنصف أن يُغيّر الحكام..؟

ـ نحن كتبٌ يكتب فينا حكامنا قواميسهم وشرائعهم، وإذا اعتبرنا التغيير منصفاً لا بدّ أن نُحرق!

كرهتها في ذلك اليوم، حدّ أنني نزحت بعيداً عنها مدّعياً شرب الدخان. أخذت أمزّ سيجارتي بلذّة، أفضل السجائر

تلك التي نرتشفها على سريرٍ أرقنا فيه ماء ظهورنا. شعور ما كان يلحّ عليَّ بطردها. لكن ما زال ثمة بقايا من إنسانية ملتصقة بحياتي، كيف لي أن أطرد أنثى قدّمت لي دفئها دون تكلف...؟ وكيف لي أن أطرد ماء سكبته قبل لحظات...؟ أفكار كثيرة تحوم في رؤوسنا حين نمارس الجنس، إذاً الجنس مستودع ضخم للأفكار، لا يلجه إلّا المبدعون!

رانت على محياها بوادر ضحكة مغلوبة فقالت:

ـ الجغرافية العربية طبق شهي على طاولة العالم، كلٌّ يبحث عن طريق ليأكل منه.

ـ وهل تخالين بأنهم يستطيعون...؟

ـ مصيبتنا أننا نقدّم أنفسنا قربان رضا!!

ـ.........

ـ اليوم العراق، وغداً إيران، وسيأتي اليوم الذي تُغتصَب فيه اليمن، ليس لشيء إنما ليبقى الخليج بين فكّي مرارة، يُمتَص حتى النفاذ!

عندما قالت عبارتها هذه، تذكّرت على الفور قول عدنان (دول الخليج أشبه بالمرأة، وكل العالم أبناؤها، يمتصّون من ثديها، لم ولن تطردهم، لكن سيأتي اليوم الذي يتخلّى فيه الأبناء عن أمهم)!!

ضحكتُ واستطردتُ:

ـ الجوع وليد العالم الآن، كلهم يبحثون عن لقمة يسدّون بها منافذ جوعهم، لكن لن يقف مسلسل البحث إلّا عندما

توصد أبواب الحوانيت كي لا تُسرق. نحن شتات في داخلنا، مُجمّعون لكل العالم من حولنا...!

اقتربت مني، وضعت يدها على صدري، طلبت أن تشاركني في سيجارتي تلك. مددت لها آخر نفس فيها، ذبحتها بمزة قوية، وألقتها بجانب السرير على تلك الأرضية المرصعة بالسيراميك، كانت ترسم حياتي في هذه السيجارة. نحن نتبادل أدوارنا مع أشيائنا!! هي ونحن متناسخون وفارق العنوان!!

حدّقت بي ملياً، لم أتوان في إلقامها شفتي السفلى. أخذت أمص العليا البارزة، آهة عميقة صدرت منها بدّدت وحشة السكون، لتدخل في غيهب من اللذّة الجنونية، نشوة الجنس أعظم نشوة يخرج منها الإنسان عن مدار عقله.

* * *

لم أستيقظ ذلك اليوم إلّا عند الساعة الثالثة ظهراً، على صراخ عدنان وممدوح وهما يتنابزان، والضحك يضفي على المكان ضجّة؛ كنت عارياً من كل شيء حتى القيم والمُثل العليا. استللت منشفتي من على «التسريحة» وخرجت ليتلقّفني الشباب:

- صح النوم...

لم أنطق بأي كلمة، حدجتهم بنظرة قاسية، كتصرف أي مستيقظ جديد، جعلت أنظر في نور بنظرة ملؤها النشوة،

وهي مطأطئة رأسها. جميلات هؤلاء النسوة، ردود أفعالهن باردة برودة دماء الرجال...

... دخلت لأغتسل من هذا الجرم المشوّه، الذي اخترق مداري كأول مرة أمارس الجنس وخادمة، يهرش جسدي شعور من الدونية. نظرتنا لهن بأنهن عاملات يقمن بعملهن بآلية المكائن، لا يليق بهن العيش إلّا مستترات خلف الأطباق.

نقص في قدراتنا، حين يموت فينا عامل الإنسانية، ويدفن تحت تراب التكبّر والطغيان...!

خرجت بعد أن بددت ذلك الجرم عن عاتقي، وارتديت ملابسي وعدت وأنا أقول:

ـ نور إني أتضوّر جوعاً...

باغتني عدنان:

ـ بهذه السرعة عرفت اسمها...؟

ـ إستيقظت باكراً، لقيتها وطلبت منها إفطاراً، تناولته وعدت لأنام. ألم ترَ أنني نائم في الحجرة أم أن سحابة السكر ما زالت قابعة فوق رأسك...؟

كنت محتاجاً لهذه الكذبة لأبرّر معرفة اسمها أمام أصدقائي. كنت دوماً ما أكذب خارج أسوار الوطن، صدقنا وكذبنا خارج الأسوار يلعب لعبة قذرة، هي التخفّي خلف الشفاه. هذا الدرس كان عليّ أن أتعلمه بالفطرة، خارج الوطن يكون كل شيء مدعوّاً للتخلخل والتزحزح، فيه لا

يبقى لأي قيمة مكانها الصحيح. نتبادل الأشياء بطريقة سهلة سريعة التشكل. خارج الوطن كل تصرفاتنا مطاطية تمتدّ إلى أن تستحيل شيئاً غير ما هي عليه في الأساس، نحن هكذا قطع صلصال عظيمة يشكّلنا الزمن لمآربه. . .

سارعت نور في إحضار الأطباق التي أكلنا منها صباحاً، لم تشأ تقديمها للشباب، لا تريد إثارة أي شكوك، الريبة الرديئة قابعة في عقولهم، هم من ينظر إلى الأشياء بريبة متجاوزة الحد. في الحضيض لا نرى إلّا أشياء دنسة، ولا نفكّر إلّا بها!!

أكلت من هذه الأطباق، لم يعد لها ذاك المذاق الصباحي. عند نقطة التحول تتحوّل كل الأشياء التابعة لنا تحوّلاً جذرياً، لم أعد أرى «نور» كسابق عهدها، فراولة شهية. . .

كم نحن مجحفون في حق أنفسنا، بلادة أذواقنا تسعى إلى طرف ألسنتنا بإذهال!

بعد عدد لا بأس به من اللقيمات التي تدحرجت في بطني بتكسّر، صار الشراب هو أهم فرض أقوم به بعد عملي هذا. أشعلت سيجارة، وطلبت من نور أن تعدّه لنا. بعد لحظات أقبلت نور وفي يدها طبق فاخر، يتوسّطه المشروب، وصينية أخرى تتراقص فيها مكعبات الثلج خوفاً من ذوبانها، ومجموعة من الكؤوس كانت أكثر إغراء وإغواء، كان يوصيني عدنان:

ـ لا تسرف في الشرب بعد الأكل، لأن كثرته تستحضر الإفراغ، وستقيّأ كل ما في بطنك قطعاً لم تهضم بعد...!

نظرت إلى الكؤوس، منظرها يستدعي الشيطنة، قلت لعدنان، وأنا أملأها:

ـ ألا تلاحظ أن هيئة الكؤوس مُحرِّضة على الشرب...؟!

ـ مدهش ذلك الشعور الجميل للكؤوس، هو الشعور الذي يدخلك في زمرة الأشقياء سريعاً!

شربنا، وشربنا...

طالبتُ نور بالشرب لكنها اعتذرت معلّلة بأن ليس ثمة دافع له. المرأة لا تشرب بعد الجنس بقدر شربها قبله، تريد إبقاء لذّة التذكر متزعّمة تفكيرها، بينما الرجل يشرب بعد الجنس بشراهة، كي يتجاوز مرحلة تقزّزه من الأنثى. في هذه الفلسفة العظيمة للشرب، لا يبقى إلّا الشواذ هم من يكسر صلابتها...

قال عدنان لي يوماً:

ـ الشرب له مبادىء وأصول، وحقائق وشواهد، فيه لا بدّ أن يكون ثمة عظماء، ودهماء. هنالك حيث الشرب، تُمثّل الأيديولوجيات المختلفة. هو وطنٌ ساكنوه خارج نطاق السيطرة، يرتعون بعيداً عن المراعي الخصبة، عندما تكون الشمس محرقة يتمتعون بالحرارة في دواخلهم وخارجهم. السكارى كائنات حرارية، يجب أن يكون لديك رصيد من ثقافة السكر!

زادت نور من صوت جهاز التسجيل القابع معنا في ذات المكان.. خرج صوت المغني العراقي منساباً على أسماعنا:

«هذا يا حب جايني أشكيك عليه

مسكين قلبي اللي انجرح وش صار في»

لأول مرة يشرب ممدوح في حياته، أسرف في شربه. هم هكذا المبتدئون، يعانون في تجاربهم الأولى كالأطفال، يجيدون ممارسة نظرية التعلم بالمحاولة والخطأ. بدأ الكل يفقد زمام الأمور، لم ننتبه إلّا وممدوح يقف ويطلب من نور مصاحبته للحجرة، سارا أمامنا ودسّا جسديهما في الحجرة، لم أحسّ بأية غيرة، فهي كأي فتاة أراها ملاذاً لشهوة عارمة عابرة، مكاناً أقذف فيه حممي الجسدية وأمضي...!

الفرح لحظة غباء موارب فيها

صخب الشارع كان مدوياً، الأصوات تتعالى، والناس كلهم يسيرون في مظاهرة فرائحية راقصة. صوت الطبول والأغاني يملأ الشارع سكراً ونشوة، إحساس جميل كان يسكنني. أن ترى كل من حولك سعيداً، شعور آخر. ذكّرني ذلك الموقف بأعياد طفولتنا، عندما كنا نبدّد صمت الشارع الأبدي طوال السنة في ثلاثة أيام ملؤها الفرحة والبهجة. كنا نخرج بعد صلاة العيد، لنشعل فتيل الشارع بالمفرقعات، ونجعله خطاً نارياً من السرور، أتذكر اليوم الذي حرقت فيه ثوب «عمار» ابن جارنا، يومها لم أستطع النوم كعادتي في كل مصائبي إلّا تحت السرير، هرباً من جبروت أبي. لم يكن ليعاقبني إلّا لأذية جيراننا. كان قدرهم علامة فارقة على جبين مبادئه. وفي أخطائي الأخرى كان يقدّم براءة طفولتي على أي أمر آخر. الآباء إيلاذات مقدّسة، نقف أمامها باحترام، هم أشبه بالأصنام نعبدهم ونتقرّب لهم، ونقدّم لهم تصرفاتنا قرباناً، لكن مع مرور الزمن تغدو خراباً. حياتنا التعاملية صحراء يباب، تفتقد لماء المرونة والتسامح، لم يكن ليهطل هذا الماء، فأجدبت وماتت كائناتها!

خرجت وفي رأسي يتختّر الشرب، شعور فقدان التوازن يفرض هيمنته على الموقف؛ كان تجمع الناس خلف سيارة صغيرة «سوزوكي» يشبه ملاحقة الأطفال سيارات الآيسكريم. الكبار أطفالُ الداخل، مستّو المظهر!

تجمّعت في الشارع عجينة بشرية، ذكوراً وإناثاً، أطفالاً وكباراً، رؤيتهم من بعيد توحي بأن القيامة قد حلّت. في تجمع كهذا تشعر بأن البشر طينة واحدة، لا يختلفون إلّا فيما يسترون به جلودهم!

نفتقر لهذه المناظر في بلادنا، في حياتنا تطرُّف مهول. الاجتماع لا يكون ممزوجاً أبداً، إما ذكوراً بالمطلق، وإما إناثاً بالمطلق، لا مجال للامتزاج، حياتنا كائن متطرف!

أحياناً يكون للخلطة مفعول في تجبير القيم والمبادىء الآيلة للسقوط!

افتقارنا لطرفنا الآخر، صيّر من حياتنا محنة صعبة، تعاملنا معه أورثنا شيئاً من اللالياقة. في هذا التعامل لا مجال للتوسط، إما جرح غائر دامٍ مميت، أو تطبيب زائد فائق عن حدّه، في كلا الحالين نموتُ...

إن الناس في حياتنا بعيون معصوبة يقودهم فيها تطرُّف أعور!

سارعت في دسّ جسدي في هذا التموّج البشري. كان في مقدمة هذا الموج سيارة قبع فيها مسن وعجوز هرمة، وأمام السيارة التي تسير ببطء فاحش شبّان يتراقصون ويتقافزون،

وصوت جهاز التسجيل عالٍ جداً، ملأ الحي كله، تنبثق منه أغنية شامية عتيقة، الكل كان فرحاً، الكل كان مسروراً. . .

دائماً منظر البهجة المطلق في الحياة، أمر في غاية الغرابة! كثيراً ما أتساءل لماذا يكون منظر السعادة غريباً. . .؟ ولماذا ختم على قفا حياتنا بؤس وشقاء. . .؟

أخال بأن سعادة أولئك الناس وقتية ومحدّدة، فيها سارعوا في قذف ابتساماتهم وضحكاتهم بين الأزقة تحسّباً لدخول وقت البؤس، وكأنهم موعودون بشقاء موغل في التزمّت! هي الحياة، الفرح فيها كائن مؤقت، جوازه مليء أختاماً، ربما نسمّي السعادة «كائناً رحّالاً»!!

كنت ثملاً بالقدر الذي جعلني أتقدّم هذه الجموع وأبدأ بالرقص والقفز وأولئك الشبان. كانت تساورني رغبة المشاركة. عندما نجد أنفسنا مدفوعين إلى لحظة سعادة، وعندما تلحّ علينا المواقف في تتبّع أقدامها، عندها لا بدّ من الإسراع في إنجاز اللحظة العملية في هذا العمل المتلاشي. الذي سيحترق سريعاً!

أرى كل المواقف زيوتاً سريعة الاشتعال، نحن من يدفع ثمن دخان احتراقها، بالموت محشورين به، كالدود. . .!

كان منظري مثاراً للدهشة، أنا الأسمر الذي تظهر على محياه بوادر الجزيرة. بيئتنا لها تأثير كبير في أشكالنا. البيئة قوالب نصب فيها أشكالنا، نمارس معها مناورة التأثير والتأثر، هي تصبغ علينا شكلاً محدّداً، ونحن نصبغ عليها

طابعاً تعاملياً، في علبة التأثير والتأثر هذه يكون للتصنيف دور بارز، يقسمنا إلى فئات، نحن الدونية منها...

أحسّوا بأنني ـ أنا الكائن الغريب ـ سكران. لهذا بدأ بعض صعاليكهم بالتمادي في لصق الأوصاف بجسدي النحيل، وهيئتي المثيرة للضحك...

ـ أحسنت يا خروف...!

ـ هيك الخرفان وإلّا بلا...!

ـ صوت ناعم «ولي شوفي هالخاااروف»!

لم أتحمّل مرارة الحقارة والسخافة، انسحبت من الحلبة والغيظ في داخلي يعبث بتلكؤ. شعور بالتبوّل يلتحفني، أريد أن أتبوّل على كل من يصادفني.

ذهبت لآخر هذه الحلقة، وأخذت أسير بهدوء، كان بجانبي شاب في نهاية مراهقته.

المراهقة ليست سناً محدّداً. المراهقة تصرفات، وعمليات حسية يقوم بها الفرد. علماء النفس قسّموا حياة الناس إلى طفولة، ومراهقة، وشباب، وشيخوخة، وكهولة. مع كل الاحترام للنظريات النفسية، المراهقة بكتيريا داخل الكينونة البشرية، إما أن تموت سريعاً أو تعمّر لآخر العمر. تقسيم البشر أمر في غاية الغبن، البشر أشبه بقطع الكوتشينا هيئاتهم متشابهة، لكن قيمها أشياء أخرى!

نظرت إلى ذلك الشاب. فقط ابتسامة تطفو على ماء وجهه، أدخل يديه في جيبه، وهو ينظر، خالسته النظر كي

أتبيّن نظرته على ماذا ترتكز...؟ لم أصل إلى نتيجة، كان كالبئر يخفي أكثر مما يظهر، فبادرته:

ـ مساء الخير.

نظر وهو يرفع حاجبيه من هول الصدمة:

ـ أهلاً مساء النور.

ثم أردف:

ـ أأنت من كنت ترقص قبل قليل...؟

ـ نعم أنا!

ـ وهل تعرف لماذا هم يرقصون...؟

ـ لا، هذا ما أودّ أن أسألك عنه...

ـ هل أنت سعودي الجنسية...؟

ـ نعم!

ـ إذن لن تدرك مقدار المساحة بين سؤالك وجوابي!!

ـ لماذا...؟!

ـ أحياناً، تكون الإجابات غير منطقية بين بقعة جغرافية وأخرى!

ـ ماذا تعني...؟

ـ أتدري أن كل هذا الرقص والبهجة سببها أن أبا سليم عاد من الحج قبل قرابة الشهر!!

ـ معقول...؟!!

ـ ألم أقل لك «أحياناً، تكون الإجابات غير منطقية بين بقعة جغرافية وأخرى»!

ـ حسناً، شكراً. . .

عدت إلى المنزل، أجرّ خلفي كائنات غريبة لا أعرف كنهها، لكنني آمنت بأن الإجابات لا تتمنطق في كل أنحاء العالم!!

من يعتقد أن السعادة حق فإنه لا يرى إلا بعين الموت

دلفت إلى الشقة، كانت نور تستعدّ للذهاب، ففترة عملها شارفت على النهاية، روتينيتها في العمل جعلت ارتداءها لملابسها نوعاً من الآلية الرتيبة. ارتدت خمار رأسها، وعباءتها المزركشة الداكنة الزرقة، وعرضت خدماتها بأسلوب تجاري أنثوي:

ـ فارس بدك شي...؟

لم أخرج بعد من هستيريا الغرابة التي اجتاحتني، جرّاء ذلك المشهد الاحتفالي الفرائحي لأبي سليم، فضحكت وهي تنظر إليّ بغرابة فقالت:

ـ شو بك...؟

ـ لا شيء فقط رقصت في الاحتفال...!

ـ أي احتفال...؟!

ـ كان ثمة احتفالٌ في الخارج وكأنه العيد. الناس كانوا يرقصون بفرح، وفي الأخير بان لي أن كل هذا الاحتفال بسبب عودة أبي سليم من الحج!!

ـ دائماً يحصل هذا!!

ثم أردفتْ:

ـ في المكان الذي لا يشعر فيه المرء بغلبة الطابع، فيه يكون نشازاً حتى في أفكاره!!

دائماً نألف الأفكار النشاز لأنها تضع القواميس المقروءة في حياتنا على طبق من الأغلاط، فليس كل ما نراه صحيحاً، وليس كل ما نكتنزه سليماً معافى. الكثير من الأحجار في حياتنا ليس لها من وظيفة إلّا التهشيم والتكسير، أحياناً يكون الإنسان حجراً لا عمل له إلّا التهشيم!

ـ اللّه معكِ.

هكذا قلت لنور وتركتها خلفي متّجهاً إلى الحانة التي ملئت شراباً. كان عدنان وتركي مستلقيين في وسط الصالة، وممدوح في الحجرة يئن ويبكي!

عندما يفقد المرء عقله، يصبح طفلاً صغيراً، لا همَّ له إلّا النواح!

لا أدري لماذا باغتني إحساس بالذنب. كنت أمسك ببعض من عقل، توقفت عن الشرب، ولملمت القوارير، وهممت بوضعها في الثلاجة، فصاح بي عدنان:

ـ فارس رفقاً بالقوارير!

لم أكن أدرك البُعد الذي يريد الوصول إليه، فنظرت إليه وبسخرية قلت:

ـ أي قوارير تقصد...؟

ـ إن الرسول (صلّى اللّه عليه وسلم) قال: «رفقاً بالقوارير»، قالها من منطق بلاغي مهول، كان يقصد بالقوارير هناك النساء، فعلاً المرأة قارورة سكر مركزة، تخرجنا من دوامة وعينا، إلى وحل من اللاوعي، بها نغادر نطاقاتنا المعهودة، وبها نحجز لأنفسنا مقاعد نقتعد بها خارج العقل والمنطق، شرابٌ مسكر حد التخلف، به ننسى حتى أهلنا وأقاربنا. أليست المرأة هي التي جعلت من المعتصم ثورياً بكلمة واحدة «وامعتصماه»...؟ أصوات ذكورية كثيرة تنبح ولكن ليس ثمة من يستجيب!!

حمدت اللّه في سرّي لأن «نور» قد ذهبت. كنت أثق في قدرة المرأة في الحوار، لكنني لا أثق في تهوّرها، دائماً ما تخرج عن مسار اللباقة بمجرد ذكر وجهة نظر، دفّنا إياه منذ الأزل. أنبتت في داخلها نوعاً من الرهبة والتسلح. كل الأشياء ـ في نظرها ـ ضدها، هي كائن مستنفر جداً!

أعدت ترتيب القوارير في الثلاجة. عدت فطلبت من عدنان أن يحاول أن يقضي على ما تبقّى من الكأس في يده. كان وضعه يشبه كل قطع الأثاث المهملة، رتابة في تناوله للشراب ولدت في داخلي رد فعل عكسي لأولئك الذين لا يجيدون في شربهم. في نظرهم كان الشرب معادلة مكوّنة من كأس وإراقة كميات في حوض البطن، ليخرج الناتج شخصاً بليداً وكسولاً أشبه بأنبوبة غاز، لا تتحرّك كثيراً لكنها في لحظة ما تنفجر لتخلف الكثير من الصرعى والجثث الهامدة!

أخذت أتنقّل بين الفضائيات، تارة على قناة فيها من الأعطاف النسائية الشيء الكثير، وتارة على قناة رياضية ومرة على قناة إخبارية. . .

قال تركي:

ـ ما أكثر القنوات الفضائية. . .

ردَّ عدنان بتهكم:

ـ قنواتنا العربية تشبه إلى حدٍّ كبير البراز، هو يأخذ حيزاً من جسم الإنسان لكنه حينما يخرج لا يفقده الجسم أبداً. . .

تضاحكنا فعلاً على هذا التشبيه، فخرج ممدوح على ضحكنا وهو يقول:

ـ السكارى، كائنات ضاحكة. . .

فردّ عليه تركي:

ـ هل تريدنا أن نبكي. . .؟

استشاط ممدوح غضباً وقال:

ـ على شحم. . .!

نظرت إلى عدنان وكأنه يتحيّن الفرصة للمداخلة فانطلق:

ـ ممدوح، الطبقات الإنسانية تختلف في تفكيرها، فأنت لا تفكّر مثلما يفكّر فارس مثلاً، لهذا دع عنك البكاء، فالنظرية «القيصرية»، لن تُحل البتة، مثلما شهوة النساء في داخل فارس لن تُحل. في داخل كل منا نظرية صعبة الحل، أو مستحيلة الحل، لذا يجب أن تراعي القوانين الحسابية في حلها. أول قانون هو البعد الزماني والمكاني لهذا الحل!

أعجبت فعلاً بهذه الرؤية من عدنان وأخذت في ابتزازه فقلت:

ـ لكن ليس بالضرورة أن تحل في وقت ومكان محددين...!

ـ الاختيار الموفّق في إجراء الحل في أي نظرية ـ سواء حياتية أو حسابية ـ هو المعول في نجاح هذ الحل. كلنا بشر نفتقد للاختيار الأمثل، ألسنا نحن من نفلسف نظرياتنا وأبعاد حياتنا المختلفة في أزمان وأماكن لا تليق بهذه الفلسفة...؟

ثم ارتشف من كأسه واستطرد:

ـ عندما يضيع التركيز في أي واجبات نريد حلها، تضيع معها الحلول المثلى والصحيحة. قمة الغباء إدراج أمانينا في سرد حياتنا الآنية!

ـ لكن أليس من الذكاء أن نتمنّى...؟

ـ الأمنية دستور يفقد الحقيقة صوابها، كلنا حين نتمنّى لا نتمنّى إلا الأشياء التي ليست في متناولنا، وهذا يوضح أننا كائنات خرافية، تحيا على الأسطورة، فالأمنية أسطورة خفية، لا يقولها المرء لأحد غير ذاته كي لا يكون أرعن!! إسأل نفسك لماذا نتمنّى، أليس لأننا نفتقر لهذا المُتَمنَّى...؟! إذن نحن نركب حياتنا على أساطير وخرافات نشكّلها بأيدينا، في أمانينا نعمل كالخزّاف، يشكل الطين كما يريد!

ـ هل تقصد أن في كينونة كل واحد منا خزّافاً...؟!

ـ بالضبط، في داخل كل منا خزّاف محترف، يشكّل

الأماني بحرفية عالية الجودة!

نظر ممدوح والتأفف يرسم على محياه علامات الضجر والملل:

- دعونا من هكذا موضوع، ما رأيكم لو ذهبنا إلى سوق الحميدية...؟

وجد هذا الاقتراح قبولاً لدى الجميع، فقام كل شخص منا بإعداد نفسه. شعور غريب كان يلازمني من سكر عدنان، وخوف مبطّن تجاه فلسفته هذه المرة. بعد أكثر من ربع ساعة في الاستعدادات، أدخلتُ المفتاح في ثقب الباب، وأدرته. ركبنا السيارة متجهين إلى سوق الحميدية، كان طغيان الليل فارداً جبروته على النهار، فقد وضع قدمه على قفا النهار. يندثر النهار ويدخل الليل بهدوء ووقار؛ بينما نحن متّجهون إلى السوق قال عدنان:

- يعتريني شعور غامض تجاه هذا السوق، ألا تتذكرون ذلك الصبي عندما استدعى عمالقته وكادوا أن يسحقوني...؟ لماذا لا نذهب إلى جبل قاسيون...؟

حصل ذلك حينما كنا في سوق الحميدية. كان الوقت عصراً، كنا نسير في ذلك السوق المتهالك إلّا من ذاكرة شعب؛ هو من القدم يصل حدّ القداسة. أحياناً تكون للأماكن قداسة من فرط مكوثها. أوضاع الحوانيت وأشكالها تعود بك إلى عصور قديمة، حين تراه تحسّ بأن الزمن يعود إلى الوراء شيئاً فشيئاً، إن الزمن عامل نفسي أكثر!

كان عدنان ثملاً، وبينما نحن نسير صدفنا صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره، كان جميلاً بالقدر الذي أغوى عدنان، بشرته البيضاء المشوبة بالحمرة، تلك التي لا نراها في مجتمعنا إلّا طيفاً عابراً، دفعت عدنان لممارسة الوقاحة علناً... ناداه قائلاً:

ـ شو اسمك...؟

ـ أيمن.

ـ أيمن تروح معنا ناكل بوظة...؟

كان الطفل واعياً، فبمجرد انتهاء عدنان من جملته هذه، انطلق بعيداً، وغاب بين الجموع...

في حالة من التلاشي والاضمحلال... تضيع مبادىء الإنسان! فقد كان عدنان حالة عظمى من الاضمحلال، كان يقف بين مرحلتين هي اللاوعي والموت...

نسينا ذلك الصبي. وبعد مضي ساعة من الزمن، لم ندرك إلّا قيمة أجساد عمالقة وقفوا أمامنا بجبروت الأصنام في عرف قريش، يتوسّطهم ذلك الصبي ويبكي...

إن المرأة والصبي على درجة من التبادلية الصرفة، لا همَّ لهما إلّا البكاء!

أشار ذلك الصبي لعدنان وقال:

ـ هذا هو!!

إنطلق العمالقة يدفعون أمامهم الشر. أمسك أحد بتلابيب عدنان، فتجمهر الناس حولنا، الناس ينظرون، صاح أحدهم:

ـ شو بتطاول على صبي؟!

تدخّلت في الموقف محاولاً أن أبيّن مدى الخلط الواضح في الوجوه، بطريقة امتزجت بالكذب حدّ التصديق، وأننا للتوّ دخلنا إلى السوق، وأن الطفل واهم في تقدير الأوجه. فتدخّل عدد من الواقفين في تبرير هذا العذر، وحالوا بينهم وبين عدنان، بعد أن كادوا يسحقوننا. . .

تذكّرت ذلك الموقف فبادرته:

ـ أنا مؤيد لرأي عدنان. . .

وقف ممدوح بسيارته عند الإشارة وعاد في نفس الاتجاه وهو يقول:

ـ بكيفكم. . .!

كانت دمشق غارقة في بحر من الناس. الازدحام شديد جداً، بالكاد تجد لسيارتك مخرجاً تنفذ منه. صوت الأغاني ينداح من جلّ السيارات تقريباً، السوريون شعب غنائي بالدرجة الأولى، يقدّر هذا الفن، هم أسياد الحضارة العربية، بسطاء حتى في تركيبهم الاجتماعي. قمة البساطة أن تجد كل من حولك يسيرون بوتيرة واحدة!!

بدأنا بالصعود إلى قمة هذا الجبل، من أعلى قمته ترى دمشق وكأنها لوحة فنان تشكيلي أهملت وتداخلت ألوانها. دمشق صغيرة جداً. قال أحد المهندسين الدمشقيين إن قطر دمشق لا يتعدّى الخمسة كيلومترات. . .

في ذلك اليوم وبينما نحن عائدون من بلودان، اختلطت

علينا الطرق، فوجدنا رجلاً ثلاثينياً يسير بجانب الطريق، وقد ارتدى بزّة رمادية اللون. كان حسن القيافة، طلبنا منه أن يدلّنا على الطريق الموصل إلى مساكن برزة فقال:

ـ أنا أريد الذهاب إلى ركن الدين، هو على الطريق الموصل إلى برزة، أوصلوني معكم ومن هناك سأدلّكم على الطريق...

ركب معنا، وكانت زحمة الطريق أشبه بأطفال يتدافعون على بائع متجوّل، فقلت له يومها:

ـ لماذا دائماً دمشق مزدحمة، ولماذا كلهم يسيرون في وقت واحد...؟

ـ أتعلم يا أخي، بأن قطر مدينة دمشق خمسة كيلومترات، وهذا ما يجعل الازدحام شديداً جداً...

سألته يومها:

ـ خمسة كيلومترات وهي العاصمة...؟!

ـ أنا أقصد المدينة بغضّ الطرف عن ضواحي المدينة قطرها لا يتعدّى الخمسة كيلومترات فقط...

ـ وأنت ماذا تعمل...؟

ـ أنا مهندس.

إنقشعت شفتاي عن أسنان بيضاء وقلت:

ـ إذن، لعملك دور كبير في هذه الدقة.

لم أكن لأكذّب ذلك المهندس يومها، ولم أنساق للتصديق أيضاً، بقيت بين هاتين القيمتين حائراً أيهما أرتدي، مكثت

لوهلة أحاول تبرير كلماته تلك. لم أعتقد يومها بأن الزمن كفيل بأن يصنع شخوصاً يلوكون الكذب فقط لبيان مدى اطلاعهم، لكن هي الحياة من الغبن بأن تضعك تحت سلطة أناس غير عاديين، حتى في كذبهم!

بدأت البرودة تدخل خفيةً إلى مقصورة السيارة عبر شبابيكها، وكأنها توة التجسس، فكلما ارتفعنا قليلاً ازدادت البرودة رويداً. السيارات بدأت تقل، ولم يعد هنالك إلّا العدد البسيط من السيارات التي يتشارك فيها رجل وامرأة، الارتفاع، منفى الأرواح. كان جبل قاسيون ملاذاً للعشاق، فيه يصفو المكان وتتداخل الأرواح وتمتزج. أتذكّر الآن ذلك اليوم الذي رأيت فيه شاباً وفتاة على قمة هذا الجبل، وهما في عناق مثير ومدهش. لا أدري لماذا نهوى النظر إلى تعانق الأجساد...؟ دائماً ما يلحّ عليّ سؤال، لماذا الارتفاع مدعاة للعناق...؟ قال لي عدنان يومها:

ـ كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، قلّ الأوكسجين، ويصعب تنفُّس الإنسان، لهذا يستعيض البشر عن نقصان الأوكسجين بأن يتنفّس كل واحد من رئة الآخر!، أو ربما يكون للتحليق بعيداً عن دنيا الإنسان سبب في حب الارتفاع. في المرتفعات تسمو أرواحنا، وأفكارنا، ونغدو عصافير محلّقة!

يعجبني عدنان حين يفلسف آراءه في كثير من الأحايين...

تراصّت المطاعم على الجانب الأيمن من الطريق. كان صوت الطرب الأصيل ينبثق من جل المطاعم، في الطرب الدمشقيون مخلوقات أصيلة، يقدّرون جورج وسوف تقديراً عظيماً. سألت أحدهم ذات يوم لماذا تكثرون من سماع أغاني جورج وسوف، فقال لي بنبرة ضاحكة: «لأنه إنتاج محلي»!! ضحكت يومها وأنا أخاطب داخلي كم من المطربين في بلادنا إنتاج محلي، لكنهم يغدون غرباناً تنعق حين يغنّون!

(كلام الناس لا بيقدّم... ولا يأخر...

كلام الناس ملامة وغيرة مش أكتر).

وقفنا بجانب المطعم، وهذه الأغنية تنتشر في الفضاء. نزل تركي وطلب لنا قهوة بدون سكر، رغبة منه في فك طلاسم السكر. فتحت مؤخرة السيارة، واستللت منها فرشة صغيرة، جلسنا عليها مطلّين على دمشق العتيقة. أنوارها كانت أشبه بنجوم في كبد سماء صافية، وما إن استقرّت مؤخراتنا على هذه الفرشة حتى لكزني عدنان في خاصرتي وهو يقول:

ـ فارس أنظر هناك!

مقامرة حين تكون أجسادنا أنفاقاً تُعبَر

ثلاث فتيات قادمات من بعيد، صببن أجسادهن في بناطيل من الجينز الضيّق. تدلّت من أكتافهن حقائب نسائية ذات ألوان زاهية. كان منظرهن مثيراً جداً، ومدهشاً حدّ الاستمتاع، مررن بجانبنا وهن مبتسمات، نظرات الإغواء تسكن وجوههن، نظرت إليهن وقلت بنبرة كوميدية:

ـ تفضلوا. . .

ردت إحداهن بغنج وكانت أقصرهن:

ـ شكراً. . .

قال لها عدنان بنبرة ساخرة:

ـ عفواً. . .

حاولت أن تتمعّن في عدنان هو الباعث على الحس الفكاهي وقالت:

ـ يبدو أنك سعودي. . .؟

منذ أن طرحت تساؤلها البسيط هذا وأنا لا أملك الإجابة على سؤال اعتراني حدّ الالتصاق. هل الكائن السعودي فكاهي البنية. . .؟ أم أن خفّة الظل طاغية على سمات

المخلوق السعودي...؟ وكيف يمكن أن نؤطِّر الإنسان من خلال تصرفاته بكونه ينتمي إلى بقعة جغرافية معينة...؟ وهل للبقعة تأثير على تصرفاتنا...؟ والسؤال العملاق جداً، هل الكائن السعودي من الترف بحيث ينحاز إلى الفكاهة أكثر، كونه لا يعاني من شيء سوى فقدان الضحك كسمة إنسانية...؟!

ردَّ عليها عدنان بذات النبرة:

ـ عفواً لستُ سعودياً أنا صعلوك شمالي...

في هذه الأثناء وصل تركي وفي يديه أربع كؤوس من القهوة التركية، وقد حملها على لوح كرتوني، وعندما رأت الفتاة الكؤوس قالت:

ـ إذن لم تحسبوا حسابنا في القهوة!

شعرت حين قالت عبارتها هذه بأنها تقامر في مكوثها معنا. فالمرأة مقامِرة أكثر، لأنها لا تستطيع أن تفرض رؤيتها بدون مخاتلة، لم يكن مني آنذاك إلّا أن قلت:

ـ لا عليكِ سنحسب حسابكن، تفضّلوا...

تردّدن قليلاً في الجلوس، لكن أقصرهن كانت من الجرأة بحيث خبطت على كتف عدنان وجلست إلى جانبه، في محاولة منها لفضّ الصراع الداخلي فيها بين مكوث تحتاج إليه، وبين رغبة ينبغي لها من تورية في تمريرها. عندها دسست في يد تركي بعضاً من النقود، وأنا أسألهن:

ـ ماذا تشربن...؟

قالت أجملهن وقد كانت فارعة الطول مقارنة بصديقاتها:
ـ نريد شيئاً بارداً على ذوقكم...
إنسلّ تركي من بيننا. حينئذ نظر عدنان إلى أجملهن وقال مخاطباً إياها:
ـ المرأة الطويلة كالصدق، نادر في مجتمع النساء!
بدت نظراتنا تشعل فتيلاً من الخجل، فالبشر في لحظة عدم معرفتهم ببعضهم البعض يكون الهاجس خجلاً، وقدرة عالية على تسوية التصرفات كي تخرج معقولة فقط، لأن المنطقية في التصرفات باعث على الاحترام الكامل للفرد...
عندما سمعت أطولهن ما قاله عدنان أطرقت في خجلها ثم قالت:
ـ لكنك أنت لست بالطويل...؟
ـ لستُ طويلاً، لكن يكفي أنني أطول منكِ!
ـ الرجال لا بدّ وأن يكونوا طوال القامة، وأنت مقارنة بهم قصير!
ـ أشعر بأنكِ تتقمّصين شخصيتي.
ـ كيف...؟
ـ تلاعبيني بنفس الأسلوب، لأنني قلت لكِ بأنكِ طويلة ومخالفة لمجتمع النساء، تقولين بأني قصير ومخالف لمجتمع الذكور!
ـ ها ها ها لا لم أقصد هذا...
ـ أتعلمين بأنني رسمت لحياتي النسائية قاعدة هي «عندما

تجد الرجل يصنع اللامبالاة، ستجد المرأة تهرول إليه طواعيك!!!

ـ نحن...؟!

ضحك عدنان بصوت مسموع وقال:

ـ لكاااااااااااان!!

ران صمت على الجلسة لبرهة، عندها سألتهن:

ـ من أين أنتن...؟

ـ لسنا دمشقيات!

كان هذا الرد الدبلوماسي جديراً بألا أسألهن بعد ذلك أي سؤال شخصي، فالدبلوماسية في الردود اتفاق ضمني على عدم الخوض في غمار الحديث مرة أخرى... عندها لم يكن من ممدوح إلى أن أشار إلى إحداهن وقال:

ـ أنتِ أجملهن!

توارت خجلاً، لكن عدنان بتر خجلها هذا بقوله:

ـ ما أسماؤكن...؟

قالت أقصرهن وأجرؤهن:

ـ أنا اسمي «سعاد»، وهذه وهي تشير إلى أجملهن «سهام»، وتلك وهي تشير إلى صديقتها المتواضعة الجمال تُدعى «منى»...

كم هي غبية أسماؤنا، لأنها تحشر الإنسان بكل ما فيه في أحرف قليلة. دائماً أسماؤنا معالم جغرافية لا نستطيع تغييرها

البتة، وهي سجون نسجن فيها مدار حياتنا، عندما تكون على شفتي حفرة من الانهيار ليس لك إلّا التورية!!

ـ وأنتم، هكذا قالت سعاد...

أتذكّر أني يومها كذبت حدّ التصديق، لكن ما يثيرني الآن بعد قرون من تلك الحادثة، أنني كنتُ أكذب لا أدري لماذا...؟ فهل الكذب فعلاً ملح الرجال...؟ أم أن حياتنا من التناقض تفرض علينا مناسك الكذب كهدي...؟

أشرتُ إلى عدنان وقلت هذا يدعى «علي»، وأنا أشير إلى ممدوح قلت وهذا اسمه «أيمن»، وأنا أدعى «عبد العزيز»، أما ذاك الذي ذهب لشراء بعض من العصير اسمه «أحمد»...

نظرت إلينا سعاد نظرة حالمة وقالت وهي تبتسم: «تشرّفنا»...

كل من هم حولنا لبقون إلّا السعوديون. أشعر دائماً بشيء تجاه احترامنا لبعضنا، أحسّ بأنه مردوم بحقد دفين...

عاد ممدوح وفي يده ثلاثة أكواب من العصير. جلس وقدّم لهن العصير، تناولنه وارتشفت كل منهن رشفة بسيطة. أخرجت سيجارة ومددتُ الأخرى لعدنان. أخذنا نمتصّ سجائرنا بحب، التدخين جميل جداً برفقة امرأة، هذه العبارة لم تأتِ كأي عبارة في العالم؛ هذه العبارة حياة أخرى نعيشها قالها لي «سعد» عندما عاد إلى الاستراحة ذات يوم،

وبدأ يسرد علينا ما حدث معه عندما أنزل صديقته قبل ساعة من دخوله علينا، عاد وهو يرقص ويقول:

ـ المواعيد الغرامية في حياتنا سرقة، وجرم عظيم، قانون هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيف بتّار، لا أدري لماذا يحاربون من يفعل هذا الأمر بإرادته. . .؟

سألته يومها:

ـ هل قابلت الهيئة. . .؟

ـ لا لم أقابلها، والحمد للّٰه أنني لم أقابلها. اليوم شربت سجائري بلهفة ولذّة، أتعلمون أن التدخين جميل جداً برفقة امرأة. . . !

مددتُ سيجارة إلى أقصرهن، فتناولتها وأعطيت كل فتاة منهن سيجارة، بدأن يدخّن بأسلوب رائع. نظرت إلى عدنان وقلت:

ـ أين هي الهيئة الآن. . .؟

أطلق ضحكة عظيمة جداً وقال:

ـ إن الشعور بالقهر هو ما يجعلنا نمارس التشفّي علناً!!

ـ هل تقصد بأنني الآن أتشفّى. . .؟

ـ بطريقة أو أخرى نحن نتشفّى، فلو مارسنا حياتنا كما نريد بكل أريحية لما قطعنا كل هذه المسافة من أجل جلسة كهذه!!

وبينما نحن كذلك، نتحدث، ونضحك، عبرتنا سيارة تسير بتؤدة. كانت تظهر من لوحتها أنها «كويتية». كان يقودها

شاب، ويخرج رأسه من النافذة شاب آخر، فعندما رآنا، صاح بأعلى صوته موجّهاً كلامه إلينا:

ـ يه شو هالمسخرة...

لم ننتبه له بادىء الأمر، فعبرنا ليعود مرة أخرى وهو يشير إلينا قال:

ـ شو هالمسخرة، ماخذين قحابكم معكم!!

لم يتمالك تركي نفسه، فطوّح بالكأس التي كانت في يمينه باتجاه السيارة وهو يقول:

ـ قف، يابن القحبة!!

وقفت السيارة على عجل، وترجّل منها ثلاثة شبان فارعي القامة، فانطلق تركي باتجاههم، ولحقنا به، وتشابكت الأيدي، وحلّت لعنة الشيطان. لم تمر سوى دقائق حتى عجّ الطريق بالناس، وتجمّعوا حولنا، وحاولوا فض الاشتباك. بلغ الغضب من تركي مبلغاً عظيماً، فقال وقد أمسك به شاب سوري:

ـ واللّه لأربّيكم يا عيال الكلب!!

أخذنا في لمّ شتاتنا، ونفض الغضب عن أجسادنا. وقفت الفتيات في خط مستقيم ينظرن إلينا في دهشة، قالت أصغرهن:

ـ فعلاً أنتم صعاليك!!

نظر إليها عدنان بغضب، وقال بلهجة ساخطة:

ـ وفعلاً أنتِ قحبة!!

مشطتْ جسد عدنان بنظرة ازدراء من الأعلى إلى الأسفل، وأعادت نظرتها تلك من الأسفل إلى الأعلى، وزمّت على شفتيها دلالة على عدم الرضى، وذهبت تجرّ خلفها بقايا من جلسة جميلة، وشبّان متهورين!

آه.. إن أكثر ما يحيّرني أن حياتنا كانت تجمع بين المضاربات بوصفها كنية متعلقة بأجساد الشباب، وعهراً بالغ الحد!

كيف استطعنا أن نجمع بين شتات وتجميع...؟ ولماذا لم نركن إلى الشتات أو إلى التجميع...؟

إننا كنا من الغرائبية بأن استطعنا أن نضم المتناقضات في سياق واحد! لماذا لا ننحاز إلى سمة من هاتين السمتين لنبالغ في الإيغار فيها...؟!

هل العهر والتحلل في أي درجة من درجاته يمكن أن يلتقي بالمضاربات والتوارد بالأيدي...؟!

أحتار كثيراً فيما كنا نفعله، بيد أن الجانب الذكوري من شخصية أي إنسان فيها من البعثرة ما يجعلنا نقف أمام الحياة بدهشة!!

سارع ممدوح في شراء الماء، شربناه وغسلنا ما علق بنا من قذارة. ألقينا أجسادنا على تلك الفرشة، الكل ينظر إلينا كممثلين مشهورين. وبعد قرابة النصف ساعة، كنا قد سلكنا طريق العودة، نريد سد هذا الجوع الجائر بأي شيء، وفي مخيلتي يلوح مطعم «السيسبان»...

يا ابن آدم: أنت مخلوق طيني الأصل

تنطلق السيارة مثل طوفان هادر. صوت جهاز التسجيل يعلن تمرّده على آذاننا، ندوخ في نشوة غنائية، اهتزازات ورقصات تملأ أرجاء المقصورة بعشوائية، كل في فلك يسبح، دائماً ما نبدل جلودنا كالأفاعي خارج أسوار معتقداتنا. لا أدري لماذا لا نشعر بالحرج خارج البلاد ونحن نمارس طفولتنا هذه...؟ أهو محاولة منا لإخراج الكميات المتكدّسة في داخلنا من التحرر...؟ أم هي لعنة المجتمعات المكبوتة...؟

في أحيان كثيرة نكون أشبه بالمناضلين، نتمرّد في أوقات معلومة، وفي أوقات أخرى ننحسر في أنفسنا لنقتات جبننا بلذّة!

نحن ثوريون بالفطرة. الثورة مرتكنة في دواخلنا تمشّط ردهات عقولنا خائبة، لكنها في لحظة ما تنطلق كعيار ناري في قصف عشوائي لتردينا قتلى!

كان المطعم بعيداً، بحيث اقتتنا أحاديثنا بملل، قال تركي:

ـ المطعم بعيد، لماذا لا نتناول عشاءنا في مطعم «أبي كمال» فهو قريب..؟

ردَّ عليه ممدوح وهو مركّز نظره على الطريق والسيارات المارقة:

ـ هذا رأي شيخنا «فارس» وهو القول الراجح!

ضحكت باقتضاب، وقلت:

ـ القول الراجح لا يلغي الاختلاف، لكن غداً إن شاء الله سنذهب إلى مطعم أبي كمال...

سلكنا طريق المطار مسرعين، تعبر السيارات بجانبنا لكأنها أعجاز نخل خاوية. طريق المطار يشبه إلى حدٍّ ما مجرى كرة البولينغ، مرتّب وفسيح، يغري السرعة، لذات السرعة لا يسرع السائق، إنما نتيجة شعور انطباعي يولد في داخله تجاه الطريق.

كانت غيمة السكر قد زالت تماماً، وعصافير بطوننا تنادي وتصرخ، عبرنا الأرض السعيدة (هابي لاند)، واتجهنا محلّقين في المدى اتجاه المطعم.

منظر المطعم من الخارج مثل البيوت العتيقة، رسم درامي لقصة الشعوب العربية الأزلية. كم نحن حمقى قضايانا نمثّلها في واجهات محالنا، وحوانيتنا، اكتفينا برسم قضيتنا خارج إطار الصورة، نطوح بها بعيداً عن الخارطة الحقيقية. عذاب في التأمل لمأساة أمة كاملة، ترتسم على مطعم فيه من المراحيض عدد الطاولات!

عندما نذيب أساورنا الذهبية الثمينة في نار من التهميش، فإنها ستتلاشى وسيذهب بريقها؛ أمة مشغولة بالسكوت، أو الكلام في الغث، يخفت نبض قلب هويتها، نصعقها صعقة كهربائية تودي بحياتها، كم هي مسكينة هذه القضية فهي نشاز عن دنيا القضايا، ما تريده فقط مجرد مرافعة منصفة!

أشعر بأن العرب محام فاشل، لا يعرف من القانون إلّا لبس المعطف والتفنن في اقتناء الأحذية اللمّاعة. حقائبنا فراغ داخلي، أشبه ببراميل القاذورات، أحياناً يكون الكون كله مرمى قذارة!

دخلنا المطعم، كان غاية في البهاء. أسلوب فاره في السرقة، النوافير والعاملون يتشابهون إلى حدٍّ كبير، يؤدّون عملهم في آلية، كل عمال العالم في لحظة مؤقتة يصبحون آلات ناطقة مسايرة للعمل. كنا نضحك بصوت مسموع. منظرنا يوحي بصعلكة علنية. في الركن القصيّ من المطعم كان ثمة طاولة تضم شاباً وفتاة، كانا في أواسط العقد الثاني، جمال أرواحهما كان يرقص على الطاولة طرباً. كان الشاب يداعب خصلات شعر نفرت من بين خصل تلك الأنثى، وهي تتمرّد بغنج وتتمنّع، بضحكة طافية على محياها، تزيد من جمال تلك الجنّة. وعندما رأونا كفّا عن ممارسة عبثهما الطفولي ذاك، دائماً يغزونا الخجل في تلك الساعة التي نصل فيها إلى ذروة الفعل، تكون ردّة الفعل المنتشي خجلاً لذيذاً جداً. . .

تراكض العاملون إلينا بعدما اقتعدنا طاولة في الركن المقابل المطل لهذين العصفورين. كانا في مواجهتي تماماً، اخترت الزاوية التي تكون فيها الفتاة أقرب لعينيّ من الشاب، في محاولة مني لسرقة النظرات بطريقة رياضية الطابع، محور رؤية كان رغبة، وقطر نظرتي كان محاولة في التذكر والتخيّل . . .

طلبنا من النادل إحضار العشاء الفاخر، وأخذ عدنان يستهزىء بممدوح ويسخر منه وأنا سادرٌ في النظر والتأويل لكل الحركات والإيماءات المنبثقة من تلك الفتاة!

لا أدري أين قرأت «إن الرجل عندما يقبل ظهر يد المرأة فهذا يعني أنه يحبها، وعندما يقبل باطن يدها فمعناه أنه يشتهيها». لكن هذه العبارة ما زالت عالقة في ذهني كوسم. رأيت ذلك الشاب يضع وسطى أصابع يده اليسرى على شفتي تلك الفتاة، وهي تمسح براحة يدها اليمنى خدّه الأيسر. في تلك الصورة السينمائية الهائلة آمنت بأن التصرفات تغرق الروح في فيضان من الحنان. بعد هذه الصورة الملائكية المبهرة لم يستمر مكوثهما طويلاً، غادرا المكان والشاب يتأبّط يد فتاته، وناظر إلى عينيها الخضراوين غير آبهٍ بنظراتنا التي مزّقت أجسادهما إرباً!

قال تركي:

ـ وجدتُ اتصالاً من أخي الأصغر لا أدري ماذا يريد . . .؟

قلت له:

ـ اتصل به إذن يبدو أن ثمة ما يهم. . .

ـ لن أتصل به إلّا بعد السهرة، لا أريد تعكير مزاجي بتصرفاته!

عندما تغيب المأساة لا تغيب عنا تفاصيلها أبداً، نتذكّر كل ثوانيها بلهفة قوية في تبديدها، ورغبة عارمة في الانتقام منها، هذا الانتقام أشبه بمحاولة يائسة لأسير بالهرب. تفكيرنا انتقامي بالدرجة الأولى، نظرتنا تآمرية يخالطها غباء موارب، بين هذا وذاك، يوصلنا بالحياة خيط دقيق جداً يشرط أجسادنا هو الواقع!

ـ ماذا نريد هنا، نحن الذين هربنا من ديارنا. . .؟

قالها ممدوح وهو يضحك، فنظرت إليه وقلت:

ـ نحن قادمون بتذكرة سفر ما بين الفخذين!

ضحك عدنان أيضاً وأضاف:

ـ بالعكس هربنا هنا محاولة جادة منا لملء قلوبنا بماء نشتهيه يساعدنا على الحياة في قهر صحراء الكبت!

قلت لعدنان:

ـ ليس في كل الحالات يكون الماء عذباً!

ـ العذوبة في بعض الأحيان لا تعني أن تشربها، ربما تكون في التأمل في هيئة الماء العذب!

ـ لكن إن طال الأمر سنعود. . .

قالها ممدوح وهو ينظر إلى النادل القادم من بعيد... فردّ عليه عدنان بلهجة حالمة:

ـ أجمل اللحظات هي تلك التي تعيشها بحياتك التي تستهويك!

تمتمت في داخلي وكأني لا أريد من أحد سماع ما أريد قوله، سر عظيم ألوكه في ذاتي، لا أود فضحه أمام مردة الإنس هنا:

ـ نظرية الإغلاق، تفرز فلسفة عميقة للأشياء!

بدأ توافد جموع الأطباق على الطاولة، وبدأت تعجّ المائدة بأشهى المأكولات، تزاحمت الأطباق وسال اللعاب، وما إن فرغ النادل من وضع آخر طبق حتى تدافعت الأنفس وانطلقت الأيدي، وبدأت تتلقّف كل ما في تلك الأطباق من نعمة ربانية جمة. بعد ثلث ساعة من الانقضاض المتواصل على فرائس المائدة المستلقية أمامنا، انقضى جوعنا. فنظر إلينا عدنان، وهو يبتسم ويقول:

ـ الرجال علامة فارقة على جبين الأكل!

انتهت فترة عمل الأيدي، وأرخى كل منا ظهره على المقعد، لتبدأ آلية عمل النَفَس. أخرج كل منا سيجارته واندلع الدخان في المطعم فارزاً سحباً دخانية مقززة، وعلت سحب الدخان ونحن غارقون في بحر من اللذّة الدخانية، وكأننا جرائيم لديها قابلية لتعيش بين هذا العفن...

إقترب النادل وبلطف انزلقت كلماته:

ـ غير مسموح التدخين في هذه المنطقة، إذا أردتم التدخين فاذهبوا إلى تلك المنطقة...

أشار بيده إلى منطقة مكشوفة، فيها مجموعة من الطاولات تناثرت بترتيب، لكن عدنان هاجمه بعنف:

ـ نحن هنا ندفع نقوداً لراحتنا، الرجاء عدم الإزعاج!

صعد الدم في وجه النادل غضباً، فانسحب ليعود بمعيته رجل تبدو من هيبته علامات السلطة وقال وهو ينظر إلينا بقرف:

ـ لو سمحتم التدخين هنا ممنوع!

ردّ عليه عدنان بذات النبرة الساخطة:

ـ هل تريد منا الذهاب لتلك المنطقة...؟

ومصّ من سيجارته نفساً عميقاً، وأطلقه في الهواء على شكل حلقات دائرية، وأطفأ السيجارة في طبق خالٍ أمامه، فلم يكن من الرجل إلّا أن ردّ عليه بنفس نبرة عدنان:

شباب قليل زوء!

فاستقمت لتهدئة هذه النار المستعرة في الصدور، وقلت بنبرة خشنة:

ـ سندفع لك ما تريد، لكن الرجاء عدم إطلاق ألفاظك جزافاً!

تناولت فاتورة الحساب المدسوسة في محفظة جلدية كانت

أمامي بعد أن وضعها النادل بأدب. كان الحساب آنذاك، ألفين وخمسمائة ليرة، فوضعت فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة ليرة، وخرجنا متجهين إلى المغاسل. غسلنا ما علق في أيدينا ونفوسنا من وهم وخرجنا... متجهين إلى الشقة، وحاجة ماسة في ذواتنا للشرب!

مؤخرة الأشياء لا تعني وضاعتها

ليل هادىء يشرّع سماء دمشق. السكون يخيّم على أرجاء المدينة. عبورنا للشارع استدعى نظرنا بتعمّق للبيوت البائسة. دائماً ما كنت أشعر بأن هذه البيوت هي مخلوقات أوغلت في الحياد، تنظر إلى بعضها البعض على مر السنين دون تعانق. نظرتها ممزوجة باللعن لهذه الحياة التي أبقتها كما هي بدون تغير، البيوت أشبه بالمسنين، نظرتهم غائرة في السكينة المشوبة بالكره...

كانتا تقفان على رصيف الشارع، رأيتهما من بعيد وهما يفرغان ثنايا جسديهما في ملابس ضيقة، بدأت سرعة السيارة تخف شيئاً فشيئاً، عبرناهما وعيوننا مسمّرة على هذين الجسدين اللذيذين. بدت نظرات الدلع منهما أكثر وضوحاً. أوقف ممدوح السيارة على بعد أمتار منهما، كانت تلك اللحظة أشبه بسرقة غير مرتب لها، ترجّلت من السيارة وسارعت في الوصول إليهما. نظرتا إليَّ وأنا في كامل اندفاعي.

أحياناً نكون مدفوعين بعامل الشهوة، لحظة تلك

الاندفاعية، نغمض أعيننا ونتطير من كل نقاء وبهاء في هذه البسيطة، الإنسان مجبول على الشهوة، في كل مسارات حياته، ثمة حبل رفيع جداً للشهوة يشق تلك الدائرة الحياتية بوضوح!

وقفت أمامهما، ألقيت التحية كشخص مار بالصدفة، ردّت إحداهما، والأخرى بقيت تنظر إليَّ بغرابة. أشعر بأنها في تلك الحالة أخذت توغل في غرائبيتي المطاطية هذه سألتهما:

ـ هل تريدان منا إيصالكما...؟ طأطأت إحداهما رأسها والأخرى ردّت بعبارة حبالى بالتأويلات:

ـ السيارة لا تكفي إلّا لواحدة منا، فكيف تريدنا أن نذهب معاً...؟!

ـ إذن لنوصل واحدة منكما...

حسناً اذهبي أنتِ معه، أما أنا فسأنتظر هنا ليأتِ من يوصلني!

أخذت أسحب قدمي، وهي تجرجر قدميها ورائي بحياد مبالغ. حاولت أن أستحثها كي تسرع بالمباعدة ما بين رجليها، لكنها أصرّت على مشيتها التي تشبه أحاجي عدنان الكثيرة. صعدتُ إلى السيارة، وصعدت خلفي، فأغلقت الباب بقوة، وأنا أحث ممدوح على الإسراع إلى المنزل، وعدنان في مقدمة السيارة يقول:

ـ إن القوة وليدة الضعف، عندما يكون ثمة أقوياء فهم

ولدوا من رحم الضعف، وهم حياتهم وخذلانها لهم أحالهم إلى كائنات قوية جداً!

خبطتْ على كتف عدنان وهي تقول بابتسامة ذات مغزى:

ـ أوه، لديكم فيلسوف!!!

اعتدل عدنان في جلسته، وأعطى زجاج النافذة ظهره وهو ينظر إليها ويقول:

ـ إن كل العباقرة، والفلاسفة، والمبدعين، لم يخلقوا هكذا إلا بفعل شارد من أنثى في حياتهم!!

أرخى عينه اليمنى على نصف إغماضة وأضاف:

ـ حين نتافح بعقولنا فنحن الفاقدين للذّة العاطفة الطاهرة!!

دلفنا إلى شارع برزة العام، نظرت إليها وقلت:

ـ ما اسمكِ...؟

ـ غفران.

كم أكره العبارات المبتورة، وكم أكره أن أكون كلمة تسدّ فارغاً ما!

قال عدنان وهو يضحك:

ـ يااللّه اسمكِ جميل، كم نحتاج من الكلمات لنكفّر بها عن خطايانا، إن اسمكِ هو الحلم الدنيوي الأوهن. الغفران مصطلح يوحي بالنقاء، والنقاء لا يأتِ إلّا من بعد التلوث!

لم أدرك يومها أن الكلمات نبوءات مستقبلية للأقدار، ولم أعرف أبداً أن الأحرف أقدارٌ تُكتب...!

أوقف ممدوح السيارة عند بوابة البناية، وترجّلنا من

السيارة. دسسنا أجسادنا فيها، وفي الممر الموصل إلى الشقة، لم أتورع في جس نبض مؤخرة تلك الفتاة، عندها رآني عدنان وقال:

ـ ها ها ها، لا يغرنك، الحياة جمالها مغلف، فكم من روعة مبطنة بالأردان النجسة!

ولجنا إلى الشقة، فأسرع كل منا في تجهيز السرداق لسهرته الخاصة، ومأتم البهجة المغلوطة، المخلوطة بالخطايا. بدّل الشباب ملابسهم، وعندما أنهوا هذا التجهيز سألوني هل أودّ الذهاب معهم فقلت (ليلتي ستكون مختلفة)!!

نقدتهم ثمن سهرتهم، وأبقيت باقي النقود معي، وعدت لذات الحجرة التي مارست فيها رداءتي في الصباح، وجدتها تنتظرني بابتسامة رقيقة، وضعت قميصي على طرف السرير، نظرت إليها على الفور، وعلى محياي قد تشكّلت ابتسامة شهوة وغواية، سألتها:

ـ كم تبين...؟!

ـ اللي بدك إياه...

ـ لا، لازم نتفق اللي أوله شرط نهايته نور.

ـ ما عليك، المهم عندي أنك تنبسط بس!

عند هذه الجملة، أوقفت سيل الأسئلة، لكني سألتها بلطف:

ـ هل تشربين...؟

ـ نعم، وأنا من سأعدّ لك الشراب بيدي...

ـ حسناً ثمة قارورة في الثلاجة. . .

خرجت، وأنا مستلق لا أحس إلا بصوت خفيض جداً لوقع أقدامها. كل العالم من حولي بدأ ينحسر إلى أن يتلاشى، جعلت في رسم الخيالات الليلية. عادت وهي تحمل طبقاً، وقد استقرّ فوقه كأسان وقارورة شيفاز، وطبق مليء قوالب ثلجية، وضعته أمامي، كنت كوالٍ طاغ خلى بجاريته في عزلة ليلية. أحاسيسنا الليلية شياطين ترتدي ثياباً بيضاء. في بعض الأحيان أتساءل لماذا يغزونا شبح الخطيئة ليلاً. . .؟ هل هو حب في التخفي. . .؟ أم أن مشاعرنا تذوب في الليل. . .؟!

كم هو قاس الشعور الليلي العاق لكل الأولياء الصالحين الليليين!!

سكبت بعضاً من المشروب في الكأسين أمامها، ناولتني أحدهما وهي تقول «تفضّل»، تناولت الكأس ورشفت منه رشفة، بينما اكتفت هي بالنظر إليَّ، رشفت رشفة أخرى تحريضاً لها، فرشفت هي رشفتها الأولى، استلقيت على السرير وأخذتُ أنظر إلى وجهها الطفولي البريء، وهي تنظر بشموخ ممزوج بالغموض. . .

في لغة العيون البقاء للأقوى، حين تكون نظرة المرأة غامضة تبدّد كل ما هو أمامها بقسوة. نظرتنا دليل لما تكتنزه الأرواح من أفكار ومشاعر، هي الطريق الوعر للوصول إلى قمة التكوين السلوكي للإنسان.

اقتربت منها كلص، جاسّاً بيدي خيط حمالة صدرها

الملتوي خلف كتفها، ومِمسكاً به برفق. سرحت يدي في مراعيها كشاة حظيت بمراعٍ وافرة الخضرة، أخذت تتجوّل فيه بسعادة بالغة، تنهم فيهً بشبق ولذّة. أحياناً نكون أقرب للحيوانات منا إلى الإنس، في هذا الشعور نتشظّى إلى شظيتين عظيمتين ضعف وشهوة!

مرّت يدي على أطراف نهديها النافرين، وعلى نحرها الذي أستطيع منه أن أحدّد خيوط جسدها الخضراء الممتدة تحت الجلد، صعدت يدي إلى خدها، ويدي الأخرى ممسكة بالكأس التي تتداور إلى فمي بشكل منتظم. تحسست خدها الحار برفق. وعيناها نصف مغمضتين، وضعت طرف إصبعي على شفتيها، وحركتها بلطف، ثم غمست رأس إصبعي في فمها، مصّت إصبعي، فاندلعت شرارة النيران في داخلي، الحرارة تنجب اللذة بطريقة فظيعة!

اقتربت منها أكثر، ووضعت الكأس جانباً، وطوّقتها بيدي من خلف رقبتها، تناولت شفتيها بسكينة، وشرعت أمصها رويداً رويداً، دفعتني إلى الخلف، وما إن استلقيت على ظهري حتى قفزت ووضعت يديها على خديّ وأخذت تمص شفتيّ بعنف، وجذعها من الأسفل يتحرك على فخذي، حرارة من الأعلى، وحرارة من الأسفل، كنت بين نارين. نشبه الأطفال عندما نمارس الجنس. طابع التقلب الطفولي هو السائد!!

تقلّبنا كثيراً قبل أن نخلع الأردية، في تلك الليلة شربت من موردين حتى اختل توازني!!

الشك نبوءة اليقين

إستيقظت في صباح اليوم التالي على صوت «نور» وهي تضع يدها على صدري المكشوف، تداعب شعيراته النافرة قليلاً. الإجهاد بنى مستعمراته على جسدي، كانت ليلة البارحة بمثابة حرب أهلية، سألتني:

ـ ما بك...؟ لماذا لم تذهب مع أصدقائك....؟!

جاوبتها وأنا أحاول جاهداً أن أعدل من هيئتي:

ـ شعرت بالتعب، ففضّلت المكوث هنا للراحة!

ـ سلامتك، ما تشوف شر....

ـ ما يجيك الشر...

شياطين النهار كائنات حمقاء جداً، تمارس عملها في وضوح، فتبدي حماقات مرئية مضحكة، سألتها:

ـ هل أوصدتِ الباب بإحكام...؟

نعم...

عند سماعي لتلك الكلمة، طلبت منها إعداد أي لقمة أسدّ بها جوعاً أخذ يقتات من جسدي. ذهبت إلى المطبخ، وبعد برهة ليست بالطويلة، عادت وهي تحمل في يدها ساندويتش

وكأساً من الشاي كانت قد أعدّته مسبقاً. تناولته بسرعة فائقة، وما إن انتهيت حتى سحبتها من قميصها، وألقمتها شفتي، فارتمت عليَّ بكل قواها. صدرت مني آهة، حاولت تقريبها من آهة اللذة كي لا يظهر لها مدى وجعي من سقطتها عليَّ، بدايات الجنس جمال النشوة الأبدية!!

بعد أن سقيت أرضها المجدبة من مائي الدافق، أرحنا ظهورنا من عناء هذه الرحلة الإنسانية المتعبة، ناظرين إلى سقف الحجرة. تذكّرت يوم أمس فسألتها:

ـ نور ماذا فعلتِ مع ممدوح عندما دخلتما بالأمس إلى هذه الحجرة...؟

ـ كما يفعل أي رجل عندما يختلي بامرأة، لا يعرفها كثيراً!!

ـ ماذا تقصدين...

ـ الرجال مخلوقات غبية، يظهرون الضعف لاستمالة النساء!!

ـ وماذا فعل معكِ الآن!

قطع علينا حديثنا صوت طرق على الباب. أقبلت نور على الباب، ففتحته ليدخل عدنان وتركي وممدوح، سمعت عدنان من الحجرة وهو يقول لتركي:

ـ يا أخي الدنيا دنية، لا تستحق!

ـ عدنان هذا أخي، ألا تعرف معنى أنه أخي...؟!

ـ حسناً سنسافر، جهّزوا أغراضكم...

خرجت بعدما ارتديت ملابسي الملقاة بجانب السرير.
وجدت تركي متقرفصاً على نفسه كميت في زاوية الصالة القصية، وهو يبكي، بادرتهم:

ـ ماذا حدث...؟

ردّ ممدوح ببرود:

ـ أخي تركي في المستشفى انقلبت به سيارته...

ـ هل هو بخير...؟

هكذا قلت بتعجب... ردّ تركي وهو يغالب غصّة تعلّقت بحنجرته:

ـ يقولون إنه في العناية الفائقة...!

صحت فيهم، لنلمّ حاجياتنا، سنذهب الآن، حاولوا الإسراع قدر المستطاع...

بعد نصف ساعة وبعدما أعدّ الشباب حاجياتهم، اكتشفت أن غفران قد سرقت كل النقود من محفظتي!!

آه... إن نصف المأساة في حياة كل امرىء ذكرى محرقة!!

خرجت إلى الشباب، مطأطىء الرأس، ونور تحمل تركي في حضنها تحاول تخفيف وطأة الخبر عليه. دفء المرأة عامل فطري في تهدئة الرجل، قلت:

ـ غفران سرقت كل النقود!!

ضحك عدنان بسخرية وقال:

ـ عندما تأتي المصائب لا تأتي إلّا كالمطر!!

بادرتني نور:

ـ من هي غفران. . . ؟!

لم أستطع الإجابة عليها خجلاً، فردّ ممدوح ببرودة أيضاً:

ـ فتاة كانت مع فارس البارحة هنا!

ندت على شفتي نور ابتسامة ساخرة وقالت:

ـ فارس لماذا كذبت عليَّ إذن. . . ؟!

إلتزمت الصمت، كوسيلة رديئة في الهرب من سؤال طارىء، فقال عدنان بسخرية أيضاً:

ـ أحياناً يغزونا شبح الكذب بلا مبرر!!

نظرتُ إلى الشباب، وقلت سأبيع جهاز هاتفي النقّال، وسنعود إلى البلاد، وأنا أحاول أن أبدِّد صمتهم، وتفريق المصيبة قلت «هيا لنذهب». سحب كل منا حقيبته، وذهبنا إلى السيارة. . .

أتذكّر الآن أنه في تلك اللحظة صاحت بي نور:

ـ فارس ضع حقيبتك في السيارة وعد أريدك. . .

وضعتُ حقيبتي في مؤخرة السيارة، وعدت إلى نور بتكاسل خوف العتاب، فوجدتها قد اقتعدت كرسياً داخل المطبخ. عندما وصلت إليها بادرتها:

ـ نعم نور، ماذا تريدين. . . ؟

سحبت من حقيبة يدها بعض النقود ودسّتها في يدي وهي تقول:

ـ هذي عشرة آلاف ليرة، لا تبع جوالك، اعتبرها هدية مني لك، وللدقائق الجميلة التي قضيناها معاً، إنك أول شاب أستمتع بوجوده معي فعلاً!!

ـ لن آخذها يا نور أنتِ بحاجتها...

ـ لستُ بحاجتها حالياً، وإن لم تأخذها كهدية اعتبرها سلفاً...

ـ مطيتُ شفتي، ونظرت إليها، لم أكن أتخيّل يوماً بأن المرأة حالة وفاء مهولة كهذه، فالوفاء في المرأة أبلغ من الوفاء في الرجل، المرأة عندما تهب، تهب كل ما تملكه قربان حب. غزا الدمع عينيّ من جرّاء هذا الموقف النقي. اقتربت منها وقرّبت شفتي من شفتيها، أنفاسها الحارة النقية تجسّ وجهي، أمسكت رأسها وطبعت قبلة على مرفق شعرها، وشيء في داخلي يصرخ «دائماً لا نجد للأنقياء إلا قبلة رأس هدية نقدّمها قرباناً لنقائهم!»...

هممت بالرحيل، فالتفت إليها وقلت:

ـ نور ثقي بأنني سأعود يوماً...

عدت إلى السيارة، تاركاً ورائي جثمان امرأة وفية، تنتحب الحب العابر، هكذا هو حب العابرين، لذة لقاء، ودمعة فراق!

إتجهنا إلى الطريق الموصل إلى بلدنا، ذكرت ما حدث للشباب. كانت غرابة هذا الحدث بأن أحدهم لم يعلّق عليه،

لم أستطع يومها أن أخمّن سبب سكوتهم، لكنني واثق بأن ما كان يلجمهم شيء أكبر من مدى الكلام، فلم أتجرأ على قول أي كلمة علناً، إنما قلت في ذاتي:

ـ عندما يغرس الحب أنصاله في قلوبنا، يسيل ترياقه في دواخلنا لنهب من نحب كل ما لدينا بنفس راضية!!

الخريف

في كل العصور ثمة مأساة تندلق على الروح

في عصر اليوم التالي، اتجهت إلى المستشفى. تبدلت كل الأشياء في ظرف تسع ساعات، دلفت إلى المستشفى، وجدت تركي يبكي بعويل، فسألني بتحفز:

ـ فارس ما فصيلة دمك...؟

ـ +O.

ـ فهد محتاج إلى دم، هل تتبرّع له، أنا فصيلة دمي +A وهو +O.

ـ حسناً بكل سرور، لنذهب...

ذهب تركي بفرح، لينادي الطبيب، فعاد الطبيب مسرعاً، وهو يصافحني قال:

ـ أأنت من تودّ التبرع بالدم...؟

ـ نعم.

ـ إذن تعال معي...

استلقيت على السرير، وخزني الطبيب بإبرة في يدي اليسرى، وسحب مني دماً قدر حاجته وانطلق به. يحدث أن

يضحك الإنسان حينما يرى شيئاً منه يندلق أمامه ويغادره دونما وجل. عدت إلى فهد متأملاً إياه تحت وطأة المرض، بعد قرابة الساعة من التأمل، وأنا أنتظر الطبيب ليأتي كي يصب دمي في هذا الجسد الملقى أمامي.

شعور جميل أن تتأمّل نتائج مفرحة على مقربة من المأساة!

والأجمل حين تكون فرائحية الحياة ذات موعد غرامي معك!!

وبينما أنا أنتظر، وأمنية عظيمة تجوب في الأفق، بأني سأكون على ضفاف انتشال أحدهم من مأساة ما، سمعت أصواتاً وصراخاً في الخارج، وما هي إلّا دقائق، ودخل الطبيب برفقة اثنين من رجال أمن المستشفى، أشار إليَّ قائلاً «ها هو»!! انطلقا نحوي، بادرني أحدهما وقد كان طويل القامة بشكل مرعب:

ـ أأنت من تبرّع بالدم قبل قليل...؟!

ـ نعم...

ـ ما اسمك...؟

ـ فارس مرضي...

ـ نريدك، تفضّل معنا.

يومها... شعرتُ بدوار عنيف، وأخذت تمور بي الأرض، ولم أفق إلّا في داخل حجرة بيضاء...

عندما نستشعر الموت تتبدّى الحياة في حجمها الحقيقي!!

ملل... ملل!

الغفران حاصل حسابي للخطيئة، أمارس الآن غفراني من خطايا اقترفتها كثيراً...

لماذا يا غفران...؟!

يحدث أن تضحك من مأساتك...

إنني حين أضحك الآن لا أضحك إلّا لروعة ما كنت فيه مغفلاً، سُرقتُ مرتين... وحياتي دفع ضريبة لهذه السرقة!

والموت مقبل...

... عندما نتوارى عن الموت فتوارينا هذا باعث أصلي للخجل من ممارسة حقيقة الحياة، وعندما نخاتل الحياة بحقيقتها نزفر التبلد العقلي حمماً تصرفاتية حارة. هذا الكون وليد الموت وهذه الحياة حرقة له أيضاً. كل الكائنات المستعمرة وجه الأرض تعود نهاية إلى ذلك المارد... متعب ذلك الموقف الذي نقف فيه لتذكر آية الفناء... ومؤلم أن تعيش لحظة انتفاء حرة بكل تجلياتها!

لا أدري لماذا لم أنسَ عبارة عدنان تلك (كم نحتاج من الكلمات لنكفّر بها عن خطايانا، إن اسمكِ هو الحلم

الدنيوي الأوهن، الغفران مصطلح يوحي بالنقاء، والنقاء لا يأتِ إلّا من بعد التلوث!).

لن أعود يا نور. متأسف جداً لأنني لوثتُ طهركِ، ربما تقرأين هذا الأنين لتعرفي أن ثمة مأساة في جانب من الأرض بينما ثمة فرح في جانبها الآخر. حياتنا ثنائيات خطيرة ومضحكة، لكن ما أنا متأكد منه حد الثبات أنني لا أدري أين هي نور الآن...؟!

انتهت

2006/5/14

تبوك

المملكة العربية السعودية

„ كالأشياء التي تتوحد ولا تتشبه ببعضها ... ولا تنتمي للقادم هنا !!
تماماً شيئاً لم يكتمل .. هذا هو الكمال في الواقع ودفاعاً عليه .. إلا إنه أحياناً لم يكتب ولم يبدأ ! من هذا الجيل على الأوراق !!

„ والورود يثير احساد البشر حتى الكثرة .. بتجليها في سطور هذا العمل قومة الكتاب
فتراه يساير الناس والإحساس بما يحيط به الأرض وما حملت به ...

„ علوان محمد السهيمي فنضج مشروع ربيعاً .. يكتب الورود ويتراقص .. يتوالى ..
يراقب من كثب .. من قلعه .. من كثب .. من حب .. إيحاءات جميلة ...

„ هناك في الأراضي السعودية [حيث الخروج والعودة سريعاً ...!!]

„ حاولت أن أقرأ هذا العمل بحياد ولم أستطع .. لغة .. إنجاز آخر .
للطريقة .. الكتابة .. الشعر .. للأشياء .. „ لنا نحن كي نعرف أسماء فيه هذا الجيل ..

„ كل ما كتبنا جميل .. يأتي على الورود .. [استثنائياً] „ لنا نعرف السائد والكثير
والمحظور .. والهدية العميقة من هنا والأرصفة آثار انتهت „ هنا التوقيع والطرف

„ هذا الجيل يتنفس إبداعاً كما المستقبل .. [إبعدوه عني .. ما استطعتم] ..

„ علوان .. كتب ما لا يستطيع مقدمة حيث الورود ذات عبير لا ينطفئ وما بين
بين ... أسطرها .. يأتي السرد بلغة ظلامها .. الثريا .. وما الخليل المؤدة ...

كتبتها في ٢٧ / يناير / ٢٠٠٧ م
عبدالله صالح ...